

اشترى كتبك الورقية الآن .. تصلك لباب بيتك أينما كنت

كتابك لبابك أينما كنت في كل دول العالم



• توصيل لكل دول العالم

• تخفيضات كبيرة

• إمكانية الدفع عند الإستلام

• أكثر من 10 مليون عنوان عربي واجنبي



• تواصل فوري

• عروض يومية للتوفير

• كوبونات خصم متجددة

أضغط هنا للدخول إلى المكتبة



- رماد عادت به ساره
- خرج ولم يعد
- أحمد الذي أطفأ قلبه
- الرومانسي
- زينب يعصرها الآسى
- غوانتانامو .. ما جاني أمر
- قاومي ليلي
- قصة عائشة في غرفة التشريح
- لأنك تعلمت
- موزي حلم تحت الأقدام
- وداعاً هيا
- يفترس في الوجوه والليل يقترب
- الدرس في التابع والمتبوع
- ديمي .. حب أول
- رحلة القلب الأخيرة
- وتبقى الكتابة هماً ورسالة

رماد عادت به ساره

دلفت إلى المكتب ، فهاجمتها رائحة السجائر ، التي امتزجت بكل شيء .. من الجدران ، إلى المقاعد البلاستيكية ، وحتى الورقة التي ناولها إياها الجندي ، الذي يجلس بملل ، خلف مكتب معدني عتيق . بكاء الأطفال الذين معها .. ومشاكساتهم ، لم يترك لها مجالاً لتماماً البيانات ، في الورقة التي طلب منها الجندي تعبثها .

انشغلت بتطبيب خاطر أحدهم ، الذي كان قد تعثر في عتبة الباب . المكتب مصنوع من ألواح جاهزة ، من مواد مسبقة الصنع .. أقيم ارتجالاً ، في إحدى المساحات الفارغة ، القريبة من البوابة الرئيسية . مؤقت .. كما يقال .. واضح من طريقة بنائه العشوائية .. شأن كثير من قراراتنا ، وأمور حياتنا : مرتجلة ، مؤقتة .. وعشوائية .

لم تكن العتبة .. سوى طويتين اسمنتين ، وضعتا بدون نظام ، فانزلقت بينهما القدم الصغيرة ، فتقرح ظاهرها ، وهو ما جعل الحذاء يزيد حدة الألم ، عند أي حركة ، فيتألم الطفل .. ويلجأ للبكاء .

حين أكملت تعبئة البيانات المطلوبة ، توجهت إلى الجندي نفسه ، الذي علق بصره عليها ، لحظة خرجت .. من وراء ستارة زرقاء بهت لونها ، مثبتة في إحدى زوايا المكتب ، لتفصل مكان انتظار النساء عن بقية المكتب . كان الجندي يتأملها وهي مقبلة ، ويغرز نظرتين حادتين في جسدها ، الذي التفت عليه العباءة ، فلا يظهر منها إلا أطراف أناملها .. التي ترى أن عيني الجندي تستقر عليها ، بعد أن تتفحصاً جسمها ، فلا تجد شيئاً " أبيض " ، وسط ذاك السواد ، تقع عليه .. إلا هي . تناول الجندي الورقة منها ، بطريقة بدت ، كما لو أنه يحاول أن تلامس يده ، أطراف أناملها . وقفت تنتظر ، وهو يراجع الورقة بسرعة ، ليتأكد أن الخانات كلها مملوءة .. رفع عينية باتجاهها وبنفس النظرتين الحادتين ، المملؤتين رغبة .. اللتين لم تفارقاه .. خاطبها :

- اجلسي .. سنرفع الأوراق للضابط ..

استدارت عائدة ، وأخذت تحاول بدأب ، نزع يد الطفل ، الذي يتبعها و يتشبث بعباءتها ، فيبرز من جسمها ما تحاول أن تستره . كانت وهي تجاهد لتخليص عباءتها من يد الطفل ، يسيطر عليها إحساس أن نظرات الجندي تتبعها ، لتقع حيث يشد الطفل العباءة .. فتزداد توتراً ، وتعجل خطواتها لتتوارى خلف الستارة .

مضت أربعون دقيقة .. بطيئة .. قاتلة ، تأملت خلالها جدران المكتب ، المغطاة بمادة (فلينية) لينة ، ذات لون أبيض مطفي .. حفر عليها بعض الزوار السابقين (ذكرياتهم) .. منظر أعقاب السجائر الهائلة ، المتكدسة على هيئة أكوام ، تحت مكاتب الجنود.. كان لافتاً . هناك بقع أوساخ على الأرض .. في كل ناحية ، وأثار تعرق داكنة ، خلفها تعاقب الأيدي على الجدران ، و أسطح تلك المكاتب . مستوى النظافة في المكان جعلها تحاذر أن تضع يدها في أي مكان . لم تلهها مشاكسات الأطفال ، وأصواتهم المرتفعة ، عن التقاط جانب من حوارات الجنود التافهة ، التي لا تخلو من كلمات خادشة للحياء .. خصوصاً لامرأة مثلها . هذا السلوك .. ليس مقصوداً عليهم .. معظم مجالس الرجال الخاصة ، تدور فيها أحاديث (جنسية) .. حقيقة مجتمعية تعرفها .. أطرف تعليق سمعته حول هذه (الظاهرة) .. كان من إحدى الصديقات :

(نحن شعب ليس لديه قضية .. مجتمعنا حلت جميع مشاكله) !!

تعلم من زوجها الراحل ، الذي كان موظفاً مديناً في قطاع عسكري ، أن المستوى التعليمي لهؤلاء الجنود متدن جداً ، وأن بعضهم ينحدر من مستويات اجتماعية ، يغلب عليها العوز والجهل . . وضعف مستوى الذوق العام ، في الخطاب والمعاملة .

زوجها كثيراً ما اشتكى لها من فظاظة التعامل .. وسوء الخلق ، لدى الغالبية من هؤلاء الأفراد ، ونظرتهم الفوقية لعموم الناس .. بسبب إحساسهم المزيف

بامتلاك " سلطة " ، تخولهم مساءلة غيرهم من الناس .. من غير العسكريين ،
وتولد لديهم روح عدا ، تدفعهم أحياناً ، إلى التعدي على الآخرين .
تذكر أن زوجها يرد السلوك العدواني لبعض هؤلاء الجنود ، والإحساس المزيف
بالسلطة عند أكثرهم ، إلى (الحس الأمني) العالي ، الذي تضخه المؤسسة الأمنية
فيهم ، فيتضخم الهاجس الأمني لديهم . هذا الوضع يؤدي ، كما فهمت منه ، إلى
أن يتخيل الواحد منهم ، أنه (وزير الداخلية) ، وأن بقية أفراد الناس ، ليسوا إلا
عناصر مشبوهة .. يجب إيقافهم ، ومساءلتهم ، وإظهار سطوة السلطة عليهم ..
وأحياناً إذلالهم .. لتتحقق (هيبة) الدولة !..

الوساخة والإهمال ، التي عليها المكتب ، والمواقف التي تتعرض لها ، من البوابة ..
حيث ينزلها وأطفالها سائق (الليموزين) .. وإلى أن تصل إلى هنا ، إضافةً إلى
نظرات بعض الجنود إليها.. كل ذلك ، زادها اقتناعاً بالرأي القديم لزوجها ،
وموقفه تجاه هؤلاء ، وهو ما حسبته يوماً ، تبرماً منه .. من واقع لم يقدر على التكيف
معه .

ترسخ لديها هذا الاقتناع ، بعد تكرار تردها على المكان .. ومرورها بنفس
الإجراءات الروتينية المملة .. وتعرضها لنفس الأسئلة .. أحياناً من نفس الأشخاص ،
والموقف المريب لأحد الضباط ، الذي طلب منها في إحدى المرات ، أن تأتي
لوحدها .. من دون الأطفال ، إذا رغبت أن تقابله . أو ذلك الذي أخذ رقم الهاتف ،
وتكررت اتصالاته عليها .

كاد أن يتحول هذا الشعور تجاههم .. عندها ، إلى ما يشبه الاعتقاد ، لولا بعض
المواقف الإنسانية ، التي تبدر من بعض الجنود .. على ندرتها ، أو ذلك التصرف
الشهم ، لأحد الضباط ، الذي نزل من سيارته ، وطلب من سائقه الخاص أن يوصلها
إلى بيتها ، واستقل هو سيارة أجرة .

كانت سارحة ، تتذكر آخر لقاء لها مع زوجها الراحل ، الذي قتلته رافعة سقطت

عليه ، في أحد المواقع الإنشائية ، أثناء قيامه بالإشراف على التنفيذ . في اللحظة التي انتزعت فيها آهة وجع من صدرها ، ورفعت يدها لتمسح دمعات تدرجت على خديها .. أسى على فراق الغالي ، جاءها صوت الجندي عالياً :
- يا حرمة .. يا حرمة، الضابط يقول : أيش المطلوب .. ؟

سئلت هذا السؤال ، بعدد المرات الكثيرة التي جاءتها إلى هنا . صار يساورها الشك حول طبيعة الأسئلة ، والغرض من تكرارها . لماذا تسأل أسئلة أجابت عليها أكثر من مرة .. ولماذا تشرح أمراً ، وضحته قولاً وكتابةً ، في كل مرة أتت بها إلى هذا المكان ؟ .

تملاً ورقة مثقلة بالتفاصيل ، وتنتظر أربعين دقيقة .. لتسأل بعدها : ماذا تريدون .. ؟ ! أربعون دقيقة اقتطعتها من إنسانيتها وكرامتها ، وهي تقذف مثل كرة ، من زمن لزمن .. " تعالي بكره .. تعالي الأسبوع الجاي " ، ومن عين (جائعة) لأخرى .. " الموضوع ما هو عندي .. عند الضابط .. عند الرقيب " .
أربعون دقيقة .. نهبت من وسن تحتاجه أعين صغيرة ، أعيهاها السهاد .. يتماً ، وذلاً .. وليل طويل ، يملؤه شبح الأب الغائب ، وأنين امرأة جريحة : زوج طواه الردى ، وولد غيبته السجون !..

أحياناً تعزو ذلك الذي تتعرض له ، إلى سوء التنظيم .. أو ما كان يسميه زوجها الراحل ، الفوضى والتخلف .. بلعت غصة مملوءة بالمرارة ، وهي تخنق ابتسامة شاحبة ، حين تذكرت كلمات زوجها ، يوم عبرّ بإحباط ، عن واقع يشاهده يومياً ، في القطاع الذي يعمل فيه :

" لدينا في إدارتنا هذه .. وفي إدارات مشابهة ، لا يستحي التخلف .. بل يسير " مرفوع الرأس " .. حيث التعامل والممارسة هنا ، رذيلة .. يهون عندها التخلف " .

كان صدى صوت الجندي .. يردد السؤال : (أيش المطلوب .. أيش المطلوب) ،

ماركات أصلية

استبدال مجاني

توصيل مجاني

الدفع نقداً عن الإستلام

نمتهي



تسوق الآن

توصيل مجاني لباب بيتك

منتجات أصلية 100 %

تخفيضات كبيرة وعروض مميزة

وسائل دفع متعددة منها الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14 يوم

[أضغظ هنا للدخول إلى الموقع](#)

يرن في أذنيها .. ويزرع غيظاً . لم تشأ أن ترد على سؤال الجندي ، وهي في مكانها حيث ستضطر لرفع صوتها ، خاصةً وأنها لاحظت ، في مرّات سابقة ، أن هناك تعمداً لتكرار السؤال ، والدخول في تفاصيل مفتعلة .. وأن تتكرر منها بالتالي .. الإجابة والردود ، فتدخل فيما يشبه الحوار . يستمتعون بسماع صوتها .. لقد سمعت أحدهم في إحدى المرّات ، يقول لصاحبه :

– أووف .. يا عليها صوت .. !

نهضت وتوجهت نحو الجندي ، حيث كان جالساً ، ينادي من وراء مكتبه . قالت بصوت خفيض :

– أنا طلبت زيارة ..

– زيارة أيش .. ؟

كان يحدق بها ، وهي ترمق عينيه الغائرتين ، من وراء غطاء وجهها ، وتتأمل شفّتين يابستين ، ترك التدخين الشره ، أثاره عليهما .. فتراكمت فوقهما طبقة سوداء ، وبرزت فيهما تشققات دامية ، لا يفتأ بين وقت وآخر ، يمسحها بظاهر كفه . تنفرج شفّته عن أسنان عاث السوس فيها ، وما نجا منها من التسوس ، تتلبد فوقه طبقة جيرية صفراء .. وبقايا طعام .

شعرت بالاشمئزاز ، حين تذكرت أنه في إحدى زياراتها الأولى ، أدخل أحدهم وجهه ، من نافذة سيارة الأجرة ، التي جاؤوا بها ، عندما كانت تستفسر منه ، عن بعض الإجراءات . وقتها لم تتبيّن جيداً ، رغم أنها في لحظة من اللحظات ، كانت تشاهد الرذاذ المتطاير من فمه ، يقع على ملابسها .

لج في ذهنها خاطر : أي فم يشتهي أن يقترب من هذه الأفواه ؟ ! إذا لم يردع هؤلاء دين وحياء .. ألا يردعهم ، التبصر في أشكالهم المقرزة ؟ !

استفزها أسلوبه في السؤال : (زيارة أيش .. ؟) . من يمكن أن يكون خلف هذه الأسوار ، يضطر امرأة لتسفع حياءها .. في أماكن كهذه ، ويدفعها لتتردد بين (كائنات) تتشهاها .. لا ترى فيها إلا (وعاء) للرجبة ، يمكن .. مع بعض

الابتزاز والمساومة حيازته ..؟

- زيارة ولدي .. كتبت هذا في الورقة .. التي طلبتم مني تعبئتها ..!

- ولدك مسجون ..؟

- نعم ..!

- أيش قضيته ..!

صمتت .. لم تجبه . تعرف أن الفضول سلوك اجتماعي رائج ، لكن .. لا يكون فجأً ، بليداً بهذا الشكل . لم ينتظر إجابتها .. أشار إليها أن تعود إلى مكانها . بعد ربع ساعة فوجئت به يقف قريباً من الستارة . كان في وضع يستطيع فيه أن يراها . ارتبكت حينما رأيته ، وأسرعت بتغطية وجهها ، وحاولت أن تجمع العباءة حول جسمها . كان يبدو أنه هناك .. منذ بعض الوقت ، واقف في مكانه يراقبها . فهو .. ما أن لاحظ ارتباكها ، بعد أن رأيته ، حتى بادر قائلاً :

- الضابط يقول ما فيه زيارة اليوم ..

شعرت بالاحتقار ، وبالغیظ يأكل قلبها :

- كيف .. ؟ هذه ثالث مرّة أجيء ، وتقولون لي ما فيه زيارة ..!

- هذا كلام الضابط .. تقدرين تكلمينه .. إذا تريدین ..

- أكلمه .. لماذا؟ هذا الذي تصنعونه بي حرام .. آتي أجرجر هؤلاء الأطفال ، من

صباح رب العالمين .. من (ليموزين) إلى (ليموزين) .. وفي الأخير ..

قاطعها :

- والله ما أحد قال لك تجيئين ، بدون ما تتصلين .. وتعرفين مواعيد الزيارات .

خنقها البكاء .. فسكتت . دفعت الأطفال أمامها ، وتوجهت إلى المكتب ، الذي أشاروا لها أنه للضابط المناوب . حين دخلت ، أخذ يطيل النظر إليها ، ويصعد بصره فيها . كلهم سواء ، لا فرق بين جنديهم وضابطهم .. حدثت نفسها . أنا أمامهم .. لست أكثر من جسد يشتهي . لست أماً ملووعة ، ابنتها مكبل بقيوده ، خلف القضبان

- ..
- أريد زيارة ابني ..
- ما قالوا لك ، ما فيه زيارة اليوم ؟ .. أنا أحب أساعدك ، لكن .. ما أقدر ..
- لكن المرّة الماضية .. والتي قبلها ، ومرّات أخرى كثيرة .. ردّيتوني ، وقلتم ما فيه زيارة ..
- صحيح .. المرّة الماضية ما كان ولدك موجوداً.. كان في المحكمة ..
- والتي قبلها ..؟
- أيضاً .. ما كان موجوداً .. كان في المحكمة ..
- في المحكمة مرتين .. وما خلص موضوعه .. ؟
- لا .. المرّة الأولى لم يأتوا خصومه .. وأجل الشيخ النظر في القضية .. والمرّة الثانية ما جلس الشيخ !..
- ما جلس الشيخ .. ؟ !من هو الشيخ .. أين مكتبه ، أين يجلس ..؟
- الشيخ حمد المقفي .. مكتب رقم (19) ، في المحكمة المستعجلة !..
- المحكمة المستعجلة .. والولد يدخل شهره السابع في السجن ..؟! كيف لو لم تكن (مستعجلة) ؟ !.. تساءلت بصوت غير مسموع ، وشعرت بوجع يتراكم .. ويجثم على صدرها !..
-
- أبو الولد .. زوجك موجود ..؟
- متوفى ..
- اذهبي .. واتركي تلفونك ، وأنا أتصل فيك ..
- غامت الدنيا في عينيها .. وشعرت باختناق . أطبقت كفها على يد أصغر الأطفال ، وسحبته متجهة نحو الباب ، دون أن تقول شيئاً ..
- ما تبغين تتركين تلفونك ..؟

لم ترد عليه .. كانت مختنقة .. محبطة ، حزينة . قبل أن تضع قدمها خارج المكتب ، لمحت لوحة معلقة على الحائط المقابل .. قد إزدانت بآية كريمة :
" الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم . أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " .
لا تدري ما علاقة الآية بالسجن ..! ربما لشعور السجن أنه يحقق أمناً ، باحتجازه
مراهقاً خلف القضبان لعدة أشهر ، لأن (فضيلة) القاضي يؤجل موضوعه .. شهراً
بعد آخر ..!

" أجل الشيخ الجلسة .. لم يجلس الشيخ " . عبارات كانت تنغرس في وجدانها ،
كالحسك في عين عزلاء .. ليس إلا الدمع ، ماء ينسكب .. ويستل النور والحياة .
لم تقف في تفكيرها طويلاً .. عند الهدف من كتابة هذه الآية ، وتعليقها في لوحة ،
في مكتب سجان . تذكرت أنها كانت قد رأت شيئاً (مشابهاً) .. عبارة مكتوبة على
مكتب أحد الجنود .. خطها هو ، أو ربما أحد زملائه .. تقول : (العدل أساس
الملك .. صدق الله العظيم) .. !

حين اجتازت البوابة الرئيسية .. إلى الشارع ، كانت الشمس تقترب من وسط السماء
.. شديدة التوهج .. شديدة الحرارة . حزم من أشعتها تقع على زجاج السيارات العابرة
بسرعة ، فتحدث وميضاً ، يشل قدرتها على الإبصار للحظات .. فيزيدها توتراً .
مرّ وقت ، ولم تأت أي سيارة أجرة ، من سيارات (الليموزين) .. التي عادةً ما
تمتليء بها الشوارع . موقع السجن ناء .. حتى عن أطراف المدينة ، ومن النادر أن
ترتاده سيارات الأجرة . صهرتها الشمس ، وانكمش الأطفال من الحر ، فلاذ بعضهم
بها . وهج الشمس أجبرهم أن يمدوا سواعدهم الصغيرة النحيلة ، بمحاذاة أعينهم ،
وأن يغمضوا إلى أقصى حد يستطيعوه ، ليتقوا الضوء الشديد . أصحاب السيارات
المارة ، توقف بعضهم ، وعرضوا عليها المساعدة . لم تشأ أن تستجيب لأي عرض ،
رغم وطأة حرارة الشمس . لا تستطيع أن تميز من من هؤلاء الرجال ، يريد أن
يساعدها حقاً .

تتذكر بكثير من الأسى حديث أمها عن قريتهم ، وحال الرجال والنساء ، يعملون

جنباً إلى جنب .. في الحقول والمراعي . كانت ليلة رعب حقيقية ، يوم عادت هي وإياها .. وزوجة جارهم ، من المسجد المجاور لمنزلهم ، بعد صلاة التراويح . في الشارع المعتم قليلاً ، حاصرهن أحد الأشخاص ، وحاول التعرض لهن . عندما أفقت الأم من صدمة الموقف .. فيما بعد ، ظلت تردد : " لا .. ما هذي بديرتنا .. ما هذي بديرتنا " .. !

ثم انطلقت تحكي قصصاً كالأحلام ، عن مجتمع كان .. تعطر بالبراءة ..! الانتظار ممض ، تحت أشعة شمس ، تضج من حرّها الحجارة الصماء . لم تكن حرارة الشمس هو ما تشكو ، بقدر ما يفت كبدها الغبن والظلم ، الذي تحس ناره تتسعر في أحشائها .. وهي تتسول حقاً لها ، وتتعرض من أجله .. للابتزاز . كان التساؤل يتضخم في ذهنها ، ويتمدد مثل ورم سرطاني : " إذا كان قدر امرأة في مجتمعها ، أن تجد نفسها بلا (رجل) .. لماذا يلجئونها إلى أوضاع مهينة كهذه ؟ هل قدرها إذا فقدت الرجل ، أن تفقد الاحساس بالأمان .. وأن تفقد الكرامة ، والتعامل الكريم ، الذي يحمل عنها بعض آلام (الفقد) .. وما يخلفه من شعور بالعجز .. ؟ ! " .

قررت أن تسير على قدميها . المسير .. حتى ولو طال ، يظل أرحم لامرأة .. من الانتظار تحت شمس حارة ، على قارعة طريق .. أمام سجن ..! سارت غير بعيد ، فبدأ الأطفال يتعثرون تعباً .. وعطشاً ، وهي .. قد امتلأت قنوطاً .. " لا معنى للوقوف والانتظار " .. كانت تصرخ فيهم .

توقفت إلى جانب الطريق سيارة ، ونزلت منها امرأة .. وقصدتها :

- نوصلكم .. يا أختي ..؟

اطمأنت لوجود المرأة ، لكنها لم ترد بسرعة على عرضها . الشمس .. والأطفال العطشى ، الذين هدّهم الإعياء ، لم يدع لها مجالاً للرفض .. فردّت بتردد :

- جزاك الله خيراً .. لكن بيتنا بعيد ..!

- لا يهم ..

- أخشى أن ...

- لا .. لا يوجد أي مشكلة ..

جلست في المقعد الخلفي ، وتراص الأطفال حولها .

كانت حريصة ألا يقوموا بأي عبث في السيارة . فهي مرّة .. تسحب يد هذا من زر قفل الباب ، وتارة تمنع يدا الآخر من أن تمتد لزر زجاج النافذة . بين سحب يد هذا .. ومنع ذاك ، كانت كذلك ، تسعى للسيطرة على أصواتهم وحركاتهم :

(اجلس .. لا ترفعي صوتك .. عيب .. أزعل عليك ...) .

سلسلة من الأوامر والتوجيهات ، تتخللها (قرصة) أو (ضربة) ..!

الصمت الذي التزم به سائق السيارة ، والمرأة التي معه ، جعل مسموعاً .. ما يصدر منها ، من توجيهات وأوامر لأولادها .. وكذلك احتجاجاتهم على العقوبات ، التي توقعها بهم ، بسبب حركتهم الزائدة . شعرت بالحرج بسبب ذلك ، لكنها لم تكن قادرة ، أن تترك الأطفال وشأنهم ، يزعجون الرجل ، وربما يتلفون شيئاً في سيارته كأنما بلغ بها التعب أشده .. أو أحست بالاحباط ، فانخرطت في بكاء .. يسمع له نشيج . كانت قد نهضت هذا الصباح ، وأيقظت الأطفال في ساعة مبكرة . أوصلت البنت الكبرى ، التي تدرس في المرحلة المتوسطة ، إلى مدرستها ، وأعطتها مفتاح المنزل .. تخشى أن تتأخر عن موعد خروجها من المدرسة ، فتضطر البنت للبقاء في الشارع . في كل مرّات قدومها إلى هذا المكان ، لم تحضرها إلا مرّة واحدة . يومها .. انتهت الأعين الجائعة . لقد صادف في تلك المرّة أنها لم تلبس جوارب ، وحينما نزلت من السيارة ، انكشفت ساقها . لاحظت أن عشرات الأعين لجنود ومراجعين ، كانت متسمة على باب السيارة ، تنتظر لحظة نزولها ، وانكشاف ساقها .. مثل (كاميرات) ترصد حدثاً .. وتتأهب لوقوعه .

اتسعت الأحداق ، عند نزول البنت ، وارتفاع ثوبها .. لتستوعب المشهد . ثم حين استوت الفتاة على قدميها ، وأصلحت من وضعها ، وسارت لتلتحق بأمها وإخوانها

.. استدارت العيون ، وتحركت الرؤوس .. ل (اصطياد) مزيد من التفاصيل ..!
تلاحظ هذا السلوك كثيراً .. حيثما تذهب . فما أن تهمة امرأة بالنزول من سيارة ،
حتى تتجه نحوها الأنظار .. وتتسمر عيون بعض الرجال على باب السيارة . يجري
هذا معها هي .. ومع الأخريات . لم يحدث في أي مشوار سارته بالسيارة ، أن
نجت من نظرات فضولي يتلصص عليها ، أو على نساء غيرها .. في السيارات التي
بجانبيها .

في ثرثرة مع إحدى الزميلات .. كان التساؤل ملحاً :
" لماذا بعض الرجال في مجتمعنا مهووسون .. جائعون جنسياً ؟ لماذا الافتراض أن (كل)
امرأة ، تمشي في الشارع ، أو تقف على جانب الطريق ، أو حتى تتحدث على
الهاتف .. لحاجة لها، هي هدف جنسي .. بالضرورة .. " ؟ !

بكاؤها أثار انتباه الرجل والمرأة ، فتهاهما قليلاً . التفتت المرأة بعدها .. وقالت :

- فيه شيء .. يا أختي ..؟

أحست بالحرج ، وحاولت التوقف عن البكاء .. ولم ترد .

- نقدر نساعدك بشيء .. ؟

- ما تقصرون .. !

- زوجي يقول أنه ثالث مرة يشوفك هنا .. لحالك ، عند بوابة السجن .

-

- سلامات .. عسى ما شر ..؟!

- ولدي مسجون .. وصار لي مدة ما شفته ..!

- شدة .. وتزول ، إن شاء الله . لكن .. صعب المرأة تأتي لوحدها ، لمثل هذه

الأماكن ..!

- زوجي متوفى .. وجماعتي مشغولون ..!

كأنما ذكر زوجها .. وحالة الإحباط التي تعيشها ، وانتقاد المرأة المبطن .. لحضورها

لهذا المكان ، فتق جرحها وأيقظ حزنها .. وأثار في ذهنها خاطر :

" أكانت ستأتي .. لو كان هناك (ترتيباً) يصون حياءها ، ويحفظ كرامتها .. ؟ " ..
فعاودت البكاء ثانية .

عادت المرأة للتهامس مع الرجل مرّة أخرى ، ولمدة أطول ، ثم التفتت إليها .. وقالت
بلهجة لا تخلو من أسي :

- آسفة .. أنا لم أقصد .. لكنني أشفقت عليك من التردد على هذا المكان ، وما
يمكن أن تتعرض له امرأة مثلك ، وكذلك .. رحمت هؤلاء الأطفال ..
- أنا أعيش ذلاً ، وأخضع لابتزاز .. في كل مرّة أجيء فيها .. من أجل أن أرى
ابني .. !

- الله يكون في عونك .. سنحاول مساعدتك قدر استطاعتنا ..

خيم صمت على الجميع . بعد أن ساروا مسافة ، قطع الرجل الصمت ، بحديث
خافت ، كان يتبادله مع المرأة .. توجهت المرأة بعده ، بالحديث إليها :
- زوجي ضابط في إدارة السجون ، وهو يسأل إن كان بالإمكان أن تزودينا ببعض
المعلومات .. لنستطيع مساعدتك .

- معلومات .. مثل ماذا .. ؟

- اسم الولد .. وقضيته .. ورقم هاتفك ليتم الاتصال بك ..

- من يتصل بي .. ؟ !

- زوجي .. أو أحد من الإدارة ..

- لا .. أرجوك . لا أريد أن يتصل بي أحد .. لقد أعطيت رقمي لأحدهم .. فكان
يتصل في ساعات متأخرة من الليل .. بدعوى أنه يريد أن يسهل لي زيارة ابني .. !

- زوجي رجل صالح وشريف .. ولا ..

- عفواً .. أنا لا أتهم زوجك . لكنني لا أريد أن يتصل بي أحد .. وأفضل أن يكون
الاتصال بيني وبينك .. !

- معك حق .. لا تلاميذ .. ! هل يمكن أن نعرف اسم الولد .. وقضيته ؟

- الولد اسمه منصور الناجي .. قضيته مضاربة .. !

- أنا جواهر .. أم عمر . إذا اتصلت .. أقول أم منصور ..؟
- نعم .. سارة .. أم منصور . جزاكم الله خيراً .. وصلنا ، هذا البيت .. الثالث على اليمين .

بعد أن نزلت سارة وأطفالها ، استدارت السيارة متجهة نحو الطريق العام . عند الإشارة .. كان هناك أطفال يبيعون مناديل وماء .. بعضهم حفاة ..

- مسكينة .. تكسر الخاطر !..

- من .. ؟ !

- المرأة !..

- صحيح ..

كان ساهياً .. ينظر إلى الأطفال ، الذين لفحت الشمس قسماهم الغضة ، وتيس العرق على أطراف جباههم . في الجريدة .. اليوم ، قرأ لرئيس التحرير .. في عموده اليومي ، حملة ضد هؤلاء الأطفال ، الذين سماهم أطفال الشوارع ، وذكر أنهم يشوهون الوجه (الحضاري) للمجتمع ، ويقدمون صورة سلبية عن الوطن . قبل أسابيع زار مقر الصحيفة، ضمن وفد من الإدارة التي يعمل بها . استقبلهم رئيس التحرير ، وكان في وداعهم أيضاً . كان لطيفاً .. حسب تعبير الزملاء ، فحينما صحبهم إلى الخارج ليودعهم ، قصد سيارته المرسيديس (600) ، فتحها وأحضر مجموعة هدايا ، أطقم أقلام .. ووزعها عليهم . الزميل الذي بجانبه ، أسره المشهد الأخاذ للسيارة الفارحة .. والطريقة الباذخة ، التي تفتح فيها الأبواب .. وتعلق ، فمال عليه هامساً :

- السيارة روعة .. تصدق إن سعرها نصف مليون ريال .. فقط .. !؟

مشهد رئيس التحرير ، بحذائه الإيطالي ذي الألف ريال ، يختال في الممرات الرخامية لمبنى صحيفته ، وسيارته ذات النصف مليون ريال ، يقف صارخاً أمام منظر الطفل حافياً .. جفت شفثاه ، يمد ساعده النحيل ، بزجاجة ماء ، قيمتها ريال .

بين المشهدين يتمدد مقال عن الوطنية ، يشتمل على حملة ضد أطفال ، لم يأتوا من الفضاء .. وإنما (نبتوا) على أرصفة شوارع الوطن !..

بين المشهدين سيارة بنصف مليون ريال ، وقدم صغيرة حافية .. وأفواه جائعة ، يتربص بها رئيس تحرير .. يرفل بـ (وطنية) وطن .. لم يمش يوماً على أرصفتة .. ولم تلفحه شمسه .. !

يذكر أن الصحيفة ، أعدت العام الماضي ملحقاً جميلاً عن السياحة (الوطنية) ، وتعرضت إلى ما تؤدي إليه السياحة في الخارج ، من هدر للمال الوطني ، يعد بمليارات الريالات . حينما صدر الملحق ، كان رئيس التحرير ، حسب خبر نشرته الصحيفة ، " يستقبل في مقر إقامته الصيفي في جنيف ، وفداً أوروبياً ، للتعريف بالثقافة الوطنية " .

– هذا المنافق !..

قالها .. وهو يمد ورقة النقود للطفل ، ويتناول منه زجاجة الماء .. ثم يدفع الصحيفة جانباً .. بغيظ ، ليضع زجاجة الماء مكانها .

عرفت أنه يقصده . لأنه منذ عاد من زيارته تلك .. إلى الجريدة ، وهو لا يسميه إلاً كذلك : كتب المنافق .. قال المنافق!.. التقطت الصحيفة ، وفتحتها على الصفحة التي ينشر فيها عموده اليومي . وجدت المقال الذي استثاره : " وطنٌ جميل بدون أطفال شوارع !.. " .

حينما ناقشته مرة .. عن سبب نقمته عليه ، قال : " هذا وأمثاله ، هم أصل البلاء . لا ينشرون ، ولا يكتبون .. إلاً ما يرضي المسؤول الفاسد .. الذي يجهنم لهم البقاء . يلمعون (اللصوص) ، ليأكلوا من فتات موائدهم .. ما علاقة هؤلاء بالوطن !؟.. " .

حين فرغت من قراءة المقال .. أدارت رأسها تجاهه :

- صاحبك مرّة أخرى ..!

- هل يكتب هذا التافه .. عن حال هذه البائسة.. أو يحس بهؤلاء الجياع ،الذين يتناثرون على الأرصفة؟!!

عندما دخلت سارة البيت ، نظرت إلى ساعتها . الوقت قريب من الواحدة ظهراً . صلّت وشرعت في إعداد الغداء . نادت على ابنتها، وطلبت منها أن تنتبه للقدر على النار ، ريثما تجري اتصالاً هاتفياً .

- ألو .. السلام عليكم .. الإدارة القانونية .. ؟

- عليكم السلام .. نعم ، أي خدمة ؟

- لو سمحت ، أنا زوجة عبد الله الناجي .. موظف سابق .. أحب أن أسأل عن معاملته .. ماذا تم فيها ؟

- قصدك .. قضية الدية والتعويض ، لورثة الأستاذ عبد الله .. الله يرحمه .. ؟

- نعم .. الله يحفظك ..

- والله يا أختي ما صار فيها جديد ..! رجعت المعاملة إلى الإدارة القانونية . محامي الشركة المنفذة ، نقض الحكم الذي صدر من المحكمة ، وطلب التمييز ، وتحويل القضية إلى قاض ثان ..

- لكن .. يا أخي هذه رابع مرّة ، تنقل القضية إلى قاضي آخر .. لماذا المحكمة لا تلزم الشركة .. ؟

- والله ما أدري . هذا من صلاحيات القاضي .. وما أقدر أفصل لك ، أنت تعرفين (البير وغطاها .. !) .

- طيب .. أنتم ما لكم دور .. أنتم تعرفون القضية بكل تفاصيلها .. ؟

- الأستاذ خالد مدير الإدارة ، مهتم .. ويقدر ظروفكم ، ويحاول يساعد ، لكن يبدو أن الموضوع (أكبر) منه .. يعني ما يخفأك ..!

زوجها كان قد توفي في حادث، قبل ما يقرب من ثلاث سنوات ، في موقع تحت الإنشاء ، يتبع للدائرة التي يعمل فيها . منذ ذلك التاريخ .. والشركة المنفذة للمشروع تماطل في دفع الدية ، بحجة أن الموظف ، حينما دخل موقع العمل ، لم يلتزم بشروط السلامة ، فهو لم يرتد الملابس الواقية ، المطلوبة في مثل هذه الأماكن . ثم لما لم تفلح هذه الحجة ، اختلقت الشركة ذريعة أخرى لمتنع عن الدفع ، وهي أن الموظف لم تكن طبيعة عمله ميدانية ، وإنما جاء (تطفلاً) .. لذا فهو يتحمل مسؤولية الذي حدث له .. !

الشركة يملكها أحد أصحاب النفوذ ، وهو ما قصده الموظف في حديثه لها ، حينما ألمح إلى أن المحكمة لا تستطيع أن تلزم الشركة بالحكم ، الذي يقضي بدفع الدية .. فهذه هي (البير وغطاها) .. !

قضية التعويض التي تطالب بها ، وبقية حقوقهم المالية .. مرت بأطوار غريبة . أحد القضاة ، الذين وقعوا تحت تأثير صاحب النفوذ ، حكم مرة .. إلا أن الحكم لم يُميز ، بأن الحادثة ليس فيها دية ، لأن ورثة المتوفى، على حد قوله ، يقبضون راتباً تقاعدياً ..! حتى الراتب التقاعدي كاد ألا يأتي ، بسبب خطأ في إدخال البيانات الخاصة بزوجها ، ارتكبه الموظف الذي كتب مباشرته للعمل ، قبل سبع عشرة سنة .

استحقاقات نهاية الخدمة ، حرموا منها ، لأن إدارة شؤون الموظفين والمالية ، (تأكد) لها ، أنه توفي بعد وقت الدوام الرسمي .. الساعة الثانية وأربعين دقيقة . كما أنه ، إضافةً إلى ذلك ، لم يكن مطلوباً منه أن يذهب إلى موقع العمل ، بل ذهب بدافع الفضول . حرمانهم من استحقاقات نهاية الخدمة ، فسر على أنه موقف (وطني) من المدير ، لحفظ أموال الدولة ..! هذه (الذريعة) أيضاً، هي التي أستندت عليها شركة (صاحب النفوذ) ، وأعدت على أساس منها تقريراً ، تماطل فيه ، في دفع الدية المقررة شرعاً .

- يا أخي .. أليس ظلماً أن يأكل (هذا) الرجل ، حقوق هؤلاء اليتامى ، وهو الذي ضاقت البنوك بملايينه ، وينقطع مدى النظر عن الأراضي التي يملكها ..؟ كيف يبيع القاضي لنفسه أن يحرمنا حقاً قرره الشرع لنا .. أليس هذا ظلماً ..؟
- هذا ليس ظلماً .. بل (ظلمات بعضها فوق بعض) .. !

قررت أن تذهب للمحكمة المستعجلة ، لتقابل الشيخ حمد المقفي ، الذي أحيلت إليه قضية ابنها ، لينظر فيها . في الصباح الباكر ، أخذت معها أحد أبنائها . عندما وصلت المحكمة ، بعد جولات طويلة ، قام بها سائق سيارة الأجرة .. بحثاً عن موقع المحكمة ، كانت الساعة تشير إلى الثامنة وعشرين دقيقة . الجندي الذي يقف على باب المحكمة ، أخبرها أن أغلب (المشايع) لا يحضرون إلا عند الساعة التاسعة ، وبعضهم لا يأتي إلا في العاشرة .
- الحمد لله ..

همست في سرها . كانت تخشى أن تكون قد تأخرت ، فانشغل الشيخ ، وربما يطلب منها العودة في يوم آخر ، مع بدء الدوام الرسمي ..!

انتظرت إلى العاشرة .. في صالة عند مدخل المحكمة، ولم يأت الشيخ . أخبرها بعضهم أن (الشيخ) قد يتأخر أكثر.. وربما لن يحضر اليوم . حينما قاربت الساعة الحادية عشرة والنصف ، والشيخ لم يحضر .. وقد حان موعد خروج الأطفال من المدارس ، قررت أن تعود إلى البيت ، وتحدث مع الشيخ عن طريق الهاتف . بعد الصلاة ، في حدود الساعة الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ، اتصلت على المحكمة ، وبعد تحويلها إلى مكتب الشيخ ، أفادها شخص ، يبدو أنه مدير مكتبه ، بأن الشيخ قد حضر ، وبت في (عدد) من القضايا ، ثم غادر بعد الصلاة . لم تهتم بالوقت القصير الذي مكثه في مكتبه ، لكن لفت انتباهها أنه بت في عددٍ من القضايا في زمن يسير ، فسألته إن كان قد نظر في قضية ابنها . طلب منها أن تتصل عليه في وقت آخر ، بعد أن يراجع السجلات . اتصلت بعد نصف ساعة ،

فأخبرها أن القاضي قد نظر في قضية ابنها ، وحكم عليه بسبعة أشهر سجن ،
وعوّض يدفع لخصمه ، مقداره عشرة آلاف ريال .
وقع الخبر عليها كالصاعقة . لاحظت أن القاضي (قدر) مدة الحكم بالسجن ،
لتناسب الفترة التي أمضاها الولد مسجوناً ، بانتظار (المحاكمة) ، التي كان (الشيخ
(نفسه ، هو الذي يمطّطها .. فمرة (لم يجلس) ، ومرة (لم يأت الخصوم) .. !
لكن الغرامة .. أو ما سماه هو بـ (العوّض) ، لماذا هذا المبلغ .. ؟ كيف حكم
القاضي بدفع مبلغ كبير كهذا .. دون سماع رأيهم في القضية . ثم من أين تأتي هي
بالمبلغ ؟ أسئلة كثيرة دوت في رأسها ، وملاّت قلبها مقتاً .. فانفجرت تتظلم للرجل :
- هذا ظلم يا أخي .. والله إن الولد لم يعمل شيئاً ، يستحق عليه كل هذا .. بل هو
معتدى عليه .. !

- هذا الذي ظهر للشيخ ، بعد أن نظر في القضية ..
- كيف نظر فيها .. ؟ هو لم يقابل الولد ، ولم يسمع أقواله .. !
- أنا ما عندي شيء .. ناقشي الشيخ .. اكتبني عريضة استئناف ، وقدميها للشيخ
!..
- متى .. !

- تعالي بعد غد .. سوف يكون الشيخ موجوداً .
- هل يمكن أن اتصل بالهاتفون .. ؟
- الشيخ لا يكلم النساء بالهاتفون .. ! ثم أنت بحاجة لعريضة مكتوبة .

أنزلت سماعة الهاتف ، واستسلمت لبكاء حاد .. عميق . لم يسيطر عليها الشعور بـ
(ال فقد) ، مثلما يحصل الآن . زوجها مات فجأة ، ففجعها رحيله . الزوج لا يعوض
.. والغياب هنا ، ليست حالة انكسار عاطفي ، وغيبة حسية فقط .. بل انهيارات
تحدث في نظام اجتماعي متعدد العلاقات . في مجتمع يعلي من قيمة القوة ،
بوصفها الحسي والمعنوي ، ويضع لها تراتيبية هرمية .. تتكئ على موروث قبلي ، لا
يقيم اعتباراً لأي شكل (تنظيمي) ، ويستحوذ (الذكر) فيه ، على كل أشكال (

القوة) ، المادية ، والاجتماعية .. والسياسية . في أوضاع كهذه .. حين يغيب الزوج ، تعلق الآمال على الولد .

الفقد يتمثل الآن أمامها .. مثل حالة موت تدريجي : وفاة الأب .. حجز الولد لدى الشرطة .. ويبدو السجن الآن ، والغرامة المطلوب منها دفعها .. بداية غيبوبة طويلة ، وتجسيد موحش للفقد .. والدخول في رحلة نحو المجهول . المحكمة تمثل بداية الرحلة ، ويقف (القاضي) بواباً جامد الملامح ، موحش القسمات .. على عتبة ذلك المجهول . الاحساس بالفقد يزداد .. مع توارد ذكريات الزوج الراحل على ذهنها .. والشعور باقتراب المجهول ، الموحش .. يفغر فماً ، لابتلاع الابن الذي عقدت عليه الآمال .

ذهبت منذ الصباح الباكر إلى المحكمة . حين دخلت .. كانت تحمل شعوراً غير الذي أتت به في المرّة الماضية . كرهت المكان ، وبدا لها مثل نفق رطب معتم ، يسرق أنفاسها .. كلما أوغلت فيه . مصير ابنها مرهون بورقة تحرر داخل هذا البناء . لأول مرّة تشعر أن (الحرية) .. قد تكون في نهاية (نفق) .. وأنها باتجاه واحد .. إلى الأمام !..

انتظرت في غرفة على يمين المدخل .. نفس المكان الذي طلب منها أن تنتظر فيه المرّة الماضية ، لما جاءت لتقابل القاضي ، بعد حديثها مع الضابط ، الذي ذكر لها أن قضية ابنها في المحكمة المستعجلة . كانت قد نسيت حقيقة يدوية صغيرة .. المرّة السابقة ، ووجدتها في مكانها . لم تفرح بعثورها على الحقيقة .. ليس لأنه ليس فيها شيئاً ثميناً . لكن .. خطر على بالها ، أنه لم يدخل أحد هذه الغرفة بعدها .. فلا يوجد امرأة غيرها تراجع المحكمة . انقبض قلبها .. خاطر (الفقد) يتكسر : " كل النساء لهن رجال يراجعون عنهن " !..

لم تمكث إلا قليلاً ، حتى بدأت الغرفة تمتليء بالنساء . لست وحدك .. لست التعيسة الوحيدة . كان هذا حديث نفسها .. مع كل امرأة تدخل . التجمعات العارضة ، غالباً ما تكون وسيلة لبث الشكوى ، وتبادل الهموم . سمعت قصصاً .. دون

مأساتها .. وأسوأ منها بكثير .

كانت قد أعلمت الجندي ، الواقف عند باب المحكمة ، اسم القاضي الذي لديه قضية ابنها ، ورجّته أن يشعرها بحضوره إذا جاء . بين فترة وأخرى ترسل ابنها إلى الجندي ، ليسأله إن كان (الشيخ) قد حضر . قبل العاشرة بقليل ، جاء الطفل ليخبرها ، أن العسكري يقول أن الشيخ قد وصل . صعدت إلى الدور الأول ، حيث مكتب القاضي . دخلت وعرفت بنفسها لشخص في المكتب ، اتضح أنه الكاتب في مكتب القاضي ، الذي تحدثت معه على الهاتف

قبل يومين . غاب قليلاً ، ثم سمح لها بالدخول على القاضي . كان منصرفاً إلى مطالعة ملفات بين يديه ، عندما دخلت :

- السلام عليكم يا شيخ .. أريد أن أكلمك بخصوص الشاب منصور الناجي ..

- ماذا تكونين له ؟

- أنا والدته يا شيخ ..

- ما فيه رجل يتكلم .. بدلاً منك ..؟

- والده متوفى ..!

- الولد حكم عليه .. بلغك الحكم ..؟

- نعم .. لكن يا شيخ .. الولد مظلوم .. ما يستحق كل هذا ..!

- هذا الذي تبين لنا .. بعد دراسة قضيته ..

- لكن .. أنت يا شيخ لم تقابله .. ولم تسمع منه . الولد أوقف بوسط الشارع ..

واعتدي عليه بالضرب ..

- اطلعنا على اعترافاته المصدقة شرعاً ، وعلى تقرير الشرطة ، وتم سؤاله عنها ..

وهذا يكفي ..!

- لا يا شيخ ما يكفي .. فيه شهود إنه ما كان الباديء ..

- أنت تفهميني عملي .. عندك اعتراض اكتبه ، ولا تضعي وقتي ..

يلتفت إلى كاتب السجلات عنده ، ويقول :

- دعها تكتب الذي تريده .. وأرفقه مع القضية ، لترفع للتمييز ..

حاولت أن تقنعه بأن يستمع لها ، لكنه انصرف عنها ، وطلب منها أن تخرج لأنه سينظر في قضية أخرى .

خرجت تنوء بهم ثقيل .. وتبعها كاتب السجلات بورقة وقلم ، وطلب منها أن تكتب اعتراضها على الحكم . سألته بصوت واهن ، إن كان عليها أن تذهب إلى البيت ، وتكتب الاعتراض ، فأشار إلى مكان لانتظار النساء .. في آخر الممر ، ثم انصرف . عندما همت أن تدخل المكان الذي أشار إليه ، سمعت صوتاً يناديها :
- يا أخت .. يا أخت ..

التفتت إلى مصدر الصوت .. عرفته . إنه الشخص الثالث ، الذي كان موجوداً في مكتب القاضي ، حينما كانت تناقش (الشيخ) في موضوع ابنها .. وكان يجلس إلى جانب كاتب السجلات . وقفت تنتظر ، لترى ماذا يريد منها .. اقترب قليلاً وقال :
- السلام عليكم .. أنا كاتب عدل في المحكمة .. كنت موجوداً أثناء مجادلتك للشيخ . اطلعت على قضية ابنك ، وأريد أن أنصحك بنصيحة .. لا تكتبي عريضة استئناف ..

- لا أكتب ..! ابني مظلوم .. ثم من أين لي عشرة آلاف ريال ..؟
- أتفهم موقفك .. لقد اطلعت على القضية . خصومك أقوياء ، وقد استغلوا ثغرة في تقرير الشرطة .. واعتمدوا على تقرير المستشفى ..
- من يحمي الضعفاء أمثالي .. إذا كان خصومهم (أقوياء) إذن ..؟ ثم ما شأنني أنا بتقرير المستشفى ..؟ انه مستشفى خاص .. لماذا يحملني القاضي فاتورة مستشفى خاص ..؟

- لا أريد أن أجادل في هذا كثيراً .. والوقت متأخر على ابنك . أنا بحكم اطلاعي على تعقيدات المحاكم .. مشفق عليك ، وعلى الولد ..!
- لم أفهم ..

- ابنك .. بناء على حكم الشيخ في القضية ، سوف يخرج بعد أسبوع ..
- القاضي صمم الحكم ، لكي يغطي المدة التي أبقاه فيها في السجن .. بدون وجه

حق ..

- ليس هذا ما أردت . الذي أريد أن ألفت نظرك إليه ، أن اعتراضك على الحكم ، يعني أن تحال القضية إلى قاضي التمييز .. ثم تعود للقاضي الذي حكم فيها، وهذا يعني شهرين على الأقل ، .. واحتمال نقض الحكم ، ضئيل حسب معرفتي .. هل فهمت ؟..

أطرقت قليلاً .. ثم وضعت الورقة والقلم على أول مقعد ، في غرفة انتظار النساء ، التي كانت تقف على بابها . شكرته .. وهي تتوجه إلى خارج مبنى المحكمة ، تدفع ابنها أمامها .

بعد العصر دق الهاتف . حينما ردتّ جاءها الصوت من الجانب الآخر :

- السلام عليكم .. سارة ..؟

- نعم .. من الذي معي ..؟

- جواهر .. أم عمر . عسى الوقت مناسب ..؟

- يا هلا .. هذه الساعة المباركة ..

- زوجي رتب لكم زيارة لمنصور .. غداً الساعة العاشرة . سوف يمرّ سائقنا الخاص

، في حدود الساعة التاسعة ، ليأخذكم إلى هناك ..

- الله يجزيكم خيراً .. ويجعله في ميزان حسناتكم .

لم تشأ أن تخبرها عن (الحكم) الذي صدر بحق ابنها ، أو النقاش الذي دار بينها وبين القاضي . كانت حريصة على أن ترى منصور .. وتبشره بقرب خروجه ، رغم أنها لم تتدبر .. حتى الآن ، المبلغ الذي حكم به القاضي ، مقابل الإفراج عنه .. ولا تدري كيف ستفعل ذلك !..

استعدت ذلك المساء للزيارة . طبخت بعض الأكلات ، وحدثت إخوة منصور ، عن الزيارة المرتقبة ، وأعدت ملابس نظيفة ومرتبة ، ليقابلوا بها أحاهم .

حينما خلدت إلى فراشها ، بعد يومها المرهق .. تحدوها الآمال والأشواق لرؤية ابنها .. رأت في منامها ، كأنما منصور في سرداب مظلم .. طويل ، وسحابة قاتمة تطارده . كان يركض أمامها كالمجنون ، يمد يداً .. ويصرخ : أمي .. أمي . ظل يركض .. ويركض ، حتى ألجأته إلى باب ثقيل .. أخذ يهز الباب بعنف ليفتحه .. دون جدوى . أطبقت عليه السحابة ، وهو ما زال يمد يده .. ويصرخ : أمي .. أمي ! .. كان صوته يتلاشى شيئاً .. فشيئاً ، حين استيقظت من نومها فزعة .. مرعوبة ، أنفاسها تتلاحق .. وتشعر باختناق .

– ما هذا الكابوس ..؟ أعوذ بالله من الشيطان !..!

تتذكر أنها قبل النوم قد قرأت (ورَدَهَا) ، وقبل ذلك .. كانت قد صلت الوتر ، وقرأت آية الكرسي والمعوذات . ظلت مستيقظة حتى الفجر .. قلقه متوجسة . بعد أن صلت .. نامت إلى حدود الثامنة . حين نهضت ، جهزت الأكل للأطفال ، وبعد تناولهم لإفطارهم ، ألبستهم الملابس التي وعدتهم أنهم سيذهبون بها لزيارة منصور . جاءت الساعة التاسعة ثم العاشرة ، ولم يأت سائق أم عمر .. جواهر ، ولم تتصل هي أيضاً . بدأ يتسلل إليها القلق .. قررت أن تأخذ سيارة أجرة ، ولا تنتظر أحداً . حين وصلت الطريق المؤدية إلى السجن ، وجدتها مغلقة .. وكان هناك دورية من الشرطة، طلب أحد أفرادها من سائق السيارة الرجوع .. ولم تفلح محاولاتها وتوسلاتها ، بإقناع العسكري ، السماح لها بالعبور .. ولم يستمع لرجاءاتها المتكررة ، بأن لديها موعداً مهماً لزيارة ابن لها في السجن .. كان جامد الملامح تماماً ! ..!

عادت سارة تفكر بالطريق المغلق ، ووجه العسكري .. الجامد القسما ، والرؤيا التي رأتها البارحة . كانت حزينة .. أنها لم تعد بنظرة ، تكحل بها عينيها ، من وجه منصور !..! أدار سائق السيارة المذيع .. ربما ليبدد السكون . صوت المذيع جاء أجشاً مرتبكاً :

(موجز أخبار الساعة الثانية عشرة . شب حريق في السجن العام صباح هذا اليوم ..
(. لم يكن ثمة تفاصيل ، لكن المذيع بعد ذلك ، أورد تصريحاً لضابط كبير ..
مفاده أنه قد " تمت محاصرة السجن من جميع الجهات ، وأن الطرق المؤدية إليه
تحت السيطرة " ..

أحست بوجع .. وحزن يشتعل ، وهبط قلبها إلى قاع جوفها .. تتذكر رؤيا البارحة :
منصور تحاصره السحابة القاتمة .. ثم تطبق عليه ..
صوت يتلاشى ، يدان ترتخيان .. وجرح يعوي في الأعماق !..

خرج ولم يعد

دخل الخطيب المسجد يمشي ببطء ، كأنما يجر خطواته جرا . أصوات قراءة القرآن ، التي يضح بها المسجد .. بدأت بالخفوت . ما إن اعتلى المنبر حتى كانت الأصوات قد تلاشت .

فترة الآذان كانت فرصة لأن يتأمل في وجوه الحاضرين . أخذ ينقل طرفه في زوايا المسجد .. يرى الوجوه على الوجوه ، و يرى علامات التبرم .. بل يرى حتى النائمين !! و حفظ كذلك ، وجوه أولئك الذين يلازمون حضور خطبته ، و يتخذون مواقع ثابتة في المسجد! يعرفهم تماما و يعرف (الغرض) الذي جاءوا من أجله ..!!

لكن ماذا يفعل لهؤلاء الذين يُبدون الضيق من رتبة الخطبة ، خصوصا الشباب منهم . إنه لا يملك أن يفعل أكثر من هذا . يريدونه أن يثور ساخطا على (النظام) ، و يلقي بحمم كلماته على رموزه (!!) .. و لكن هل ينتهي الأمر بهذا !؟

إن (الحمم) التي يريده هؤلاء أن يلقيها لتزعزع أركان النظام ، كما يقولون ، يود أن يلقيها ، و لكن ليس للغرض الذي يقصدونه ، بل ليفجر العفن ، و الوهن ، و الانهزام داخل النفوس ، التي قبلت بهذا الوضع المهين !! إن الثورة على الخور و العبودية لغير الواحد الأحد ، داخل النفوس ، يجب أن تسبق الثورة على النظام ، و هو ما يريده هؤلاء المُستعبدِين داخليا .

كل هذه الأفكار طافت برأسه ، و هو يتأمل الحاضرين ، و يحاول أن يقرأ في ملامح كل شخص وقعت عيناه عليه، خبايا ما يدور في فكره . لم يقطع حبل تفكيره إلا قيام المؤذن بتقريب مكبر الصوت إليه لبدأ الخطبة . كان قد قرر شيئا في دخيلة نفسه ، رحمةً بالشباب الغض ، الذي يراه يتقاطر على المسجد ، و كله رغبة في أن يسمع كلمة رفض للانحراف و الفساد ، الذي يدفع إليه المجتمع دفعا.. باسم التحديث و التقدم .. أو إدانة .. لانتهاك حقوقه وسرقة أمواله و خيراته ، أو حتى يسمع عبارة

احتجاج على الواقع المزري الذي ارتكست فيه الأمة .. لعلها تمنحه بعض العزاء
لكبريائه الجريحة .

استهل الخطبة بالحديث عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و مكانته في
المجتمع المسلم ، و استرسل في الخطبة مستشهدا بالحديث النبوي : " من رأى
منكم منكرا فليغيره ... " . كان صوته يعلو حيناً و يخفت آن آخر .. و استغرق في
حالة من التفاعل مع الحديث الشريف ، لم يشعر خلالها بأي شيء آخر ، سوى
حركات التحفز التي بدأت تظهر على المصلين ، و الشباب منهم خاصة ..!

في نهاية الخطبة لم يدر ماذا قال بالضبط .. لكنه واثق من أنه قد تجاوز الخطوط
العريضة للخطبة ، التي دونها على ورقة صغيرة يحملها بيده .

كان هناك تقريران قد كتبنا عن الخطبة .. الأول يقول:

"الخطيب يحرض على العصيان المسلح" !!

أما التقرير الثاني فيؤكد صاحبه على أن :

" الخطيب يدعو إلى الإطاحة بالنظام عن طريق (انقلاب) " !!

إضافة إلى ملاحظات سجلها (أحدهم) .. أشار فيها إلى أن " الخطيب يصف أعمال
الحكومة بالمنكر" .. !

كان على وشك أن يهجع إلى النوم .. بعد أن صلى الوتر ، حينما بدأ طرق عنيف
ينهال على باب البيت .

ارتدى ثوبه ثم توجه نحو الباب .. و نادى :

- من هناك !؟

- افتح .. افتح ..!

- من أنت !؟

- افتح .. و إلا اضطررنا لدخول البيت بالقوة .. !

- !!!!!

فتح الباب فاندفع الطارق إلى داخل البيت و معه ثلاثة رجال .. قال مخاطبا إياه :

- النقيب عوض من المباحث .. سنفتش البيت ..

- الآن ..!؟! إن أهلي و أطفالي نائمون ..!

- لا بأس نفتش البيت ثم يعودون للنوم ثانية ..!

أشار للرجال الذين معه بأن يبدأوا التفتيش ..

- لحظة لو سمحت لأخبر أهلي ..

بعد أن انتهى التفتيش .. دون نتيجة ، قال له :

- تعال معنا ..

- إلى أين .. و لماذا ؟

أجاب و هو يدفعه أمامه :

- ستعرف فيما بعد .. !

وضع القيد في يديه و أركب شاحنة نقل بضائع صغيرة ، لا نوافذ لها ، سوى فتحات صغيرة ينفذ منها الهواء . بعد مسيرة نصف ساعة توقفت السيارة ، فصعد أحدهم إليه وعصب عينيه ، ثم اقتاده إلى داخل أحد المباني . أحس أنه صعد درجاً ، وسار في أكثر من ممر ، مرّة ذات اليمين و أخرى ذات الشمال ، و أخيراً أدخل إحدى الغرف ، و رفعت العصابة عن عينيه .. لم ير شيئاً لأن الغرفة كانت مظلمة . قبل أن يخرج الجندي ، و يغلق الباب وراءه ، أدار مفتاح الضوء الذي كان باهتا ، لدرجة أنه لا يكاد يصل إلى أطراف الغرفة رغم صغرهما .

تبين في الغرفة فراشا قديماً ممدوداً .. و طاولة و كرسي من البلاستيك . تمنى لو أن الجندي لم يشعل هذا النور، لأنه كان من الضعف بحيث يرسم تظليلاً للأشياء الموجودة في الغرفة ، بشكل يبعث على الوحشة .. فهاهو يرى ظله و كأنه عمود مشنقة ، تمثل لحيته الكثة حبلها ، و بدا له ظل الطاولة ، و هو يقف خلفها ، و كأنها منصة المشنقة ..!

تساءل .. و قد أحس بكآبة تنوء بكلكلها على صدره :

هل هذا جزء من برنامج الليلة!؟

استمر على هذا الحال ثلاث ليال .. لا يكلمه أحد ، و لا يرى أحداً ، سوى جندي يفتح الباب ، و يضع له طعاما دون أن يتكلم .

ظلت الأفكار .. و الخيالات السيئة تعاوده ، و في الليلة الرابعة .. أفاق من تخيلاته على صوت الباب يفتح ، فالتفت فإذا بنور الغرفة الباهت يتسرب إلى الممر عبر فتحة الباب.

قال يحدث نفسه ، و يكتفم آهة تكاد تفجر صدره : " يا رب حتى هذا النور الباهت لم يطق وحشة الغرفة ففر إلى الممر .. وما عسى أن يجد في الممر ، أو في ما بعد الممر!؟ " ..

دخل الشخص و لم يستطع أن يتبين وجهه ، و لكن عرف أنه ضابط ، حينما وقعت حزمة من الضوء على كتفه فلمعت النجمة النحاسية التي تعلوه .. سحب الكرسي فكان له صرير خيل إليه و هو ينبعث من وسط الظلام ممزقا السكون ، و كأنه نحيب امرأة ثكلى . جلس الضابط على الكرسي مستظها النور و واضعا يديه على الطاولة . بعد فترة من الصمت المخيف ، لم يسمع فيها إلا أنفاسه المتلاحقة ، سأله الضابط :

- أين تتدرب على السلاح ، ومن هم شركاؤك في الانقلاب ؟

- أي سلاح ، وأي انقلاب ؟

- لا تماطل نحن نعرف عنك كل شيء .. و كنا نرصد تحركاتك جميعها !!

- ماذا لدي حتى تعرفونه .. و ما هي تحركاتي!؟

- الإنكار لا يفيدك .. بل يؤخر تنفيذ (الحكم) ضدك!..

-أنا لا أعرف شيئاً مما تقول .. !

- نحن نعرف يا .. فضيلة الشيخ .. تعرض الشباب على العصيان المسلح ، و تدعوهم للمشاركة في (الانقلاب) الذي تخطط له!..

-من قال هذا الكلام!؟..!

- أنت قلته .. هل نسيت بهذه السرعة!؟ أم أن ذاكرتك ضعيفة إلى حد أنك لا تتذكر خطبتك قبل يومين!؟..!

-

- من رأى (منكرا) فليغيره بيده .. أو (فقبله)!!هاه!؟..

- هذا ليس كلامي .. إنه حديث .. !

- هذا ما نريده منك .. الشخص الذي تحدث بهذا ، أن تدلنا على صاحب هذا الكلام .. نعرف أنه مغرر بك .. نريد الرأس المدبر ..

- يا رجل هذا (حديث) من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ماذا عساك تفهم من الحديث أكثر مما دل عليه؟!

- هكذا إذن ، تُجهلنا بالدين .. أنت المسلم فقط .. أما الحكومة التي جعلت الإسلام مصدر رئيسي من مصادر التشريع ، هي برأيك ليست إسلامية .. !

- أنا لم أقل هذا .. !

- و تنكر أيضا .. لدينا تسجيلاً لخطبتك ، التي تصف فيها سياسة الحكومة بالمنكر ، و تحرض الشباب على الاعتراض عليها بالعصيان المسلح ..!

- هذا لم يحصل قط .. و أنا حينما استشهدت بالحديث الشريف لم أعن شيئاً مما تقول ..

- حينما بدأت تصرخ بجمهور المصلين ، و تقول من رأى منكم منكراً فليغيره بيده .. وترفع يديك أمامهم ، كما لو كنت تحمل بندقية .. ! هل هذا حديث أم دعوة للعصيان المسلح .. تحرض فيها الشباب المخدوع بشعاراتكم الدينية ..؟!

- ولكن ..!

- هل تظن عناصرنا من الغباء بحيث لا يعرفون (شفرتك) السرية هذه ..؟

- أقسم أن هذا لم يحصل .. قد تكون عناصركم فهمت حركاتي خطأ ، و من هنا حصل سوء الفهم ..!

- لو سلمنا معك جدلا .. بأنك لا تقصد بالمنكر السياسة الحكيمة للدولة ، و أن التغيير باليد لا تقصد به التحريض على العصيان المسلح ، فماذا تقول عن دعوتك الصريحة (للانقلاب) على الدولة و تغييرنظام الحكم!؟

- أنا...!؟!

- لا تعد للمماطلة .. كنت تصرخ : فليغيره بيده ، فإن لم يستطع (فقبله) ، و ظلت تكررها ثلاث مرات : فقبله .. فقبله .. فقبله .. لقد مضى عهد الانقلابات يا معتوه ..!

قال الضابط عبارته هذه .. و نهض و أغلق الباب خلفه بعنف .. مزق السكون الذي يخيم على المكان . أخذ الصوت الذي أحدثه إغلاق الباب يتردد .. فخيل إليه كأنما يكرر جملة الضابط الأخيرة : " مضى عهد الانقلابات .. مضى عهد الانقلابات ... " ..!

رغم المرارة التي يشعر بها ، إلا أنه لم يتمالك نفسه أن انفجر ضاحكا على (الدكاء) الخارق الذي يتمتع به الضابط .. و جواسيسه الذين كتبوا له التقارير!!

في الصباح كان خبر مدهامة بيت الخطيب و اعتقاله قد انتشر في الحي .. و وصل إلى كل بيت في المنطقة .. قالوا :

- يستأهل ..! لماذا يحشرنفسه في أمور لا شأن له بها...!!!

في الجمعة التالية ذهب الناس إلى المسجد ليروا الخطيب الجديد ، الذي أخذ يكرر لهم ما كان الخطيب الأول يردده قديما .. نفس الكلام ، و نفس المواضيع الرتيبة . بدأ الملل يسري إلى نفوس الحاضرين ، و أخذوا بالتبرم ، و لكن الخطيب ظل يكرر ما يقوله في كل جمعة ، رغم تناقص المصلين ، و نوم معظم الباقيين ، لأن الخطيب الأول .. (خرج و لم يعد) ..

أحمد الذي أطفأ قلبه

مرّ على زواجهما أكثر من ثلاث سنوات. مثل معظم العلاقات الزوجية ، لم يكن هناك شيء غير عادي بينهما، حب متبادل ، تفاهم على معظم الأمور ، وحياة تسير بشكل طبيعي ، ولا تخلو من بعض المنغصات الطارئة .
في الآونة الأخيرة ، بدأ يعلو لغط وهمس ، حول حياة أحمد وأمل ، ضمن دائرة الاقارب.. إذ لم يرزقا بأطفال إلى الآن.

أمل أكثر قلقاً من أحمد ، ليس لأنها أكثر لهفة منه على الأطفال ، بل لأن الضغوط النفسية من الآخرين ، تتوجه إليها أكثر.

من المسئول عن هذا الوضع ؟ لا أحد يعلم !..

هل المشكلة في أحمد أم أمل ؟ لا أحد يدري .

لكنها طبيعة مجتمعنا، التي دائماً تتوجه باللوم للمرأة ، دونما دليل ظاهر.

كثير الكلام : لماذا لا يتزوج أحمد ..؟ هل عليه أن (يضيع) شبابه مع هذه المرأة..؟

لم يطرح أحد السؤال الآخر: هل أحمد هو السبب ؟ وهل على أمل أن تبقى معه، و(تضيع) شبابها..؟

زار أحمد وأمل كثيراً من عيادات العقم والإخصاب، للكشف عن حالة أمل . كل الفحوصات أظهرت أنها سليمة، أو على الأقل ليس هناك سبب ظاهر يمنعها من الحمل والإنجاب.

أحمد لم يكن يعرض نفسه ، وأمل لم تكن تناقشه في هذا الأمر، ولم تفكر حتى أن تسأله سؤالاً حول الموضوع نفسه ، أو أن تطلب منه أن يعرض نفسه على الأطباء .. مثلها . أحمد شاب مثقف ومتدين ، ويرفض كثيراً من مسلمات المجتمع الخاطئة . هل هو في هذا الأمر ، يساير أهله ومجتمعه ، في أن الحق على المرأة ، وأن فحولته فوق الشبهات..؟ لم يحدث مرة ، أن دخلا في حوار حول هذه القضية . كثيراً ما يقول ، حينما يشير معه بعض الأقارب الموضوع :

– المقدر كائن ، ونحن نرضى بقضاء ربنا كيفما كان .

في إحدى زياراتها لأهلها ، فاتحتها أمها بالموضوع ، فبينت أمل أن الفحوصات ، لم تظهر لديها أي مشكلة . قالت أمها :

– ألا يكون هو السبب ؟

لم ترد أمل . فقالت الأم :

– هل تحبينه ؟ فأكدت ذلك .

– إذن لماذا لا تطلين منه أن يفحص نفسه ، ويطلب العلاج؟

– هل تظنني قادرة على أن أجرحه بهذا العمق ، وهو الذي بكى من أجلي مرة ، حينما جرح شعوري إحدى أخواته ، في واحد من النقاشات العابرة؟!

اليوم على الغداء ، قال لها، على غير عادته ، بصوت مشوب بالحزن :

- أمل .. لدى رغبة في أن نساfer معاً..

ولأن الوقت ليس وقت إجازات رسمية ، فقد فاجأها الاقتراح ، لكنها لم تمنع ، خاصة وأنها أحست في سؤاله شيئاً من الرجاء. جهزت أغراضهما، وبعد يومين كانا مسافرين في رحلة ستشمل عدة مدن. كان منخطط الرحلة يتضمن زيارة البيت العتيق، وتأدية مناسك العمرة، والتوجه ، بعد ذلك إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصلاة في مسجده والسلام عليه .. كآخر محطة قبل العودة إلى مقر إقامتهما.

طوال الرحلة شعرت أنه يحاول إسعادها بأقصى ما يستطيع ، لم يرفض لها طلباً، ومزح معها كثيراً. لم تجد تفسيراً لذلك ، إلا أنه يحاول أن يخفف عنها الضغوط النفسية ، بسبب تأخرهما في الإنجاب. تذكرت كلام إحدى صاحباتها، التي قالت لها يوماً ، حينما جاء ذكر الحمل والإنجاب إنه . أي أحمد . لا يحسن معاملتها، ويتأدب معها إلا لأنه هو السبب. يومذاك نفت أمل ذلك بشدة ، وقالت : إن الأدب وحسن المعاملة خلق من أخلاقه .

تساءلت في نفسها، وهي ترى لطفه الزائد معها في هذه الرحلة : هل لأنه اكتشف أنه سبب المشكلة ، كما تقول صاحبته، وهل عليها أن تتدارك شبابها، كما قالت تلك الصاحبة..؟ مع كل هذا المرح، كانت ترى في عينيه كلاماً يحاول أن يداريه، ولاحظت أنه يسرح بأفكاره بعض الأحيان، فلا يشعر بها.

كان الجو لطيفاً حينما خرجا إلى المسجد النبوي لأداء صلاة العشاء، صلى في الصفوف القريبة من صفوف النساء ، في الساحة الامامية للمسجد . لاحظت أنه على غير عادة ، يطيل السجود في صلاتي السنة والوتر، وعندما انتهى من صلاته أطال الدعاء. كان معظم المصلين قد غادروا .. نهض ، وكانت بانتظاره ، قال لها :

- ما رأيك لو نجلس قليلاً، هناك أمر أريد أن أحدثك به .

تسارعت دقات قلبها، وهي تمسك بيده ، التي شعرت أنها دافئة أكثر من المعتاد .

- أمل .. أنت تعلمين كم أحبك ، لذلك ليس سهلاً عليّ أن أقول لك ما سوف أقوله . منذ أكثر من عام يا أمل، وأنا أتردد على المستشفيات، في الداخل والخارج، ولعلك تذكرين أنني سافرت ثلاث مرات إلى الخارج، بحجج مختلفة، كما أنني أراجع مستشفيات عدة في الداخل. الحقيقة التي لا فرار منها، هي أنني رجل عقيم يا أمل، والحقيقة الأقسى هي أننا يجب أن نفترق.

شهقت وقالت بصوت موجوع:

- أحمد ، أرجوك.. لا تتكلم بمثل هذا الكلام .. لا تتكلم بمثل هذا الكلام.

ثم انفجرت بالبكاء، وحاول أن يسكن من جزعها. حينما هدأت قليلاً قال :

- قدرنا يجب أن نسلم به، وأن نواجهه بشجاعة، أنا رجل لا أنجب، وأنت من حقك أن يكون لك أطفال.

قالت بصوت تخنقه العبرات :

- من قال لك إنني أريد أطفال ؟ من حدثك بهذا..؟ أنا أريدك أنت، أنا أحبك، ولا يهمني شيء آخر غيرك!!

- هذا صوت العاطفة، لا صوت العقل يا أمل.

- بل هذا صوتي كلي: جوارحي، قلبي، عقلي، روحي، جسدي...

- لن أكون أناًياً يا أمل، أنا أحبك بنفس القدر، لذلك أريد أن أرى لك أطفالاً.
سنوات يا أمل ثم ندخل خريف العمر. من لك بعد الله لو تركتك وحيدة في ذلك
الصقيع، وحال بيني وبينك التراب؟! لا أستطيع أن أتخيل الزمان يجور عليك وحدك
تجترين الذكريات، ثم تقولين: أكان يجب أن أربط مصيري بهذه النهاية؟ أريدك حينما
تتذكريني، في أي مكان أو زمان كنت، تتذكرين رجلاً أحب امرأة هي أنت، وأن أتذكر
امرأة أحبت رجلاً هو أنا، وافترقا على الحب، وضحى كلاهما من أجل الآخر،
كأحسن ما تكون التضحية. ضحيت أنا بقلبي من أجل سعادتك، وخوف شقائك،
وضحيت أنت بقبول عرض قاسٍ مثل هذا، والاستسلام لمستقبل مجهول !!

قالت بصوت باكِ :

- وغير هذا الكلام...؟

نظر إليها نظرة كسيرة ولم يرد.

فعاودت سؤاله مرة أخرى:

- وأنت..؟

- سأجد ما أنشغل به .

- تبقى وحيداً...؟

- ربما أجد امرأة مثلي لا تنجب، أو أرملة تحتاجني ظلاً تأوي إليه، هي وصغارها، وأحتاجها شريكة عمر لما بقي من العمر.

عادا إلى الفندق، وكانت ليلة عجيبة، تبادلنا فيها الدموع إلى الفجر. في الصباح كانت الطائرة تقلهما عائدين . قالت له :

- كيف أنساك؟

- تعودني أن تتذكري أجمل ما تعرفين عني، لأني سأفعل الشيء نفسه. نحن دائماً في هذه الحياة نحتاج إلى أن نحتفظ في ذاكرتنا بصور جميلة، لأناس ولمواضيع، لنواجه فيها القبح المنتشر في كل مكان. لأنه متى ما حاصرنا الصور القبيحة، سواء أكانت حسداً، أم حقداً، أو ظلماً، أو نفاقاً، نهرع إلى الصور الجميلة في ذاكرتنا، لنقاوم بها هذا القبح. ليس هذا فقط ، إنه إن لم يكن لدينا معيارية نحتكم إليها، فستختلط علينا الأمور، فنحسب الوقح جريئاً، والبخيل مقتصداً، والمنافق دبلوماسياً، والأناني ذكياً، والفجور حرية شخصية.

الصور الجميلة التي نحتفظ بها في ذاكرتنا، هي التي تمنحنا المعيارية التي نفضح بها القبح، ونعريه، ونكشف بشاعته. أنت تتربعين في ذاكرتي، صورة في منتهى البهاء، والجمال، للمرأة الوفية، الصابرة، المؤدبة، المضحية، العاملة بصمت. كلما ضيق الزمان على خناقه، وأنا أعلم أنه لا بد فاعل ، سأهرع إلى هذه الصورة الجميلة، أهرب إليها سويعات، أو ربما لحظات.. أرجو أن أكون لديك كذلك، وإن كنت أتمنى ألا تضطري لمثل هذا.

حينما وصلا، قال لها وهم في الطريق إلى بيت أهلها :

- ليس أصعب علي من أن أقول لك وداعا، والذي يمزق قلبي أني سأودعك بكلمة
ليست بغیضة إلى قلبي فقط، بل إلى الله سبحانه.

- ألا تنتظر يوما أو يومين..؟

- الانتظار يزيد عذابي.

عند الباب سلمها مفتاح منزلها وقال :

- هذا مفتاح البيت، أنا لن أعود إليه، كل ما فيه لك.. وداعاً.. سأظل أذكرك، وأتابع
أمرك من بعيد.. سلامي للأهل.. نحن الآن...

وحنقته العبرة ولم يكمل ، شد على يدها، ثم استدار منصرفا، فعلا نشيؤها، وهي
ترمقه، يتجه نحو السيارة . ما هي إلا لحظات حتى كانت هي ، والشارع ، والفضاء ،
والوحشة .

وقعت مريضة أياما عدة ، قلبها آلام الصدمة . أهلها، باستثناء إحدى أخواتها،
تعاملوا مع الحدث بكثير من البلادة . رأوا فيه نهاية طبيعية لزواج غير ناجح.

- ما هي معايير النجاح..؟

قالت أختها أسماء، محتجة على موقف بعض أفراد الأسرة، الذين اعتبروا كلام أمل
عن الحب والوفاء، نوعا من السذاجة. شقيقها خالد، الذي كان قد هدد زوجته مرة
بالطلاق، ... يتبع

... تابع، صفحة 2 من 2

إن هي لم تنجب له ولداً، حسب المسألة بطريقة مختلفة، قال :

– الحب تستطيعين أن تأخذه من القصص، والمجلات، أما الأطفال فلا يمكن أن نحصل عليهم من البقالة ، أو الصيدلية .. أنت محظوظة أن تخلصت منه ، والرجل بدله رجل .

قالت أسماء، محاولة أن تخفف من وطأة كلام خالد على نفس أمل المتعبة ، وقلبها الجريح :

– هذا كلام يفتقد لأدنى المشاعر الإنسانية. هل الإنسان مجرد آلة تفريخ، إذا تعطلت، أو لم تنتج النوعية التي نريدها، (وهي هنا تلمزه في موقفه من زوجته)، نقوم برميها واستبدالها بغيرها..؟

مرت شهور، أو ما يقارب السنة، تزوجت بعدها أمل من رجل أرمل لديه ثلاثة أطفال. اختارته من بين عدد ممن تقدموا لخطبتها. لم تستمع لكثير من النصائح، التي اقترحت عليها أن تنتظر أكثر، حتى يتقدم إليها شاب أصغر سناً، وليس معه أطفال، خاصة وأنها ما زالت شابة في عشريناتها. هي تعرف معنى أن تكون "مطلقة" ، في مجتمع استهلاكي، ينظر لكل شيء، من البشر إلى الجماد، نظرة مادية، تقوم على مفهوم (الجدة والاستخدام). أليس خالد أنموذجاً صارخاً من هذا المجتمع ، الذي تبدو فيه أسماء ، بأخلاقياتها الراقية ، كطير يغرد خارج السرب .؟

انقضى عام على زواجها، وخيال أحمد تلاشى، أو يكاد من بالها، وها هو ثمرة زواجها، جنين يتحرك في أحشائها، تنتظر قدومه بلهفة، في غضون اشهر معدودة . هل علاقاتها الطيبة بزوجها.. أم هذا الطفل الذي تترقب وصوله، هو الذي أنساها

أحمد؟ تصرمت الأشهر ورزقت بطفلها الأول.

لذة الاطفال لا يعدلها شيء.

- إنه ولد جميل.. نسميه "أحمد" ! قال زوجها .

كأنما استيقظت من حلم ، فردت بسرعة :

- أحمد؟! .. لا .. لا غير أحمد.

رد زوجها متسائلا :

- ما به أحمد؟. إنه اسم جميل.

امتقع لونها، وتذكرته، بل تذكرت ليلتهما الأخيرة في المسجد النبوي.. عبارته تدوي في رأسها : "لن أكون أنانيا، من حقل أن يكون لديك أطفال". اعتصر قلبها الألم وداهمتها خاطرة : "ماذا لو علم زوجها بهذا الموقف الذي وقفه زوجها الأول أحمد... كيف سيفسر قبولها باسم "أحمد"؟

لا شك انه سيعتقد، أو أن بعض السيئين سيصور له، أنه تعلق منها بأحمد، زوجها الأول . لا .. لا احتراماً للذكرى الأول، ولكرامة الثاني ، أي اسم إلا أحمد.

- هل يمكن أن نسميه محمد.. أحب هذا الاسم؟ سألته بعينين يملؤهما الاستعطاف . ابتسم ..

- على بركة الله.

سحبت آهة من أعماقها وقالت، وهي تنزل رأسها بهدوء على الوسادة :

- الحمد لله .

أربعة أعوام مرت على انفصالها عن أحمد. كل شيء أصبح في ذمة التاريخ.. الأفكار، الذكريات، الخيالات، هكذا تبدو الأمور. ابنها محمد الذي بدأ يخطو خطواته الأولى، يمثل لها مستقبلا ، وقطعة لا شعورية مع الماضي.

لم تعد تفكر، ولو لمرة واحدة، أن حياتها الجديدة، التي كان من ثمرتها هذا الطفل ، الذي يتفتح كزهرة ، لم يكن نتيجة قرار اتخذته هي وحدها، بل يشاركها فيه، إن لم يكن مسئولاً عنه كلية ، شخص أطفأ قلبه .. ليوقد لها شمعة، واجتث السعادة من أعماقه ، لتفتح لها هذه الزهرة.

الليلة لديهم مناسبة سعيدة. شقيقة زوجها ستتزوج، وهي مشغولة بالاستعداد للمناسبة وتجهيز الأطفال. دق جرس الهاتف، رفعت السماعة:

- من .. هدى..؟ وعليكم السلام.. فعلا أنا مشغولة كما تعلمين. لن تستطيعي الحضور.. خير إن شاء الله..؟

لماذا لا تخبريني الآن عن السبب..؟ كما تشائين ، لكن حاولي.. أرجوك.

لم يكن هناك جديد في الحفلة، نفس النساء..(نفس الاهتمامات)، لدى الأغلبية. مضى أكثر من نصف الوقت، ولم تأت صديقتها هدى . بصفتها قريبة للعروس، فهي

مطالبة بالتعبير عن الفرح.

- تعالي ارقصي يا أمل.

قربيات زوجها يطالبنها. تعدهن بابتسامة، وإيماءة من رأسها أنها ستفعل، لكن ليس الآن. وسط جموع النساء التي تملأ الصالة لاحظتها.. إنها صديقتها هدى، تلتفت، كأنما تبحث عنها، أشارت إليها، فأقبلت نحوها :

- السلام عليكم ، معذرة عن التأخير لكن ..

قاطعتها أمل :

- الحمد لله على السلامة .. ما الأمر..؟

- شقيقي عبدالرحمن في المستشفى، ولم أستطع أن آتي إلى هنا قبل أن أطمئن عليه ..

- سلامته ... مم يشكو ؟

- لقد وصل البارحة من (سرايفو) ، حيث كان ضمن وفد إغاثي في البوسنة ، وسقطت عليهم قذيفة صربية، وهم في دار لرعاية المرضى المسنين .

- وكيف حاله الآن..؟

- وضعه طيب والله الحمد، لكن زميله، الذي أصيب معه، هو الذي حالته خطيرة.

يقول شقيقي إن القديفة مزقت كليه زميله ، وحيث أنه بكليه واحده ، فإن حالته
خطرة جداً .

تساءلت أمل باستغراب :

- لماذا هو بكليه واحده..؟

- لقد تبرع بكليته الأخرى لأحد أطفال زوجته ، الذي تعرض لفشل كلوي قبل عدة
أشهر.

- لم أفهم...؟

- الشاب لا ينبغي، وقد تزوج قبل أكثر من عام من امرأة أم أيتام، بعد طلاقه لزوجته
الأولى .

شعرت أمل بألم يضغط على صدرها، وسألت هدى بوجل :

- ما اسم هذا الشاب ؟

- على ما أذكر..أحمد..

ردت بحدة :

- أحمد..! أحمد من يا هدى..؟

أمام استغراب هدى، قالت:

- أظنه " أحمد الوافي " .

قالت أمل بألم ، وهي تضغط على الكلمات :

- أحمد الوافي..؟

- نعم.. هل تعرفينه..؟

تلعثمت وردت بسرعة :

- لا.. لا، ثم همست في سرّها : "إلى أين يمضي هذا الرجل في تضحياته..؟" .

في هذه اللحظة كانت إحدى قريبات زوجها تسحبها من يدها، لتشاركهم في التعبير عن الفرح، شقت طريقها بين النساء، ووصلت حيث مطلوب منها أن ترقص ، تعبيراً عن فرحتها. بدأت الزغاريد والاصوات ترتفع ، وتطلب من ضاربات الدفوف :

- (طقوا لأمل.. طقوا لأمل) ..

بدأت تتمايل ، مرة وثلثين وثلاث.. ثم سقطت وارتفع الصُراخ .

الرومانسي

كنا قد تشاجرنا هذا الصباح ، على أمر سخيف .. أعترف أنني كنت البادئ بالاستفزاز .

قلت لها : - لماذا لا أسمع منك كلمة حالمة ، شيئاً من تلك الرومانسيات ، التي تملأ حياة بعض الناس ، فتجعلها وردا وقوس قزح ..؟

صوبت نحوي نظرة باهتة ،

ثم قالت بسرعة : - "الشاهي ناقصة حلا" .

قلت ، وقد بدأت وتيرة صوتي تعلو : - "حياتنا كلها ناقصها حلا" .

أخذت ترتب أطباق الطعام أمامي ، دون أن تتكلم ، فبلغ الغيظ مني أقصاه ، فأهويت بقبضة يدي على معصمها ، وأطبقت عليها بشدة وأنا أهزها ،

والكلمات تنطلق كالضجيج من فمي : - لماذا لا تسمعي كلمة حب واحدة ، لماذا تقتلين حياتي ومشاعري المتأججة ، بهذا البرود .. ؟ لماذا .. لماذا ..؟

وأنطلقت أعدد عليها ما تحتاجه صحراء قلبي المجدبة . حدثتها عن العطش ، عن الجوع ، عن أحلام قتلها الصقيع ... عن الحب ، يموت ظامئاً .. جائعاً .. تائها ، لا عينين يأوي إليهما . كانت يدي تطبق على يدها ، ولم أشعر أنني قد آذيت معصمها في غمرة إنفعالي ، مما أراه سكوناً بليداً ، مميتاً ، في مشاعرها تجاهي .

لم أدرك ذلك ، إلا حينما رأيت وجهها ينطق بكل معاني الألم ، وهي تقول لي

بصوت متهدج : "يدي .. يدي .. أرجوك ، لقد أوجعتني " .

أطلقت يدها ، وسيطر على شعور بالندم ، وأخذت أتأملها ، وهي تغالب الدمع ، وتمسح يدها بيدها الأخرى .

قلت في نفسي : - (كيف يؤدي من يطلب الحب) ؟ كان واضحا أن يدها تؤلمها ، إذ لم تستطع أن تستخدمها في إكمال إفطارها . ولاحظت أيضا ، أنها على وشك أن تبدأ معي معركة ، فقد كانت متوترة ، وملامحها توحى بالرغبة في الرد على إتهاماتي وعدواني . في دخيلة نفسي كنت أريد معركة من هذا النوع ، لأدينها ، ولأؤكد لها ، أنني (أنا) الإنسان المعطاء ، وهي تمثال من الشمع ، بلا مشاعر . سادت لحظة من الصمت ، خشيت خلالها أن تنطفئ جذوة انفعالها ،

فقلت مستفزا :

- يا ضيعة احلامي . أنت تتحسسين يدك ، ومرهم كفيل بأن يحل المشكلة ، أما أنا فكيف أداوي قلبي الذي تيبس من الجفاف ..؟ رمقتني بنظرة عميقة ، لم أعتدها منها ،

ثم قالت ، وقد أختفت كل معالم التوتر من وجهها : - هل تظن أنني لو لم أكن أحبك ، سأبقى معك دقيقة واحدة ..؟

نزلت عبارتها كالصخرة على صدري : "إذن هي التي تقرر أن تبقى معي أولا تبقى ، وليس أنا . وبالتالي ، فمفهومها للحب هو الذي يحدد استمرار العلاقة بيننا" .. هكذا خاطبت نفسي . لماذا لا تفهم أنني أنا لي رؤيتي الخاصة ، في أن نبقي معا أو لا نبقي ؟ لماذا لا تدرك أنني أنا أيضا بحاجة لأن أحبها ، لكي أبقى معها ؟ إذا كانت

تحبني وفق تصورها الخاص ، لماذا لا تمنحني الحق في أن أحبها بالشكل الذي أريد
كذلك ؟ أأست في النهاية سأحبها هي ، وليس شخصا آخر ..؟

أليس مؤذيا أن تقول لإنسان : ساعدني كي أحبك ، فيكون الجواب : لا عليك أنا
أحبك ؟ ها هو يوم جديد ، وجولة من الإحباط جديدة ، وفشل يتراكم . في الظهر ،
أثناء رجوعنا إلى البيت من مقر عملها ، حيث تعمل معلمة في مدرسة في حي فقير ،
رأيت على جانب الطريق إمراة تمشي ، مسرعة الخطا ، حافية القدمين . كان يوما
لاهبأ ، أشعر فيه أن السيارة تنز تحتي من شدة الحرارة . كان منظر المرأة ، وهي
تسير حافية على القار ، الذي سال بعضه ، وتشقق البعض الآخر ، من هول الحرارة
، التي تصبها الشمس على الأرض ، يشير الألم .

إنفتت إلى حيث كنت أنظر ، فأبصرت المرأة ، وقالت بأسى : - لحظة .. لحظة ..
قف قليلا . حينما أوقفت السيارة ، فتحت الباب ونزلت باتجاه المرأة . مر بعض
الوقت ، وأنا لا أدري لماذا نزلت ، ولا بماذا تتحدث مع المرأة ، وفجأة ، رأيتها
تنزع حليها من يديها وتعطيها المرأة ، ثم أتجهت إلى السيارة ، وقالت لي : - معك
نقود ؟ - كم تريدن .. قلت لها ؟ - الذي معك .. أجابت .

أخرجت من محفظتي الف وسبعمائه ريال ، هي كل ما معي ، وناولتها إياها ، فاتجهت
إلى المرأة ووضعتها في يدها ، وتبادلنا بضع كلمات ، لم أسمعها ، وعادت إلى
السيارة .

قبل أن تركب ، استدارت فجأة نحو المرأة ، وقالت : - خاله .. حين أنفتت المرأة
، خلعت حذاءها ورمته تجاهها . لم يصرفها عن النظر إلى يدي المرأة البائسة ،
اللتين رفعتهما إلى السماء ، بعدما وضعت الحذاء في قدميها ، اللتين أكلهما القار
الحار ، إلا لهيب الرمضاء الذي أحرق قدميها ، وجعلها تتقافز ، كحمامة حطت على

صفيح ساخن . ركبت ، وخيم الصمت بيننا . هي ، أظن أنه قد أجمها الموقف ،
وصدمة التأثر ، لتعاسة هذه المرأة البائسة .

أما أنا فقد خجلت من نفسي : "أهذا الكيان الشامخ بلا مشاعر ؟ كم كنت ساذجا ،
حينما كنت أغمس يدي في هذا المحيط ، ثم أعيدها متأففا انه بلا محار ... وبلا
لؤلؤ" . حينما وصلنا إلى البيت ، أستأذنتها لحظة بعدم النزول ، ودخلت البيت
وأحضرت لها حذاء ، ولم أتكلم ، ولم نحتج إلى الكلام مرة أخرى .

زینب یعصرها الآسی

الظلام يملأ كل شئ .. يحس به حوله ، رغم الضوء الأصفر الباهت ، الذي يتسرب
من المصباح ، المثبت في سقف (الغرفة) الضيقة ..

الباب الحديدي الثقيل ، بلونه الرمادي ، ينتصب مثل كتلة سديمية هائلة ، تسد
الأفق ...

عند الأفق ينتهي العالم ، ومن السديم كان (الانفجار الكبير) ، وإلى السديم يرجع
أصل العالم ...

... هذا هو (عالمك) الذي عدت إليه ... بأفقه .. وسديمه ..

لقد عدت إلى (أصل الأشياء) .. بل أنت لم تخرج .. قط . كنت دائما في عالم (ما
ورائي) بقيت فيه .. به (مثالياتك) ..

لم تقرأ (نهاية التاريخ) لفوكوياما ، ولا (الأمير) لمكيافيلي .. لا تعرف شيئا اسمه
(موت الايدولوجيا) ، ولا (البراغماتية) ..

... لم تستمع لـ (تفاسير) الشيوخ و (الحكماء) ، حول الفرق بين (الجبن والحكمه)
، و (الشجاعة والتهور) .. هذا (المكان) هو (البرزخ) ، الذي تحدث عنه
(الاصحاب) ، ومنه ، قالوا ، تبدأ ، خطوات الصعود نحو (الخلود) المطلق ..

.. هناك اللقاء .. العهد .. العهد ..

.. سمعها كثيرا ...

شعر بمرارة تمزق حلقة ، وهو يستعيد الاحداث ، ويؤلف بين عناصر المكان ، في
معادلة (ميتا فيزيقية) بائسة .. في الغرف المكيفة ...

كانت الا جفان (تشاءب) ، على أحاديث الفداء و (التضحية) ...

كأسات الشاهي الساخن ، تذهب وتجيء ..

.. وكتاب (أيام من حياتي) ، ملقى على إحدى الوسائد ..

.. غلافه الذي بلي من تعاقب الأيدي .. لم يبق فيه إلا إسمها ..

.. زينب .. وتنثال مواقف الصمود .. و (الرجولة) ..

وتلتقي النظرات .. تؤكد (العهد) .. على الوفاء ..

بابتسامة لم تكتمل .. وإيماءة خفيفة ...

و ... سيقومون مقامي ..

الاحاديث حميمية .. كل شئ كان دافئا .. المشاعر .. الاحلام ... والوعود .

.. كل (شئ) كان دافئا ..

.. لوحة .. من الحماس .. والأمل ... و (دفع الأيمان) ...

.. كل شئ كان دافئا ..

وحدها فقط .. مكعبات الثلج ، التي تتأرجح في ابريق الماء بكسل .. كانت نشازا ..

للصمت وحشة ، لم يعرف قسوتها من قبل الآن فهم ، لماذا يقال : "صمت القبور" ، للتعبير عن قسوة الصمت ووحشته . أشياء كثيرة ، يسمع عنها ويردها ، دون أن يدرك معناها .

- (هل علي أن أجرب كل شئ ، لأفهم معناه ..؟) ، سأل نفسه .

أصابه هذا الخاطر بقشعريرة . تذكرها وتذكرهم .. وهو يغادرهم ، هزيع ليلة من الليالي تبكي ، وهي تمسك بيديه .. يحس لنشيجها الخافت دوي ، يدق أضلاعه بعنف .

- أرجوك لا تبكي .. قال لها .

رأى الخوف يزدحم في عينيها ، رآه يتقلب على صفحة وجهها ، مثل مرجل قد أطفئت النار لتوها ، من تحته :

- سيقومون مقامي ... ستكونون محل الرعاية ..
ستكونون في أعينهم .

قرأ اللهفة في العينين .. قرأ الوجع .. الخوف .. الوحدة .. الوحشة .. الضياع :

- أرجوك لا تبكي ، لقد أكدوا لي ذلك في أكثر من مناسبة .. أنا متأكد .. إنهم
(اصحاب مبادئ) .

تشبثت بيديه ... العينان أصبحتا أقل وميضاً .. وبقايا الأمل تغور فيهما ، كسماء
سوداء تبتلع نجومها . .

دمعتان ساختان تظفران .. ضمة إلى الصدر ، وقبله على الجبين :

- سيقومون مقامي .. سيقومون مقامي .. وداعاً . الظلام بلا رائحة ، والصمت بلا
نفس ... وقع خطوات (السجان) الرتيبة ، تعكس الايقاع البطيء لكل شيء هنا .
الظلمة تتسلل من فتحة (الإضاءة) الوحيدة في السقف ... ووقع الخطوات ، يتردد
صداها ، مثل قطرات ماء ، تهوي في لجة بئر سحيقة :

تأ .. تأ .. تأ .. تأ .. تأ ...

آخر حزمة ضوء ، تنسل خارجة ، بوهن .. ولم يبق إلا الظلام ..
.. وصدى الخطوات ما زال يصل مترنحا ، كثيباً :
.. تاء .. تاء .. تاء .. تاء .. تاء .

لم يعد يرى إلا عينيها ... وطعم الوحشة .. والوحدة .. والخوف ، يحسه في ريقه ..
و.. يداها تمسكان به .

- (هل علي أن أجرب كل شيء لأفهم معناه؟) ..

داخله هلع ، وهو يقلب هذا الخاطر . ٧ - لا .. لا ... سيقومون مقامي ..
سيكونون في أعينهم .

رن .. رن .. رن .

(ما هذا ..؟ إنه ليس الصدى ، الذي كان يقرع قلبي قبل قليل) ...

رن .. رن .. رن ..

أصغى :

– السلام عليكم .. (فلان) .. كيف حالكم ، والأطفال .. هل تحتاجون شيئا ..

سيزورونكم الأهل غدا .. و ...

رن .. رن .. رن :

– السلام عليكم .. (فلان) ..

.. كيف الحال هل تحتاجون شيئا .. سأمر الصباح لآخذ الأطفال إلى المدرسة ..

رن .. رن .. رن :

– السلام عليكم .. (فلان) .. معذرة على الاتصال في هذا الوقت المتأخر، داهمني

شعور أن الصغيرة بحاجة إلى المستشفى ...

.. سأحضر حالا ..

رن .. رن .. رن .. رن .

– (مازلت تمسكين بيدي .. من أين جئت .. كيف ..؟ أرجوك كفي عن البكاء) .

رن .. رن .. رن ..

– ألم أقل لك سيقومون بمقامي . كفي عن البكاء .. لا اتحمل كل هذا ..

لم لا تتكلمين .. لا أطيق هذا الوجع في عينيك ..؟

أطلقني يدي .. دعيني أراك عيانا .. تكلمي ...

– لن ترى منى إلا هاتين العينين .. وليس فيهما إلا الوحدة ، والوحشة ، والخوف ،

الذي خلفته ..

لأن كل ما حولي ظلاما .. لن تراني ..

لأنه ما بقي لي بعدك إلا الدمع .. لا أستطيع أن أكف عن البكاء .

لن أطلق يدك ..

... لم تركنتني ..؟

– ألم تقل ستكونون في أعينهم .. ؟

نحن كنا في عين واحدة .. : عين الوحشة ، التي أترعنا الخوف ، والعجز ، وقلة
الحيلة .

... لم تركنتني أسري في الغسق ... أصحب بناتك إلى المدارس ، ساعية على قدمي ،
وقلبي يضطرب خوفا عليهن ..؟

... لم تركنتني ألهث في الهواجر ... أتبضع اللقيمات لأطفالك ، وأعود متعثرة ، بما
أنوء به من حمل ..؟

... لم تركنتني أكابد الليالي ، عاجزة كليلة ، أقلب طفلتك التي طرحتها الحمي ..؟

... لم تركنتني ، أنا التي استحي أن أحدث والدك ، أقف على الطرقات ، أوقف
سيارات الأجرة ، أقضي حاجات أطفالك ، أسفح حيائي ، وتنهشني نظرات الذئاب
.. لمن تركنتني ..؟

.. أتلقى مواعظ (الأولياء) حول جدلية (الخلوة والمحرم) ..؟

لمن تركنتي ..؟

... لم تركنتي لضعفي وعجزي ... ؟

... لم تركنتي .. لم تركنتي ..؟

– أطلقني يدي أرجوك .. كفي عن البكاء .. أريد أُنراك ..
الظلام يقتلني .. يخنقني .. رن .. رن .. رن .. رن ..
سيقومون مقامي ..

... لم تركنتي .. سيقومون مقامي ..؟

رن .. رن .. رن ..

... لم تركنتي .. سيقومون ..؟

... لم تركنتي .. سيقو ..؟

... لم تركنتي .. لم تركت .. ني ..؟

تا .. تا .. تا .. تا ..

– يا نايم .. يا نايم .. كم (الرقم) ..؟

– هاه ... رقمي ..

.. و ..

إم رأة .. و ح ي د ه

.. خذلها الرفاق

.. (أيام من حياتي) .. مازال على الوسادة ..

.. و (زينب) يعصرها الاسى ..

غوانتانامو .. ما جاني أمر

يخطو نحو العشرين ، دخل المسجد.. يحمل جرحين : آثار حادث سيارة ، خرج منه
محطم الساقين .. محطم القلب ، على (أحلام) للشباب مبكرة ، اغتالها الحادث ..
و تداعياته على الجسد و (القلب) .. جرحه الثاني ، كان هموم أمة .. حملها صغيرا ،
و تفتحت (عيون) القلب على واقع بئيس لها .. تخلف و هزائم ..
الوجع هذه المرة جاء من أفغانستان ..

يتذكره .. كان يوم ثلاثاء ، حينما اجتاحت الدبابات الروسية كابل في أواخر شهر
ديسمبر 1978 . كان شتاءا قاسيا .. و ما زال ، ما أطول (شتاءاتنا) !..

بقي ينتظر يوم الجمعة .. (ستهتز) المنابر ، لهول الحدث .. هكذا حدث نفسه ..!
و طفق يبحث عن (جامع) يصلي فيه .

كان يريد أن يصلي .. و كان وجعا غائراً.. مكتوما ، يصرخ في أعماقه .. يبحث له
عن (فم) .. !

أحس .. كأنما دوائر هائلة من الألم تنداح في لجة أعماقه .. آهة حقيقية تتلوى في
صدره .. و طوفان رفض عارم يهدر في شرايينه ..

يموت .. مثل موج هادر .. يبتلعه الرمل على شاطئٍ خاوٍ .. مهجور..

بلع ريقه المُرّ ، و هو يتذكر مقطعا كان قد سمعه ، أول ما بدأ عصفور قلبه الصغير
محاولاته الأولى للطيران ..

" بي آهة .. عجزت أبلقى لها فم .."

قد كبر .. و اعتنق القلب(حبا) آخر .. مع حبه الأول ، و كبرت الآهة ..!

ناء القلب .. فوق(حبه) القتل بحادث السيارة ، بحب أمة مهزومة .. فحمل الهزيمة .. و احتمل الجراح .

اتخذ مكانا في الصف الأول ، قريبا من الإمام . لم يدر لم اختار ذلك المسجد بالذات . كان يبحث عن يطلق الصرخة التي تتحشج في داخله .. و تكاد ، و هي تدق جدران صدره بعنف .. و تركض مجنونة بين قلبه وعقله و حنجرتة .. بحثا عن مخرج ، أن تمزق أحشاءه .

الصفوف طويلة .. و كل شيء كان داكنا : الإضاءة الضعيفة ، لون الفرش ، الملابس الشتوية الملونة ، و وجوه (المخبرين) .. و روحه المشحنة .. المظلمة بلون الدم :

أمة تنزف .. و عصفور قلب جريح ..

يلع ريقه المر ، و يتراءى له وجه أمه ، تقرأ الوجع في عينيه .. ليست تدري من أي الجرحين يشكو ..!

يتراءى له وجهها .. تصب فنجان القهوة ، و تكاد تمد يديها ، تلتقط حطام وجع يتصب من عينيه .. و تردد :

" و الله ما خليك و أنت اليوم خالجني .. إما اتلف الروح .. أو آخذ معك سجة .."

كثيرا ما سمع منها .. مثل هذا الشعر ، الذي يُحدّث عن الألم .. إذ يعذب الروح ،
و يفريها حتى القرار ..

بعض الحزن لا يحتمله القلب ..

و بعضه لا يحتمله الجسد ..

فيفيض من العيون ..

كأنما تريد أن تقول له : أعرف معنى أن يخفق القلب .. يرف عصفوره الصغير
بجناحيه !

فتصطخب الجوارح ..

لا تدري أي الجرحين يشكو..!

تخاف أمه من شيئين : أن يفرط عصفور القلب في (التحليق) ، فتغرس فيه الصبابة
جرح عميق ، أو أن يفرط في حب (أمته) ، فتخطفه (كتائب) المخبرين ..!

فيما بعد ، حين منحوه الحرية بمكرمة (!!) .. قال لأمه :

- كنت تخافين ..!

و تعاقبت امام ناظره ومضات لوجهها .. و وجه السجنان ، و (أربع) مملوءة بصلصلة
الحديد ، و ألوان القضبان الرمادية .. و حذاء المحقق يهوي على رأسه ..

و هامات مغموسة في الذل ..

كان يظنه صوتها ، ضجيج الحناجر .. صدى الباب الحديدي الضخم ، و هو يدقه
بقبضته ..

حيث تختنق الحرية .. فلا يبقى لها (نفسا) مسموعا .. إلا صوت قبضة تدق بابا
مصمتا ..

ماتت دونه كل الكرامات ..

سألها :

- ما الفرق بين الهاجس و النبوءة ؟

- الآدمية المهذرة ..

ظن أنها قالتها .. و هو يقرأ عنوانا لتقرير ملقى على الفراش .. بجانبها ..!

رأى الباب يُفتح ، و يدلف منه . كان نحىلا يتهادى في أربعيناته . اشتمل بمشله ،
وهو يهّم بصعود درجات المنبر . التفت وراءه .. كان المسجد قد امتلأ . اكتظت
الصفوف ، فأغلقت الأبواب الأمامية .. لتصد تيار الهواء البارد الذي كان يندفع
للدخل .. مؤكدا أنه (ديسمبر) ، و (شتاؤنا) الطويل ..

الأنفاس الحارة ، و الملابس الثقيلة ، أشاعت الدفء ، فبدأت الأجساد تتململ ..

دوي أصوات قراءة القرآن .. خلق شعوراً نقله إلى كابل :

كأن الذي يسمعه .. ليس تراويل سورة الكهف .. بل عويل الجروح في شتاء مدينة
ذبيحة !..

الخطبة الأولى بدأت .. تحفز .. و زاد تحديقه بالإمام . المسح على الخفين للمقيم
..

أمعن الإمام في حديث الخف و (مواصفات) الحذاء ..

و ازداد هوتحديقا فيه ..

عويل الجرح يزداد ..

حرارة المكان تزداد ، و الأجساد تتململ .. معاطف تخلع ، و أعناق تشرئب ..

الإمام كان ما يزال مستغرقا في الخف .. ينتقل بين ظاهر الحذاء و باطنه ..

التفت .. التقطت عينه مشهد (الأحذية) السوداء اللامعة متناثرة عند الباب الخلفي ..

و الإمام مازال في (الخف) !..

لون الأحذية .. داكن أيضا ..

صك ما بين أسنانه ، و كتم نفسا حارا ارتفع منه صدره :

سوف يذكر (مأساتهم) في الخطبة الثانية ..

الحدث هائل .. لا بد أن يشير إليه ..

في الاستراحة بين الخطبتين ، أطال الإمام التأمل في الحضور ، و بدا أكثر إصرارا على (استثارة) الحاضرين ، بتلمس (معاناتهم) .. مثلما (فعل) في الخطبة الأولى .. !
يوم كانت الأجساد تتململ ، و الأعناق تشرئب .. و الملابس الداكنة تحكم الخناق عليها ..

و الإمام يمعن (....) !..

و كلام كثير (يشير) حفيظة الصرخة المخنوقة ..

لم يلاحظ الإمام الملابس الداكنة ، و لم يفتقد هواء ديسمبر البارد .. كان ملتحفا بعباءته الصوفية الثقيلة ، و لم يسمع عن أقدام عارية (بيضاء) أكلها الثلج .. تزحف هاربة من شتاء كابل (الأحمر) ..

و كلام يأتي من أعماق قتل (الصقيع) الإحساس فيها ..

كان (غارقا) في الخف .. و في مواصفات الحذاء ، فلم يشعر بشيء ..

الخطبة الثانية .. المسح على الخفين للمسافر !..

حرارة المكان تزداد ..

و الإمام مازال .. مسترسلا في مسائل الخف ..

و العويل اختنق .. تحت الخفين...

الأحذية السوداء اللامعة تراكمت ..

و أقدام عارية تتهتك ..

و (جورب) الإمام كان سميكا .. متماسكا ..

سيدعو لهم في القنوت .. !

ابتدأ الدعاء .. فأصغى بشدة ..

دعا لولاة الأمور .. و لأئمة المسلمين ..

" اللهم أصلح بطانتهم " ..!

سأل الله الغيث .. و دعى أن يكون على منابت الشجر ..

و بطون الأودية ..

حذر من البدع .. و (موالاة) الكفار ..

ثم حمد الله ..

" على ما أنعم به (علينا) ، من نعمه الظاهرة و الباطنة " ..

التي (يحسدنا) عليها الكفار ..

ثم ..

" أقول قولي هذا و أستغفر الله (لي) .. و لكم .. "

- أقم الصلاة ..

في الركعة الأولى قرأ: " الذين إن مكناهم في الأرض .. " ..

و في الركعة الثانية : " إنا فتحنا لك فتحا مبينا .. " ..

بعد الصلاة نهض .. سار باتجاهه ..

اقترب .. كان ثمة شعرات بيضاء في عارضه نجت من لون الحناء (الأحمر) ..

ضحك للمفارقة .. (بيضاء) نجت من (الأحمر) !..

قال له :

- لم تتحدث عن الغزو ..

- ما جاني (أمر) ..

سحب مكبر الصوت من أمامه .. :

- دعني .. أنا سوف أتكلم !..

- لا .. ما عندك أمر ..

تجاذب معه السماعه .. أكثر من مرة ..

التفت إلى الصفوف .. كانت طويلة ، و كان ثمة عشرات الأعين تطيل النظر إليه ..

كم (مخبر) بينهم .. جال هاجس في خاطره ..!؟

يتذكر الآن .. ما كانت أمه تخاف ..

صلصلة الحديد ، و القضبان الرمادية ..

فتنقبض شفتاه على لعاب حامض .. يود لو لفظه ..!

أرخی يده .. غامت الدنيا في عينيه ، و عاد إلى مكانه في الصف ..

و عاد الإمام .. الجمعة التالية ، ليتحدث عن التيمم .. إذا خشى المرء على نفسه

البرد !..

و يدعو : " اللهم أعز الإسلام و المسلمين " .. !

عشرون عاماً و نيف .. مرت ..

أفرط خلالها في حب (أمته) .. و صار الذي خافت منه أمه ..

خطفته (الكثائب) ..

و ظل (الإمام) يحدث الناس في (الشتاء) الطويل .. الطويل .. عن المسح على
الخفين !..

و ثوبه في (غيبوبة) ..

يحدق في القضبان ، و يدق بابا مصمتا .. يسمع صداه ..

و يخاله .. احتجاج هامات مغموسة في الهوان ..

الإمام (يمعن) .. !

و الأحذية تتراكم ..

اليوم خرج ليصلي الجمعة ..

أمام منصة لعرض الصحف وقف ..

قلّب بعض الصحف و المجلات المصفوفة ..

صور لرجال في (أقفاص) .. و تصريح لـ (شيخ) :

"لا يجوز التعرض للدول و الأشخاص " .. !

و كلمة تتكرر كثيرا :

" غوانتانامو .. غوانتانامو .. "

دخل المسجد .. أخذ مكانا في الصفوف الأولى ..

ديسمبر مرة أخرى .. و (الغزاة) السود .. !

و (رجال) في أقفاص .. و صوت يجلده :

غوانتانامو .. غوانتانامو ..

و تصريح الـ (شيخ) : لا يجوز .. لا يجوز .. !

ينزع بقية من (إنسانية) يتشبث بها .. اقتلعها (الغزاة) من رجال في أقفاص ..

تحدث الخطيب عن (زكاة الفطر) ..

و سأل الله المطر ..

و دعا ل (ولاة الأمر) .. و أئمة المسلمين ..

كانت (الأحذية) متراكمة ..

و لعاب مثل الحامض .. يتراكم .. يشوي حلقه ..

و صوت يجلده :

" غوانتانامو .. ما جاني أمر ..

غوانتانامو .. ما جاني أمر ..

لا يجوز .. ! "

قاومي لیلی

كان يزدريها وهي صامته

في البداية احتجت على أسلوبه ، ذكرته بأن ذلك لا يليق بإنسان متعلم ، بل لا يجوز أن يصدر من إنسان تجاه آخر . وحينما يكون ذلك (الآخر) زوجا أو زوجة ، يكون التعامل ، الذي يتعمد تجريح الذات الأخرى ، وإذلالها ، نوعا من القتل العمد ..

قتل الكبرياء .. قتل الكرامة .. وإغتيال الحب ...

وعلى جدث الحب .. تنبت الكراهية .

مع الوقت كان يزداد قسوة ، وكلماته الجارحة تزداد ضراوة ، ويتوغل نصلها الحاد في أعماقها . ضميرها المجروح ، يصرخ بصمت :

" نصل قسوتك يوشك أن يجث بقايا زهرة قلبي الذابلة " .

ضربها فاشتعل الحقد في قلبها .. إحتقارا وإشمئزا ورفضاً . مات الحب ، فهوى مشخنا فوق جسد الكرامة الذبيحة .

ليلي صارت مطلقة ...

– مطلقة أنت يا ليلي ..؟ والأطفال يا ليلي ..؟ ماذا يقول الناس يا ليلي ..؟

– أنا لم أطلقه هو الذي طلقني .. أنا لم أنهه هو الذي أهانني .. أنا لم أكرهه ، هو الذي كرهني .. هو الذي أغتال عصفور الحب الذي أطلقتته من قلبي ، ليشقشق بيننا

...

كيف يحب إنسان إنسانا يكرهه ..؟ كيف يعود إنسان لإنسان يرفضه ..؟

الناس .. ماذا أفعل بالناس ..؟ لم لا يذهب الناس هم إليه ..؟

الأطفال .. آه من الأطفال ، تلك الورود التي لا تورق إلا بماء الحب .. ستموت إذا ما ظللتها غمامة الكراهية .. الكراهية التي نبتت يوم مات الحب بيننا .. يوم ذبح كرامتي ، وسار على جدث ذلك الشئ ، الذي كانوا يسمونه يوما .. حبا .

خير للأطفال أن يعيشوا على نصف حب ، من أن يكدر صفاء عيونهم وجه الكراهية القبيح .. من أن تلفح براءتهم سموم الحقد .

ليلي أفهمت الناس أنها مطلقة ، ولكنها أيضا ليست نصف أنثى . أنها مطلقة ، لكنها كذلك إنسان . أنها مطلقة ، ولكنها لم تكن خاطئة ولا مخطئة .

دوت في أوساط العائلة ، وفي أرجاء الحي ، وفي سمع المدينة :

- (ليلي مطلقة ولكنها لم تكن هي المخطئة) ...

فغرت الأفواه ، واتسعت الأحداق :

- (مطلقة وليست مخطئة) ..؟

هاه ... آلاف (هاه) تسللت من بين شفاة منقبضة ، وعيون تدور من الدهشة ، ورؤس

تتحرك ذات اليمين وذات الشمال .. والصدى يتردد في الزوايا الصدئة ...:

(مطلقة ليست مخطئة .. مطلقة ليست مخطئة)

وهز الصدى آلاف الحطام البشري ، الذي سحق ، وأخرج من إيقاع الحياة ، ودورة
العطاء ..

لأنه .. مطلقات ..

لم تتزوج ليلي في اليوم التالي ، بعد أن (اثبتت) أنها مطلقة، لكنها أنثى كاملة وإنسان
، وأنها لم تكن مخطئة وليست خاطئة ...

ولن تتزوج ربما ، ولا في الشهر التالي ، أو حتى السنة التالية ، لأن القصة لن تكون
نهايتها مثل نهاية (تمثيلية تلفزيونية) ، حيث ينتصر (البطل) ، ويموت (المجرم) ، أو
الظالم، بسكتة أو جلطة .

ليلى ستنهض من بين الحطام ، وستعود إلى إيقاع الحياة ، وستنظم في دورة العطاء ،
إذا بقيت تقاوم ..

قاومي ليلي ..

بالحب والعطاء ... فالصدى يتساقط .

قصة عائشة في غرفة التشریح

بدأ حلمًا .. يراودها ، منذ تسع سنوات . وقتها .. كانت في الصف الثالث الابتدائي ، حين صارحت أمها ، بأمنية (بريئة) كأحلام الطفولة ، بعد موقف مرّ بهما . موقف ظل يتكرر كثيراً ، في أعوام تالية ، كلما أخذ والدها والدتها إلى المستشفى ، للكشف عليها .. حين تمر بعارض صحي . تسمع توسلات أمها عميقة ولحوحة ، وهي تتمنّع في بعض المرّات ، عن الذهاب إلى المستشفى ، رغم وضعها الصحي السيء ، ثم توافق على مريض :

- أرجوك يا ناصر ، إذا كان دكتور ، لا أريده أن يكشف علي .. !

في كل مرّة ، كان زوجها يرد بحزم :

- ليس عندنا حل ثانٍ يا مها ، إذا لم يكن هناك دكتورة ..

- لا .. أرجوك يا أبا أحمد .. أموت ، ولا يكشف عليّ رجل .

سنوات تمضي ، ومشهد يتكرر . في إحدى المرّات .. تتذكر أن والديها ، عادا من المستشفى ، بكيس من الأدوية . أبوها كان هادئاً ، لكن والدتها بدت بحالة نفسية متردّية ، أسوأ من تلك التي ذهبت بها . سمعت والدها يتحدث ..

يطمئنّها ، ويؤكد بأن حالتها عادية ، ولا تستدعي القلق ، وأقسم على ذلك عدة مرّات .. وأن الطبيب أخبره بذلك . ثم ختم حديثه قائلاً :

- وكان كذلك ، مؤدباً جداً .. وهو يكشف عليك . أليس هذا هو المطلوب ؟

أفرغ كيس الأدوية على طاولة صغيرة ، في وسط غرفة النوم ، وأخذ يستعرض تعليمات الاستعمال ، المملصة عليها :

- كل شيء واضح .. أهم شيء الالتزام بالمواعيد .

نظر إلى ساعته وقال :

- سأخرج للصلاة الآن ، ولدي موعد بعدها ، استريح .. عائشة ستساعدك .

نادى على ابنته ، وقال مماًزحاً :

- أكيد تعرفين .. تقرأين ..؟

هزت رأسها ..

- شوفي التعليمات المكتوبة على الأدوية ، وأعطيتها ماما .

جثت على ركبتيها قريباً من الطاولة ، ثم التقطت منديلاً ورقياً ، وفرشته في

إحدى زواياها . شرعت تقرأ الإرشادات ، المرفقة مع كل علبة دواء ، ثم

تفتحها ، وتأخذ منها ، حسب ما هو مبين في ملصق التعليمات ، وتضعه على

المنديل ، حتى مرّت عليها كلها ، وأعادتها بعد ذلك إلى الكيس . أحضرت

كأس ماء ، ثم جمعت الدواء في المنديل ، واتجهت إلى والدتها ، التي كانت قد

استلقت على السرير ، ووضعت وسادة على وجهها :

- ماما .. الدواء ..

التفتت الأم ، بعد أن رفعت الوسادة عن وجهها ، ونظرت إليها بعينين
مبللتين . مدت يدها إليها لتأخذ الدواء ، وبقايا ألم ما زالت في العينين ..
تحاول أن تواربها :

- تسلمين حبيبتي ..

- أمي .. بابا يقول ، أنت طيبة ، وما فيه شيء خطير ، ليه أنت متضايقه ؟

- ما فيه شيء حبيبتي ..

- أجل ليه تبكين يا ماما .. أنت متضايقه من المستشفى ..؟

أغلقت كفها على الدواء ، ثم أغمضت عينيها وأطرقت . كانت تحبس وجعاً غير
عادي ، وتتمنى لو تجد من تبوح له به . في خاطرها أن البنت صغيرة ، ولا
تستوعب حديثاً عن أحوال النساء .. بهذا المستوى . كيف تفصح لها ، عن
خجلها الشديد ، من كشف الطبيب عليها ؟

عندما رفعت رأسها ، كانت ابنتها ما زالت واقفة ، ممسكة كأس الماء بيدها ،
وعلامات الاستفهام ، قد استولت على كامل وجهها . أخذت كأس الماء منها
، وتناولت كومة حبوب الدواء من المنديل ، وجمعتها في كفها ، ثم قذفتها

في فمها ، وأتبعتها بجرعة ماء . وضعت الكأس بجانبها ، ولم تشأ أن تنظر في وجهها ، حتى لا تشعر بحرج من تهربها من الإجابة . أحست بها تتقدم نحوها .. ثم تقف ، وتطوق عنقها بكفين ، وساعدين ممدودين . رفعت رأسها ، ولما التقت نظراتهما .. فاجأتها بما لم تتوقع :

- ماما .. لما أكبر ، أصير دكتورة وأكشف عليك .

صرخت وضمتهما :

- يا عمري يا (عيوش) .. حاسة فيني ..!

انزاح عن صدرها هم ثقيل ، فانفجرت أساريرها . كانت تريد البوح ، أن تتحدث إلى (أحد) . لم تظن أن عائشة الصغيرة ، قادرة على إدراك ما يعتمل في داخلها . أجلستها إلى جانبها على طرف السرير ، وانطلقت تحدثها عن حياتها من الرجال ، وشعورها بالإثم ، لإطلاع الطبيب على أجزاء من جسدها :

- أستحي يا بنيّتي ، وأحسّ إنني أموت مئة مرّة ، قبل ما يخلص الدكتور من الكشف .

لم تعلق عائشة ، وإنما استمرت تتأمل أمها ، وتمسح وجنتيها بكفيها .. وتكرر بين آن وآخر جملتها : " أكبر وأصير دكتورة ، وما يكشف عليك إلا أنا

” . تبتسم الأم وتضمها ، لكنها لا تخفي عدم رغبتها في أن تصبح عائشة

طبيبة..

– اسم الله عليك يا حبيبتي .. أخاف عليك..!

كبرت عائشة ، وبقي الحلم يكبر ، في كل مرة يتكرر الموقف ، حينما تضطر أمها للذهاب إلى الطبيب .. وكثيراً ما حدث ذلك . حلم طفلة التاسعة ، بقي خواطر عفوية ساذجة ، تروح وتجيء ، إلى أن كان قدره أن يتعرض لصدمة ، حوّلته إلى هدف ، غير قابل للمساومة .. لفتاة أصبحت أكثر نضجاً ، وتقرب من سن الزواج ، وصارت تعرف من أمور النساء الشيء الكثير .

في مجتمع ينشئ نساءه ، على الحشمة والحياء ، وتنظر المرأة لذلك ، على أنه مقياس لقيمتها ، وسور يمنع التعدي عليها .. لم يكن صعباً أن تفهم ، لماذا تعاني أمها ، كل هذه المعاناة ، في كل زيارة لها .. للطبيب . إنها .. بمفهوم آخر ثقافي ، غير معلن ، تعتبر إطلاع الطبيب الرجل ، على خصوصية جسدها إنتهاكاً لمحرم ، واختراقاً لحصونها ، التي تستمد منها ، واحدة من أهم قيمها المعنوية . في مقابل القيمة الحسية ، التي تَعْمَدُ إلى (تَشْيِيء) المرأة ، والنظر إليها ، بوصفها شيئاً (متاحاً) ، باعثاً للذة .. ومن ثم ابتذالها جنسياً ، يعلي الحياء والحرص على خصوصية الجسد .. من القيمة المعنوية للمرأة ، بوصفها كينونة بعقل .. ومنظومة قيم . صحيح أن حالة

والدتها ، لا تتكرر كثيراً ، لكنها تستند إلى بيئة تربوية وثقافية .. تتفاوت النساء في تمثّلها .

كانت شابة في السابعة عشرة .. طالبة في الصف الثاني الثانوي ، حينما رافقت أمها الحامل ، برفقة والدها إلى المستشفى .. في رحلة أحدثت تحولاً عميقاً في مجرى حياتها :

- أمك تحتاج إلى مساعدة يا عائشة .. تعالي معنا . أصلي المغرب ونمشي ..
كونوا جاهزين ..

حين وصلوا المستشفى ، توجهوا لقسم الطوارئ . قصد موظف الاستقبال ، وقال أن زوجته حامل ، وتشكو من آلام شديدة ، رغم أن موعد وضعها لم يحن بعد :

- لديها ملف ..؟

- نعم ..

ثم مد يده إلى جيبه ، وأخرج بطاقة بلاستيكية ..

كانت على كرسي متحرك . أشار إليه ، وهو يمد البطاقة .. إلى ممرضة على يمينه ، بأن يدفعها باتجاه مكتب ، يتجمع حوله عدد من الممرضات . أخذت الممرضة التي تحدث إليها ، البطاقة التي كانت تحمل اسمها ، ورقم الملف ،

ومعلومات عامة عن المريض . شرعت تملأ البيانات ، في ورقة تناولتها من ملف أمامها ، وتملي في الوقت نفسه ، عبر الهاتف ، الذي رفعته بكتفها ، وألصقته بأذنها .. معلومات الملف ، على شخص آخر تحادثه . أثناء ذلك ، كانت الممرضات الأخريات قد وضعنها على سرير ، في إحدى غرف الطوارئ ، وبدأن بأعمال الفحص الأولي . أبو أحمد .. زوجها ، كان متوتراً ، على غير عادته ، فبادر الممرضة :

– هاه .. يا (سستر) ، إن شاء الله خير ..؟

– إن شاء الله .. ” ممكن فيه ولادة ، بس لازم دكتور يشوف أول ” .

عائشة كانت إلى جوار أمها ، حين لاحظت أنها انتفضت ، بمجرد سماعها كلمة (دكتور) . بعفوية لا تخلو من توتر ، سحبت الأم الغطاء على بطنها المكشوف ، رغم أنه لم يكن موجوداً ، إلا زوجها وابنتها والممرضة ، التي تقيس ضغطها ، ودرجة حرارتها .. ولم تكن قد انتهت بعد ، من استكمال إجراءات الكشف . لما أرادت الممرضة أن تزيح الغطاء ، لتضع السماعة على بطنها ، أبعدت يدها ، واجترت نفساً عميقاً .. وقالت :

– أرجوك يا (سستر) ، إذا خلصت .. أبغى دكتورة تكشف علي .

لم ترد الممرضة ، وإنما واصلت إجراءات الفحص ، وطرح الأسئلة التقليدية ،
عن تاريخها المرضي ، وإذا ما كان لديها حساسية ، تجاه دواء معين . تجاهل
الممرضة لطلبها ، زادها إحباطاً ، ورفع وتيرة قلقها .. فنظرت إلى زوجها
بعينين منهكتين ، أثقلهما الإحراج ، والشعور بالعناء الذي تسببه له ..
فعجزت عن فتحهما بكامل استدارتهما .. وقالت :

- أسألك بالله .. يا أبو أحمد ، فكّني من وجع القلب هذا ..!

أغضى .. وتنهد بصوت مكتوم ، ولم يعلّق . وقف للحظة .. ثم شد على يدها ،
قبل أن يذهب . خرج من عندها ، وصار يتلفّت بحثاً عن أحد يسأله . شاهد
شاباً يرتدي معطفاً أخضراً ، يناقش إحدى الممرضات في ورقة يحملها . اقترب
منه ، وأخبره بحاجة زوجته لعناية عاجلة . لم يقطع الشاب حديثه مع
الممرضة ، بل التفّت بسرعة .. وقال وهو يشير بيده .. باتجاه أحد الأشخاص :

- كَلّم الدكتور بشير ..

- وأنت ..؟

- أنا طبيب امتياز .

- يعني ..؟

لم يرد عليه ، بل استمر في حديثه ، واكتفى بالإشارة إلى شخص سوداني في طرف الصالة ، عليه معطف أبيض ، ويتحلق حوله عدد من الأشخاص ، بينهم ممرضات . سألت إحدى الممرضات عن الدكتور بشير ، فأشارت إليه . أراد أن يحدثها عن حالة زوجته ، فاعتذرت وأخبرته .. أن عليه أن يتحدث مع الطبيب المسؤول في قسم الطوارئ .. الدكتور بشير . اقترب وحيّاه :

– مساء الخير دكتور ، أنا زوجتي حامل وتعبانة .. ممكن ..

– الدور جاي عليها ، دقائق فقط ، وأجىء لها .

– المشكلة يا دكتور ، إنها تريد طبيبة تكشف عليها .

– للأسف .. الليلة الدكتورة صار عندها حالة طارئة .. ومشت ، ولا يوجد في

القسم عندنا ، إلا دكاترة رجال ، يكشفون على المرضى .

– والولادة ..؟ الممرضة قالت أنها ربما تكون عندها حالة ولادة مبكرة ..!

– موضوع الولادة ليس فيه مشكلة ، على حد علمي ، يوجد طبيبة ، لكن دعنا

الآن نراها ، ونعرف ما هي حالتها بالضبط ، مع الدكتور فيصل ..

ثم أشار برأسه إلى طبيب ، يقف على بعد أمتار منه ، يقلب مجموعة أوراق

بين يديه . يبدو الدكتور فيصل ، من ملامحه ومظهره الخارجي أنه سعودي .

فرح بذلك ، وقال يحدث نفسه : دكتور سعودي .. سوف يتفهم موقف زوجتي ، ورفضها للأطباء الرجال .. ويقدر حالتها النفسية ، وشعورها .

عاد إلى زوجته ، وفضل أن يبدأ بإطلاعها ، على ما يظن أنه الخبر الذي سيطمئننها ويريحها . يعلم أنه لو أخبرها بعدم وجود طبيبة ، تتولى الكشف عليها ، فإن وضعها النفسي سيتدهور ، وحالتها الصحية ستزداد سوءاً . قال إنه تحدث إلى الدكتور رئيس قسم الطوارئ ، عن رغبتها في طبيبة تتولى متابعة حالتها ، وأن الدكتور أكد وجود طبيبة نساء وولادة ، سوف تتولى رعايتها ، والإشراف على الولادة .. بمجرد أن يتم تحويلها من الطوارئ إلى قسم التوليد ، بعد أن تنتهي إجراءات الكشف ، والتأكد من حالتها .. ثم أضاف ، بكثير من الاطمئنان :

– هناك أيضاً دكتور سعودي موجود في الطوارئ ، سيساعدنا لو حصل أي إشكال ..

بدت أمارات الرضا على وجهها ، ولم تنتبه لكلام زوجها ، أن من سيتولى الكشف عليها ، وينهي إجراءات فحصها .. قبل تحويلها لقسم التوليد ، دكتور وليس دكتورة . كان انتباهها مركزاً على الجزء الأول من الكلام ، الذي يتحدث عن طبيبة النساء والولادة . عائشة انتبهت للأسلوب ، الذي خاطب به والدها والدتها ، ولاحظت مظاهر ارتياح اتسم بها حديثه ، وهو

يتحدث عن وجود طبيب سعودي . انتبهت أيضاً للسكينة التي غمرت أمها ،
بعد سماعها لكلام والدها . اختلست نظرة لوجه والدها ، الذي أدرك ما يدور في
خاطرها .. فتبادلا ابتسامة ارتياح وإعجاب . هي للطريقة الذكية التي
استخدمها لطمأنة أمها ، وهو لذكائها وسرعة بديهتها .

كانت المريضة قد فرغت من إجراءات الفحص ، ودونت النتائج في بيان معها ،
وعلى وشك أن تخرج ، حين دخل الدكتور بشير السوداني ، ومعه الطبيب
الآخر ، الذي كان واضحاً ، من لهجته وكلامه أنه سعودي . أخذ الدكتور بشير
الورقة من المريضة ، وتحدث بلغة إنجليزية مع الطبيب الآخر ، وصارا
يستعرضان المعلومات التي دونتها المريضة . طلب الدكتور بشير من المريضة أن
تكشف عن بطن المريضة . تمسكت أم عائشة بالشرشف ، لكن زوجها نظر
إليها بعتاب .. وخاطبها بصوت خافت :

- مها .. !

طرفت عيناها من خلف النقاب ، ثم أرخت قبضتي كفيها عن الغطاء ..
وتنهدت بعمق . في الوقت نفسه ، انحنت عائشة ووشوشت في أذن أمها
بكلمات غير مسموعة ، أطلقت بعدها الشرشف ، وتركت المريضة تقوم
بواجبها .

وضع الدكتور بشير السماعة على الجزء الظاهر من بطنها ، وتحدث مع الطبيب الآخر ، الذي تناول منه السماعة ووضعها في أذنيه . أصغى لبضع ثواني ، ثم التفت إلى الدكتور بشير ، وهز رأسه موافقاً ، وعلق بعبارة واحدة . كان الحوار باللغة الإنجليزية ، فلم يفهموا شيئاً مما دار بينهما . التفت الدكتور بشير إلى والد عائشة ، أبي أحمد وقال :

- زوجتك لديها حالة ولادة مبكرة ، وسنكتب لها إذن تنويم . الدكتور فيصل هو استشاري النساء والولادة .. سيتولى إكمال الإجراءات .. والإشراف على الولادة .

تبادل أبو أحمد نظرات سريعة مع زوجته ، التي فاجأها الخبر ، وكان خلاف ما توقعته .. فظهر الهلع في عينيها ، وأخذت تجمع الشرشف حولها بعصبية ، وتردد : لا .. لا . كان الدكتور بشير على وشك أن يخرج ، قبل أن يستوقفه زوجها ، ويقول له :

- لكني يا دكتور ذكرت لك ، أن زوجتي لديها مشكلة ، ولا تريد إلا دكتورة لتقوم بتوليدها .

- والله يا أستاذنا ، هذا ليس من اختصاص الطوارئ .. كلم الدكتور فيصل .. هو المسؤول .

غادر الدكتور بشير ، فالتفت أبو أحمد إلى الدكتور فيصل ، الذي كان يرتب إجراءات التنويم مع المريضة ، وسمع الحديث الذي دار بينه وبين الدكتور بشير .. فقال :

- دكتور فيصل ، لو سمحت ..

قبل أن يكمل كلامه ، فاجأه الدكتور فيصل ، دون أن ينظر إليه ، وهو ما زال منشغلاً مع المريضة .. برد جاف ، وتقاطيع جامدة :

- الإجراءات تتم حسب المتوفر ..

- الدكتور بشير ، قال لي قبل وصولك بدقائق ، إن فيه طبيبة .. دكتورة .

انفعل الدكتور فيصل ، ورد بعصبية :

- يعني أنا كذاب ..؟!!

- أنا ما قلت كذا ..!

واصل الدكتور فيصل انفعاله ، وبوتيرة أعلى :

- قلت .. أو ما قلت ، أزعجتونا . كل واحد يجيء لي .. أبغى دكتورة تولد زوجتي . إيش الأوامر هذي ؟ صلحوا لكم مستشفيات بمزاجكم . عاجبك نظامنا ، أو خذ زوجتك وتوكل على الله .. الباب يوسع جمل ..!

ثم ختم رده الحاد ، بعبارة خافته ، حاول أن تكون غير واضحة :

- ناس متخلفة .. !

لكن يبدو أن أذن أبو أحمد ، قد التقطت الكلمة :

- يا دكتور .. هذا مستشفى حكومي ، ومن حق المواطن أن يلقي احتراماً ،
وخدمة صحيحة . التخلف .. ليس التزام الإنسان بما يؤمن به ، بل معاملة
الناس بهذه الطريقة .

اندفع الدكتور فيصل خارجاً من غرفة الفحص ، بعد أن أكمل بلغة غاضبة ،
توجيه تعليماته للممرضة . لم تفلح في إيقافه .. عبارة : " أرجوك يا دكتور " ،
التي ظل أبو أحمد يرددها .. أملاً في أن يستمع إليهم ، ويتفهم ظروف
زوجته ، ووضعها النفسي . أراد أن يشرح له ، أنها ليست مسألة حلال أو
حرام فقط ، ما يجعل زوجته ترفض الأطباء الرجال .. وهو ما فهمه ، من
وصفه لهم بالتخلف .. بل بسبب حالتها النفسية . كان واضحاً أن موقفه
قطعي ونهائي ، لأن الممرضة ، بعد انصرافه ، جاءت وأكدت لهم ، أن الدكتور
فيصل ، طلب منها أخذ توقيعه وإقراره ، على أن من سيتولى توليد زوجته
طبيب رجل ، وليس طبيبة .

ما هي نظارتك المفضلة؟



أضغط هنا للدخول للموقع

للرجال

للنساء

مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمشي تشكيلة واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالمية والمحلية بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي عملاءه تجربة تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العالمية وعرض المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء من أعلى المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج العربي ولبنان و خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما

توصيل مجاني لباب بيتك

تخفيضات كبيرة وعروض

مميزة

وسائل دفع متعددة منها

الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14

يوم

% منتجات أصلية 100

نمشي

@THEBEST4YO



أراد أن يتبعه .. ليجادله ، لكنه فضل أن يبقى ليهدي زوجته ، التي أخذت تنتحب ، وفاض الدمع من عينيها ، حتى بلل معظم نقابها . منظر زوجته تتلوى من الألم ، وموقف الدكتور الحاد من طلبهم ، جعله يشتعل سُخْطاً وغضباً .. ولم يبق مجالاً للصبر ، فخرج ليلحق به . جال في قسم الطوارئ يبحث عنه ، وهو يردد بغيظ :

– أين دكتوركم المحترم ..؟

لم يجده .. وكذلك الدكتور بشير ، لم يكن موجوداً .. هو الآخر . بدأ يعلو جداله مع موظف الأمن ، الذي كان يطالبه بالهدوء .. أو سيضطر لاستدعاء الشرطة لإخراجه . زوجته وابنته كانتا تسمعانه من داخل غرفة الفحص . خشيتا عليه أن ينفعل ، فيقدم على تصرف غير محسوب :

– عائشة .. نادي على والدك بسرعة .

خرجت عائشة لتجد والدها في جدال محتدم مع رجل الأمن ، وبعض العاملين في قسم الطوارئ . نادى عليه ، وأخبرته أن أمها تريده . حين دخل على زوجته ، كان وجهه محتقناً ، عليه آثار الإجهاد والغضب ، من النقاش الحاد ، والشعور بالإحباط . لم يطق الصبر على نظراتها الكسيفة ، ولا استطاع أن يديم النظر إلى وجهها الأبيض الغض ، الذي انقبض وعصرته آلام المخاض ،

وشحب .. فصار أصفر ، بعد أن امتص نضارته ، الإحساس بالعجز .. والمهانة ، من طريقة تعامل الدكتور فيصل معهم . قال لها .. كأنما يريد أن يعيد إليها ولنفسه ، كرامة مهانة ، وإنسانية مهدرة :

- حبيبتي مها ، لا يهملك الدكتور قليل الأدب هذا . الآن نطلع ، ونروح لمستشفى خاص ، وتولدك دكتورة . ثم التفت إلى ابنته .. ليؤكد ما عزم عليه :

- عائشة .. هاتي عربية . أنا سأساعد ماما على النزول من السرير .

اعتدلت زوجته في جلستها ، وأمسكت بيد ابنتها ، لتمنعها من الذهاب ، وقالت .. وهي تنظر إليه ، بعيون امتلأت حبا :

- لا يا ناصر .. الله يخليك لنا . المستشفيات الخاصة تكلف كثير ، وأنا ولادتي ، يحتمل أن تكون غير طبيعية . العمليات القيصرية غالية جداً .. يفرجها ربك إن شاء الله .

ثم أضافت ، بنغمة لا تخلو من خوف :

- تذكر جيراننا أم خالد .. كيف طردهم المستشفى الحكومي ، لعدم وجود أسرة .. لأن زوجها ، ليس من منسوبي ذلك القطاع ، وراحوا لمستشفى أهلي ، وكلفتهم الولادة أكثر من ١٠٠ ألف ريال .. ما قدروا يدفعونها ، فرفض المستشفى تسليمهم المولود ، إلا بعد شهر ، لما استلفوا .. ودفعوا لهم .

عائشة كانت ترقب المشهد . تتأمل صراع أمها مع الألم ، وصراعها مع نفسها ..
بين رفضها أن تذهب إلى مستشفى خاص ، سوف يكلفهم فوق ما يطيقون ،
وبين قبولها بأن يتولى عملية توليدها رجل ، وهو أمر فوق أن تحتمله . نعمة
اليأس العميق ، بدت واضحة جداً ، وهي تعترض على اقتراح زوجها .
جملتها الأخيرة : " يفرجها ربك " ، خرجت خافتة متقطعة ، وعبرت
عن حقيقة شعورها العميق ، بالأسى والمرارة ، رغم أن ظاهر كلامها خلاف
ذلك . حين أنهت عبارتها هذه ، أسبلت جفنيها ، ثم انزلت على وسادتها ،
فغاص رأسها في الوسادة ، وهبط صدرها ، بعد أن زفرت نفساً عميقاً . بدا
المشهد ، بين انغماس رأسها في الوسادة ، وهبوط صدرها .. وكأنها تهوي إلى
قاع .

ألم عائشة تضاعف ، وهي تشاهد والدها تقسمه الحيرة ، بين ما آلت إليه
حال أمها ، بسبب موقف الدكتور فيصل ، وبين رغبته في أن يساعدها ،
للخروج من هذا الوضع ، بنقلها إلى مستشفى خاص ، رغم ضعف إمكاناته
المادية . انتبهت إلى أن حيرته تضاعفت ، بعد رواية أمها لقصة أم خالد .
تسترجع المشهد لبضع دقائق مضت ، حين كان والدها ، يشرق وجهه بالأمل
، وتكسو محيّاها علامات الارتياح ، لوجود طبيب سعودي . تلحظ الآن ، شعوراً
بالمرارة ، يجعله يوالي ارتشاف الماء ، من زجاجة مياه صحية لم تفارق يده ،

منذ أن تجادل مع العاملين في قسم الطوارئ ، حول موقف الدكتور فيصل .
سمعتة يردد في جداله معهم : " تصوّروا .. يصفنا بالتخلف ، لأن زوجتي
امرأة تستحي ، وتراقب ربها ، ولا تريد أن يقوم بتوليدها .. إلا طبيبة . هل
يعقل أن يكون هذا الدكتور وأمثاله ، من نفس مجتمعنا ، ويدينون بدينه ..؟ " .
أحست أن صدمتها من تعامل الطبيب ، وخيبة أمل والدها به ، أشد أذى على
نفسها ، مما اعترى والدتها من انزعاج ، لعدم وجود طبيبة تتولى توليدها .
هذا الموقف ليس الأول ، الذي يصدّمها فيه تعامل بعض السعوديين . العام
الماضي ، روت لها زوجة خالها ، التي كانت عائدة من رحلة خارجية ، موقف
راكب سعودي ، رفض أن يتنازل لهم عن مكانه ، ليلتئم شمل الأسرة ، وتبرع
بذلك شخص هندي . تتذكر أن زوجة خالها ، قالت بسخرية ، تعليقا على
ذلك الموقف : " لا .. وبعد ، لابس قميص (تي شيرت) ، كاتب عليه :
ارفع رأسك .. أنت سعودي . على ويش ..؟ على زين الطبايع ..! " .
ابتسمت في سرها ، إذ صادف تعليق زوجة خالها ، قناعة داخلية لديها ، بأن
هذا الشعار ، ينطوي على إحساس مزيف بالتفوق .. ولا يخلو من نبرة عنصرية
، تكرّس فوقية فارغة .

استغرقت في التفكير ، تتأمل والديها الموزعين بين عناءين : الرهاب النفسي
لوالدتها من الأطباء الذكور ، وعجز والدها عن تحقيق رغبة أمها . مادياً ..

بسبب ضيق ذات اليد ، ومعنوياً بسبب صلف الدكتور وعجرفته . عادت بها
الذاكرة إلى سنوات مضت ، إلى حلم صغير لابنة التاسعة . أمنية طفلة باحت
بها .. في لحظة براءة ، لأم اشتكت إلى ربها .. في خلوتها ، عجزها ، وقلة
حيلتها . كادت أن تفلت منها ابـتسامة ، في أجواء الأسي هذه ،
حين تذكرت قولتها القديمة لأمها : " ماما .. لما أكبر أصير دكتورة ،
وأكشف عليك " . أحست أن هذه الأمنية ، صارت أكثر إلحاحاً .. الآن ، لتكون
حقيقة . شريط الذكريات انقطع فجأة ، على صوت ممرضة تزيح ستارة غرفة
الفحص ، وهي تدفع سريراً بعجلات .. وتقول :

– " يا الله ماما ، نروح القسم ، فيه تنويم " .

تناظروا فيما بينهم . الأب لزم الصمت ، أما عائشة فاصطنعت ابتسامة ،
لتشجع والدتها على النهوض ، وصارت تهز رأسها ، وتشير إلى السرير الذي
تمسك به الممرضة . أدركت والدة عائشة أن صمت زوجها ، ينطوي على موافقة
ضمنية على رأي ابنتها .. بالاستجابة للممرضة . أصلحت من ملابسها ،
ونهدت واستقرت على السرير .

دفعت الممرضة السرير باتجاه باب خشبي من درفتين ، لونه أزرق فاتح ،
بمستطيل زجاجي .. يمتد عمودياً وسط كل درفة . من خلال الزجاج ، يبدو
ممرطويل ، يلمع بلاط أرضيته البلاستيكية ، من شدة النظافة . حين انطبقت

درفتا الباب ، لحظة تجاوزوه .. اختنقت الأصوات ، التي كانت تملأ قسم الطوارئ ، فخيّم الهدوء ، إلاّ من وقع أقدام ، لرجل يسرع الخطو ، في آخر الممر .

نحيب أم أحمد المتقطع ، صار هو الأعلى ، مع ابتعاد وقع خطوات الرجل . صار صوتها كذلك ، يرتفع احتجاجاً ، فيدوي في المكان .. معترضة على زهابها لقسم الولادة . الممرضة التي يبدو أنها قد تأثرت بحالتها النفسية ، وشاهدت انفعال الدكتور فيصل في حديثه معهم ، أشفقت عليها ، وسعت لتهدئتها ..
بعبارات من نوع : " ماما .. ليش فيه خوف .. كله بسيط ، هذا فيه بنج ، ما فيه ألم . إن شاء الله .. الله يخلي ولادة طبيعي " .

كانت الممرضة ، أثناء حديثها مع أم أحمد ، تربّت على كتفها بهدوء ، أو تضع كفها على جبينها . حديثها اللطيف ، ولمساتها الحانية ، جذبت انتباه عائشة ، فاختلست نظرة إلى بطاقتها الشخصية ، المعلقة على صدر معطفها . استطاعت أن تلتقط اسمها الأول : روزماري . أثار الاسم فضولها :

- (سستر) .. أنت من أندونيسيا ..؟

ردّت بابتسامة :

- " لا ... أنا فلبين " .

فاجأها الرد . كأنما كانت تتمنى أن تكون من أندونيسيا ، رغم أن ملامحها ،
واسمها لا يدلان على ذلك . في ذهنها .. ارتبطت اندونيسيا بالإسلام ، والفلبين
بالمسيحية . همست لنفسها : " من الفلبين .. ليست مسلمة ، تعاملها طيب
، يا الله .. خسارة " .

أبقت في نفسها أملاً .. أن تكون من مسلمي الفلبين ، لكنها استحت أن تسألها
عن دينها ، وأحست بحاجز نفسي ، انتصب بينهما ، يمنعها من استمرار
التواصل معها .. حين داخلها شك بأنها مسيحية . لا تدري لماذا ينتابها مثل
هذا الشعور .. مع غير المسلمين ، رغم أنها ، ليست المرة الأولى ، التي تقابل
فيها شخصاً غير مسلم ، بأخلاق حسنة . كما أنها .. تصادف حالات كثيرة ،
لا يكون تعامل المسلمين فيها جيداً . هذا الوضع ، سبب لها إرباكاً ، وشعوراً
بالإحباط . إنها حاجتنا أن ننسجم مع إيماننا وقناعاتنا ، وأن ننفر من التناقض
: أليس التعامل الحسن ، خلقاً إسلامياً ؟ .

كانت سارحة ، تقلب في ذهنها معنى اسمها : (روزماري) .. وتود لو سألتها
ماذا يعني . ربما يفصح ذلك عن دينها .. الذي ما زالت في شك منه ،
وقد يفسر لها .. كما تعتقد ، علاقة ذلك بسلوكها اللطيف .. دون أن تتعرض
لحرج السؤال المباشر . عزت نفسها بخاطر آخر : " حتى لو لم تكن مسلمة ..
تعاملها طيب " . قطعت عليها الممرضة أفكارها ، حين بادرتها :

- " ليه ماما .. فيه خوف من ولادة " ..؟

- " لا .. ماما ما فيه خوف . ماما ما تبغى دكتور رجال يسوي ولادة " .

فتحت عينيها بدهشة .. وقالت :

- " بس ..! ما فيه مشكلة ، أنا أكلم دكتورة " .

كانوا عند مدخل قسم الولادة .. ووضع أم أحمد النفسي قد ازداد سوءاً ، حين طلبت منهم الانتظار ، لتتولى بحث الأمر . عائشة ووالدها التزما الصمت ، لكن والدتها ، صارت تلهج بالدعاء لها بالجنة ..! سحبت الممرضة الملف ، المعلق بذراع السرير المعدني ، وأسرعت إلى مكتب رئيسة جهاز التمريض .

أبو أحمد علق مازحاً .. ليخفف عنها ، ويضفي جواً من المرح :

- تدعين لها من قلب .. يا أم أحمد ، تراها مسيحية .. كأنك تغيرت ..!

لم ترد .. لكنه أضاف باسمًا :

- أيّام إعصار (كاترينا) ، لما كنت تدعين على الأمريكان ، بالموت والغرق ، كنت لما أقول لك : مساكين .. ما لهم علاقة بـ (بوش) وحكومته الملاعين ، قلت لي : خلهم .. كفار ، يستاهلون ..!

- الأمريكيان يكرهوننا .. أنت ناسي إني ما دعيت عليهم ، لأنهم كفار ، لكن
لأنهم يسجنون الشباب السعوديين في غوانتانامو .. ويقتلونهم ، ثم يقولون
إنهم انتحروا .. وبعدين المرضة هذي طيبة .. ما علي منها ، دينها لها ، أنا
يهمني التعامل الطيب !

استمر في مشاكستها ، بأسلوب ، لا يخلو من الدعابة والاستفزاز :

- ما شاء الله .. هذا شيء جديد .. !

- لا .. أنا سمعت الشيخ في صلاة التراويح .. في رمضان ، يقول إن الإسلام يأمر
بالإحسان ، والتعامل الطيب مع الكفار ، الذين لا يأتي منهم ضرر أو أذى .

- الله يجعلها سبب خير ..

أقبلت المرضة تحمل الملف معها . كانت تمشي بسكينة ، دون انفعالات
ظاهرة على وجهها . حين اقتربت ، قالت بهدوء .. وهي تعيد الملف إلى
مكانه ..

- " خلاص ماما .. ما فيه دكتور رجّال ، دكتورة ميمونة يسوي ولادة " .

صرخت أم أحمد من المفاجأة ، وصارت تردد : " يا بعد عمري ، يا بعد عمري
" ، ثم التفتت إلى ابنتها :

- إيش اسمها يا (عيوش) ..؟

- روزماري ..

- يا بعد عمري يا روز ..

ابتسمت المريضة ، وهي تدفع السرير إلى داخل القسم .. من رد فعلها الشديد . كانت تراقب أم أحمد ، وقد تحول وجهها من قطعة أسى مغموسة بالدمع ، إلى مساحة من البهجة . يتطاير الفرح من كل قسماته ، وتومض في وسطه ابتسامة ، افتر عنها ثغرها المرصع بثناياها البيض .. المتراسة بانتظام . أدركت أن هذه الفرحة الكبيرة ، كانت بسبب ما قامت به ، من أجل أن تتولى توليدها طبيبة . لم تزد على أن ابتسمت ابتسامة خفيفة ، ورمقتها بنظرة رضا ، ثم طلبت من زوجها أبي أحمد ، أن يبقى في غرفة انتظار جانبية ، لأنه ليس مسموحاً للرجال ، من غير العاملين ، بتجاوز هذه المنطقة .

فرحة أم أحمد ، بما فعلته المريضة من أجلها ، لم تقف عند حدود الدعاء لها ، والتعبير عن شكرها العميق ، لما قامت به .. أو حتى القبلة العنيفة ، التي طبعتها على خدها . ثمة امتنان يتوارى في اللاوعي ، ترغب في ترجمته إلى سلوك واعٍ .. قالت لعائشة :

- اسألها .. عن معنى اسمها . إن الله رزقني بنية ، لأسميها عليها .

ضحكت عائشة ، ونقلت للممرضة ، التي كانت تجهز سرير التنويم .. ما

تقوله أمها . ابتسمت الممرضة ابتسامة عريضة وقالت ببهجة واضحة :

- " روزماري .. أووه هذا (كريستيان نيم) .. !

لم تكن لغة عائشة الإنجليزية .. تسعفها ، لتفهم ماذا تقصد ، وكانت على

وشك أن تسألها توضيحاً لكلامها ، عندما دخلت امرأة منقبة ، ترتدي معطفاً

أبيضاً . فهمت عائشة ووالدتها ، من مخاطبة الممرضة لها بالدكتورة ، أنها قد

تكون طبيبة من قسم الولادة . عرفت بنفسها :

- أنا الدكتورة ميمونة .. مناوبة الليلة في قسم الولادة .. أنت ستكونين

مريضتي وتحت متابعتي .

- يعني أنت التي ستولدينني يا دكتورة ..؟

- نعم .. الدكتور عبد العزيز ، كبير الأطباء ، كان في الطوارئ ، وأتصل بي

، وطلب مني أن تكوني مريضتي .. كأنه ألمح إلى وجود مشكلة .

خجلت أن تتحدث عن حالتها .. ولم ترد . نظرت عائشة إلى أمها ، تستأذنها

بالكلام :

- أمي يا دكتورة ، عندها مشكلة مع الأطباء الرجال . حالتها النفسية تسوء ،
إذا كشف عليها طبيب . كانت على وشك أن تنهار ، لما رفض طبيب في الطوارئ
اسمه فيصل ، أن تتولى توليدها دكتورة ، وقال ما فيه طبيبات ..

- حصل خير . المريضة روز شرحت حالتها لرئيسة الممرضات في القسم ، وهي
بدورها اتصلت على الطوارئ ، وصادف وجود كبير الأطباء ، مع الدكتور بشير
، وتم تكليفي بمتابعة حالتها .

قاطعت الأم ، وسألت بلهفة :

- يعني أكيد يا دكتورة .. دكتور فيصل هذا ما له علاقة ..؟

- الدكتور عبد العزيز ، كبير الأطباء ، هو صاحب القرار .. وهو إنسان رائع ،
ومن خيرة الأطباء السعوديين .. ويتفهم مثل هذه الحالات .

أخبرتهم الطبيبة أن دلالات الفحص الأولى ، تشير إلى أن الولادة لن تكون
طبيعية ، وأنها قد تحتاج إلى عملية قيصرية ، خاصة وأن الأشعة فوق الصوتية
تبين ، ولكن بشكل غير مؤكد ، أنها قد تكون حاملاً بتوأم . ثم أضافت ،
موجهة الحديث لعائشة :

- قد تتأخر ولادتها عدة ساعات .. ستكون تحت المراقبة ، ولن تكون
بحاجة لمرافق . خذي من المريضة رقم هاتف القسم ، ورقم التحويلة .. واتصلوا

في الصباح للاطمئنان ، وعندما يحين موعد الزيارة بعد الظهر ، تستطيعون الحضور .

عادت عائشة ووالدها إلى البيت . حينما رجعت الظهر من المدرسة ، كان الخبر السار بانتظارها . في غرفتها وجدت على وسادتها رسالة من والدها : ورقة بيضاء ، رسم عليها شكلاً لوجه يبتسم ، وتحتة كتب هذه العبارة : " انضم اليوم عضوان إلى (قبيلتنا) " . فهتمت الرسالة : أمها ولدت توأم . هذه واحدة من دعابات والدها ، الذي قال مرّة ، لما ذهبوا إلى أحد المطاعم ، ولم يجدوا مقاعد كافية لجميع أفراد العائلة .. أنه في المستقبل ، سوف يفتح مطعماً ، ويغير قسم العائلات ، إلى قسم (القبائل) .

لم تسعها الفرحة . أخذت تقفز ، وتدور حول نفسها .. وتدندن . اتجهت إلى الهاتف ، واتصلت بالمستشفى . جاءها الرد ، فطلبت التحويلة .. ثم تتابع الرنين عدة مرات ، دون إجابة . كررت الاتصال أكثر من مرّة ، وفي المرّة الرابعة ، سمعت صوتاً مختلفاً على الطرف الآخر .. سألت :

- ممكن أكلم أم أحمد ..؟

- فيه واحدة في السرير الثاني .. اسمها مها ، هل هي التي تقصدين ..؟

- نعم ..

- نائمة .. !

أغلقت الخط ، واستبد بها قلق . أخذت تحدث نفسها .. مترددة : هل تتصل
بوالدها ، أو تنتظر وصوله ؟ لا تدري هل هو الخوف على أمها ، أم الفضول ..
هو ما يلح عليها بالاتصال . لم يطل تردها ، فالتقطت جوالها واتصلت .
فوجدت بأنه مغلق . نظرت إلى ساعتها ، وقالت .. وهي تهز رأسها : " وقت
الصلاة " . اعتاد والدها أن يغلق جواله ، وقت الصلاة . رأت أن تنتهزها
فرصة ، لتغير ملابس المدرسة ، وتصلي .. ثم تعاود الاتصال بوالدها . سيكون
وقتها ، قد فرغ من الصلاة ، وأعاد فتح جواله . كانت قد انتهت من صلاتها ،
حين دق جوالها بنغمة مميزة . همست في سرها : " هذا البابا " .. ردت
مازحة :

- أهلاً بشيخ (القبيلة) .. !

- يا لعابة ..

قالها وهو يغالب الضحك .

واصلت معابثتها له :

- كيف حال حرمكم المصون .. أيها الأمير ؟

- أنا في الطريق . سوف نتناول غداءنا ونذهب . كلمتُ والدتكُ الصباح ..

ولادتها قيصرية ، وهي طيبة ، لكنها في ورطة ..!

ردت بوجل :

- بسم الله عليها .. عسى ما شر!؟

- أبداً .. صحتها جيدة ، لكنها متورطة .. بالعهد الذي قطعته على نفسها .

- أي عهد ..؟

- بأن تسمي واحدة من البنيتين ، على الممرضة روز ماري ..

- يعني التوأم بنتين ..؟ دم .. دم يلالى ..!

جالت في البيت ، على إخوانها وأخواتها ، تغني وتهزج ، تبشرهم بولادة

أمها لتوأم :

- ولدت أمي بنتين جميلتين .. مثل القمر .

اتصلت بخالاتها وعماتها وبناتهن ، وأرسلت رسائل جوال لعدد من الصديقات

. خلال ربع ساعة ، كان الخبر قد انتشر ، مثل نور القمر ، على حد تعبيرها

.. بين دائرة كبيرة ، من الأقارب والأصدقاء . حين وصل الأب ، تناولوا غداءهم

بسرعة ، ثم انطلقوا إلى المستشفى ، يرافقهم الابن الأكبر أحمد .. الذي يصغرها

بما يزيد قليلاً .. عن العام . تداولت هي وأحمد في السيارة ، أثناء الطريق ..
أسماء كثيرة . في الأخير علق والدهما : - اختاروا اسماً واحداً فقط . والدتكم
جادة في تسمية واحدة من البنات ، على الممرضة .

وصلوا المستشفى قبل بداية موعد الزيارة بخمس دقائق . مسؤول الأمن كان واقفاً
بالباب ، يمنع الدخول قبل بدء الموعد تماماً . رفض قطعياً طلب والدها ،
استجابة لتوسلاتها .. بأن يسمح لهم بالدخول ، وكان حازماً :
- النظام يا الطيب .. ما فيه دخول قبل الموعد .

كانوا في مقدمة الزوار المنتظرين ، عند باب المستشفى ، ولحظة فتح رجل الأمن
الباب ، وضعت علبة الشوكلاته في يد أحمد .. شقيقها ، واندفعت مثل
السهم ، إلى الداخل . تبسم والدها ، وهو يراها تهوول نحو المصعد ، وكنتم
ضحكة ، وهو يسمع تعليق شقيقها : " بابا .. أوقف المهبولة هذي " .

في الغرفة .. التفوا حول سرير الوالدة ، وكان التوأم في حاضنة إلى جانبها .
الدعوات بالسلامة ، والتغزل بحلاوة البننتين وجمالهما .. والتعبير عن الدهشة
بقدوم التوأم ، اختلط بأصوات أخرى ، داخل الغرفة . كانوا أول الواصلين إلى
قسم الولادة .. الأطباء والطبيبات لم ينهوا بعد ، جولتهم الإعتيادية على
مرضاهم . عائشة كانت الأكثر انفعالاً بالحدث . أخذت تحاول أن تخرج إحدى

البننتين ، لتحملها بين يديها ، ووالدتها تصرخ عليها .. لتمنعها ، وتؤكد أن التعليمات تمنع إخراجهما من الحاضنة . في هذه اللحظة انزاحت الستارة ، التي تفصل بين أسرّة المريضات ، ودخلت الطبيبة . ألقى السلام ، وقالت :
- الحمد لله .. العملية كانت سهلة يا أم أحمد ، والبنات حالتهم ممتازة ..
ومثل الأقمار ، ما شاء الله .. تبارك الله .

ردّت أم أحمد .. ووهج ابتسامة يكسو وجهها :

- جزاك الله خيراً يا دكتورة ميمونة .. جهدك ودورك ما ينكر .

- أبداً .. لم أقم إلا بالواجب . بالمناسبة .. هل سمّيتوا الحلوات ..؟

تبادلوا النظرات .. ثم قالت أم أحمد ، وقد برقت عيناها :

- واحدة منهن .. خلاص ، اتفقنا نسميها ميمونة ..

قالتها .. والتفتت إلى الجانب الآخر من السرير ، حيث يصطف زوجها وأولادها .. وغمزت لهم بعينها . لمعت عينا الطبيبة بالسرور من خلف نقابها .. وقالت بامتنان :

- والله .. ؟ هذا شرف كبير لي ..!

عائشة التقطت طرف الحديث ، وقالت :

- اسمك محل اتفاق يا دكتورة .. لكن الوالدة ، تريد أن تسمي البنت الثانية على الممرضة روز ، لكنها محرجة ، لأن الاسم غير عربي .. وغريب .
وأذكر إنني لما سألت الممرضة عنه ، قالت إنه " كريستيان نيم " .. ولم أفهم قصدها ..!

- أووه .. قصدك الممرضة روز ماري . صحيح اسمها مسيحي .

نظرت أم أحمد إلى زوجها ، الذي كان قد رفع حاجبيه بتعجب .. كأنما يريد أن يوصل لها رسالة . فهمت حركة وجهه : الاسم ليس أجنبياً فقط ، بل له دلالات غير إسلامية .. كذلك . بدت على وجهها آثار الخيبة ، ولم تعلق .
عائشة بادرت ، لكي تنقذ الموقف .. فسألت الطبيبة ، إن كانت تقترح اسماً آخر . الطبيبة .. التي رأت الإحباط في وجه الأم ، وأدركت رغبتها في التعبير عن امتنانها للممرضة . إضافة إلى إحساسها العميق هي شخصياً ، بالعرفان لها ، بتسميتها إحدى بناتها عليها .. أرادت أن تتخذ موقفاً مسانداً لرغبتها ..
فقالت :

- هناك حل وسط ، تتحقق من خلاله رغبة أم أحمد . نأخذ نصف اسم الممرضة روز-ماري ، وتسمون البنت مارية ، تيمناً باسم زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، مارية القبطية .

وقع الاقتراح في نفوسهم جميعاً ، موقعاً حسناً ، ظهر على أسارير وجوههم ،
التي انفرجت ، وعبرت أم أحمد عن ذلك ، بشعور تلقائي :

– والله إنك يا دكتورة وجه خير .. وميمونة على اسمك ..

خرجت الدكتورة ، بعد أن أملت عليها عدداً من التعليمات ، بخصوص حالتها
الصحية . أكدت على وجوب الالتزام ببرنامج دوائي ، لعلاج التهاب بكتيري ،
أظهر الفحص المخبري وجوده ، في عنق الرحم .. ثم قالت في ختام حديثها :

– الالتزام بأخذ الدواء ، كما هو محدد .. مهم . الإهمال قد يؤثر في قدرتك على
الإنجاب .. وبالمناسبة ، ممنوع الحمل ، قبل □ سنوات .. على الأقل ، لأن
ولادتك قيصرية .

بعد أن أنهت حديثها ، مالت عليها عائشة ، وهمست في أذنها . فتناولت القلم
من جيب معطفها ، وانتزعت ورقة من دفتر الوصفات الدوائية ، وكتبت فيها
، ثم أعطتها إياها . عندما خرجت ، وأغلقت الستارة خلفها ، التفتت عائشة
إلى والدتها مبتسمة ، دون أن تفصح عن الذي دار بينها وبين الطبيبة .. وقالت
:

– ولا يهملك .. إذا حملت بعد □ سنوات ، أكون قرّبت أخرج من كلية الطب .
وقتها .. أنا سأشرف على الولادة .

ابتسم أبو أحمد وأم أحمد . أما أحمد ، الذي اعتاد على مناكفة أخته ، فقد عبر عن سخريته ، بطريقته الخاصة ، حين أخرج لسانه ، وقال : " بالمشمش " .
لم يعجب أم أحمد تعليق أحمد على كلام شقيقته .. فقالت :
- إذا كانت تريد أن تكون مثل الدكتورة ميمونة .. أنعم وأكرم .

انطلقت بعدها أم أحمد ، تثني على الدكتورة ميمونة ، وعلى التزامها وأخلاقها . وصفت بكثير من الإعجاب ، كيف أن الفريق الذي كان معها في غرفة العمليات ، كله من النساء ، بما في ذلك طبيبة التخدير . حديث أم أحمد عن الدكتورة ميمونة ، والفريق النسائي العامل معها ، يمثل تحولاً كبيراً في موقفها . بقدر ما كان يعذبها ، اضطرارها إلى اللجوء إلى أطباء رجال للفحص أو العلاج ، كانت تنفر كثيراً من فكرة شائعة ، عمّا يدور في المستشفيات من اختلاط ، بين الرجال والنساء ، من أفراد الطاقم الطبي .. يتجاوز حدود الحاجة ، إلى ما تسميه إحدى صديقاتها : " قلة الحياء " .

لم تكن عائشة تحتاج أكثر من ثناء أمها على الدكتورة ميمونة ، لتزداد إعجاباً بها ، ويزيد تعلقها بشخصيتها . كلام أمها ، حمل أيضاً ، موافقة ضمنية على دور للمرأة ، كانت ترفضه ، وتتوجس منه ، بل وتعتبره كذلك معيباً .. وتدعو الله أن يحفظها منه . لا تذكر كم من المرّات ، قالت أمها : " بسم الله عليك " ،

حينما تفصح عن أمنيتها بأن تكون طبيبة . جاء كلام أمها عن الدكتورة
ميمونة ، ليعزز الحلم الأمنية ، ويمنحه دافعاً و شرعية .

عام مضى . البناتان التوأم كبرتتا ، وأصبحتا قمرين حقيقيين . ليس جمالهما
ورقتهما ، هو ما يجعلهما موضوعاً لحديث أهل البيت المستمر .. بل اسماهما
أيضاً . اسم مارية ، ما يفتأ يذكر الأم ، بمعاناتها مع الأطباء الرجال ، وبتلك
الليلة بالذات ، وذلك القدر الجميل ، الذي ساق الممرضة روزماري لتتدخل ،
وتضع نهاية سعيدة ، لليلة امتلأت بالعناء . أبو أحمد ، يتأمل طفليته ،
ويتذكر بمرارة الدكتور فيصل ، وخيبته في طبيب سعودي ، توقع أن يكون
أكثر تفهماً من غيره . ما زال غير مدرك ، لماذا تقف بعض النخب ضد
أهلهم ومجتمعهم ..؟ أمّا عائشة فلها شأن آخر . لقد نجحت هذا العام من
الثانوية العامة بتقدير ممتاز ، وبمعدل فوق □□% . اسم أختها ميمونة .. التوأم
الأخرى ، أقرب إلى قلبها ، ولا يكاد يغادر ذهنها . ليس لسبب معين خاص
بها ، لكنها تستذكر بكثير من الأمل ، من خلال اسم أختها ، الدكتورة
ميمونة .. لتعزز حلمها وأمنيتها ، بأن تكون طبيبة . خاصة أن أمها تحمل
للطبيبة شعوراً ايجابياً ، وذكريات طيبة . قالت مداعبة والدتها ، بشيء من
المكر ..

- يعني يا ماما ، أنت ما تذكرك أختي مارية ، إلا بالمرضة روز ..؟ طيب

ميمونة .. ما تذكرك بالدكتورة ميمونة .. أو مالها فضل ..؟

- يا حبي لها الدكتورة ميمونة .. الله يكثر من أمثالها ..

- أنت جادة يا ماما .. ودك إن الله يكثر من أمثالها ..؟

نظرت الأم إلى ابنتها ، نظرة تعجب ، وشعرت أنها تخفي شيئاً ، وتهدف من

استئثارها بهذه الطريقة ، إلى الوصول إلى أمرٍ ما . وقفنها الغريبة زادت من

حيرتها . عائشة .. كانت تضع يدها خلف ظهرها ، ثم فاجأت أمها بإبراز ما

كانت تخفيه ، وقالت :

- حبيبتي ماما .. هذا إشعار نجاحي من الثانوية . نسبتني تؤهلني لدخول

كلية الطب . ما تبغيني أكون مثل الدكتورة ميمونة .. أحل مشكلتك ، ومشاكل

كثير من الأمهات أمثالك ..؟

لم تجد الأم ما ترد به على ابنتها ، سوى أن تقول لها ، أن الأمر بيد والدها .

ردت عائشة ، على اعتذار والدتها ، وربطه بقرار والدها وموافقته ، بأنها

هي ، وليس غيرها ، من يستطيع أن يقنعه ، إن كانت هي موافقة .. ومقتنعة

بالهدف ، الذي تسعى من أجله ، لتكون طبيبة . ردت والدتها :

- ما عندي مانع أكلم الوالد . صحيح أنا بعد التجربة الأخيرة .. وموقف
الدكتورة ميمونة ، صرت أقدر الحاجة ، لأهمية وجود طبيبة لعلاج النساء ،
خصوصاً من هم مثلي . لكنني .. أيضاً تهمني مصلحتك ومستقبلك ، وخائفة
عليك ..!

انشق ثغر عائشة عن ابتسامة عريضة ، فقذفت بإشعار النجاح من يدها ،
وقفزت في الهواء .. وهي تردد صيحات فرح .. ثم اتجهت إلى أمها وضمتها :
- يا عمري ، يا أحلى ماما . إن شاء الله إنني أكون عند حسن ظنكم . أنا قلت
لها ، إنك لن تخذليني .. ! لم تفهم والدتها قصدها ، لكن عائشة نظرت إلى
ساعتها ، ثم سارعت وأخرجت من جيبها ، ورقة وصفة دوائية ، مدون عليها
رقم . أخذت تتصل به .. وهي تقول بصوت مسموع : " إن شاء الله الوقت
مناسب " ..

- السلام عليكم .. دكتورة ميمونة ، كيف حالك ؟ أنا عائشة ، أخت التوأم
ميمونة ومارية .. عرفتييني ..؟

- وعليكم والسلام ، أهلاً .. أهلاً ، أكيد عرفتك ..

- أبشرك .. نجحت من الثانوية بمجموع مرتفع ، الحمد لله . الماما تسلم
عليك ، وتراها وافقت على تسجيلي في كلية الطب .

مدّت عائشة الجوّال لوالدتها ، التي أخذتها المفاجأة . الآن فقط .. فهمت قصة الحديث الهامس بين ابنتها والدكتورة ميمونة ، والكتابة على ورقة الوصفة الدوائية .. قبل عام ، حين مرت عليها الدكتورة بعد الولادة ، في غرفتها في المستشفى .. للاطمئنان عليها ، وإعطائها التعليمات . تحدثت مع الدكتورة ميمونة ، وكررت شكرها وامتنانها العميق لما قامت به تجاهها . اعتذرت عن ارتباكها ، لأن عائشة فاجأتها بهذا الاتصال ، الذي يبدو أنها كانت تخطط له منذ زمن .. وأختارت له ، لحظة حاسمة مثل هذه . تحدثت كذلك ، عن توأمها الجميل .. وكيف أن اسميهما زاداهما حلاوة ، ملمحة إلى اسم الدكتورة .

الدكتورة ميمونة شكرتها على تأييدها لرغبة ابنتها عائشة ، في دراسة الطب ، ووعدت أن تقف معها وتساندها ، أثناء دراستها في الكلية . تمننت أيضاً ، أن تزورها في المستشفى ، ومعها توأمها مارية وميمونة .. لتراها :

– لقد شوّقتني لرؤية سَمِيَّتِي ميمونة ، وتوأمها الأخرى .. الأمّورة مارية . أنا متأكدة أن روزماري ستفرح بهما كثيراً . بالمناسبة ، فهي ممتنة جداً ، لتسميتك مارية عليها ، وقد ترك ذلك انطباعاً جيداً لديها .

انتظمت عائشة في دراستها في كلية الطب . البيت كله صار يؤيدها ويساندها . أمها الراضة الخائفة ، خصصت لها غرفة خاصة في البيت . الوالد المتردد ، صار يطوف على المكتبات ، يوفر لها الكتب والمراجع . أما شقيقها أحمد ،

الذي كان كل ما تفعله وتحلم به أخته ، محل استهزاء وسخرية منه .. فقد أصبح مصدراً رئيساً ، لدعم لم تكن تتوقعه .

أحمد صار متابعاً منتظماً لمنتديات الإنترنت . لا يمر يوم أو يومان ، إلا ويزود عائشة بأوراق ، طبعها من بعض منتديات الانترنت ، بعضها يتكلم عن أهمية دعم عمل المرأة في القطاع الصحي ، لتخدم بنات جنسها ، وأخرى عن وجوب توفير بيئة مناسبة للطالبات في الكليات الطبية ، والعاملات في القطاع الصحي .. تمنع التحرشات والمضايقات ، التي قد تقع عليهن . أكثر ما لفت نظرها ، كتابات لصاحب معرّف ، في أحد منتديات الانترنت الشهيرة ، رمز لنفسه باسم " شهاب الإسلام " . كانت كتابات شهاب الإسلام ، تفيض حمية وحماساً ، في الدفاع عن حقوق المرأة ، بأن يتولى علاجها وتطبيبها ، امرأة مثلها ، وضرورة وجود بيئة عمل (نظيفة) في المستشفيات ، تؤدي المرأة العاملة فيها ، وظيفتها ورسالتها .

في سنتها الأولى في الكلية ، مثلت لها هذه الكتابات ، بالإضافة إلى ما تلقاه من دعم أهلها .. سنداً معنوياً غير عادي . خاصة .. وأن والديها تعرضا لانتقادات كثيرة من أقارب ومعارف ، لسماحهم لابنتهم بالدراسة في كلية (موبوءة) بالاختلاط ، كما يقولون . أو بتعبير إحدى قريباتهم : " ريحتها فايحة " .. !

جارتهم .. وهي امرأة متعلمة ، كثيراً ما تفخر بأن زوجها رجل الأعمال ،
يملك مركزاً طبياً ، كل العاملات فيه من النساء . قالت لوالدتها مرّة ، على
مسمع جمع من نساء ، كن مجتمعات عندها .. في إحدى المناسبات ، إن
آخر شيء كانت تتوقعه ، هو أن (تفرط) أم أحمد بأخلاق ابنتها
عائشة ، وتسمح لها بدخول كلية الطب . كاد كلام المرأة يصيبها بيأس . هل
هذا رأيها ، أم موقف سببه الغيرة ، لأنها قبلت في كلية الطب ، ولم تقبل
ابنتها . كانت تتوقع .. بحكم نشاط زوجها التجاري .. الذي له علاقة بطبيعة
دراسة الطب ، أن تكون أكثر إدراكاً من غيرها ، لحاجة المرأة ، لامرأة مثلها ،
تتولى علاجها . " قليل من الناس من يتخلى عن هواه وحظ نفسه ، ويتجرد
لذات المبدأ " .. همست لنفسها .

نجاح عائشة المميز ، في عاميها الأولين في الكلية ، رغم الصعوبات ، وتحقيقها
نتائج ممتازة في سنتها الثالثة .. عزز من موقفها ، وزاد ثقته بنفسها .
صارت الكلية ، خياراً لا رجعة عنه ، وحملات التثبيط ، وموجات الإحباط ..
أصبحت تاريخاً ، تتأمله بكثير من السخرية . ليس هذا فحسب ، بل غدت
جزءاً مهماً ، من نشاط تجمع طالبي ، يقوده عدد من الطالبات ، يسعى لدعم
استقلالية المرأة ، ضد سياسات تهدف لاستغلالها ، وتوظيفها في (أجنداث)
خاصة .. كما ذكرت مرّة ، في نقاش لها مع والدها .

لم تعد الكلية ، يوماً دراسياً طويلاً .. مملاً ومضنياً . على مائدة الأكل .. في نهاية الأسبوع ، صار مألوفاً ، أن تتوقف عائشة عن تناول طعامها ، وترد على اتصال هاتفي من زميلة ، وتكرر عبارات من نوع : نكافح ، نناضل ، ننتزع حقوقنا . لم تفهم والدتها ، ماذا تعني بالضبط ، حين سمعتها ذات مرة تقول ، في واحد من حواراتها على الهاتف ، مع صديقة لها من الكلية : " رأيت كيف بدا زميلنا التافه اليوم ، حينما تصرفنا معه بأسلوب ، أدرك من خلاله أن المرأة .. وطالبة الطب خصوصاً ، ليست (لحمًا معروضاً) .. يتذوقه بعينه أو بكلامه ..! " . كلامها كان مثيراً للاستفهام .. فاستفسرت منها . أخبرتها ، أن زميلاً لهن " استخف دمه " ، على حد تعبيرها .. فأوقفناه عند حدّه . كانت واثقة أن ابنتها تسير في الطريق الصحيح . همست في سرها : " أنا فرطت بأخلاق بنتي ..؟ يا حبي لك والله .. يا عيوش " .

اليوم شهدت الكلية موقفاً غير مألوف . عائشة وبعض زميلات دفعتها ، رفضن الكشف السريري على مرضى ذكور . كان الكشف يتطلب التعرض المباشر لبعض الأعضاء الحساسة . أستاذ المادة ، استهجن تصرفهن ، وندتهن بأوصاف ، تعبّر عن تشدد وضيق أفق .. وعدم (تقدير) العلم . بعد أن هدّدهن بحرمانهن ، من دخول امتحان المادة ، وتطبيق (النظام) عليهن ، على حد قوله .. قال :

- الكلية ليست حكومة طالبان .. ونحن ندرس طب ، وليس نواقض

الوضوء .. !

عبارته الاستفزازية ، لم تدفعهن لأي ردة فعل ، وتعاملن معها بصمت ، ولا
مبالاة .

لكنه .. عاد وأكد بشكل قاطع ، أنه جاد في تطبيق النظام ، ومعاقبة أي طالبة لا
تنفذ ما هو مطلوب منها . التهديد أثر في بعض الطالبات ، فتراجعن عن
رفضهن الامتثال لطلبه . عائشة وعدد من زميلاتهن بقين على موقفهن :

- دكتور .. نرجو أن تتفهم موقفنا ، ووجهة نظرنا . هذا الجزء من الدرس ،
سنكتفي بالجانب النظري منه .. !

- كلامي واضح .. ونهائي . لن تجتاز طالبة المادة ، إلا بأداء القسم العملي
منها ..

ردت عائشة بثقة :

- أعتقد أن في الجامعة نظاماً لامتحان ، يحدد الكيفية ، التي تجتاز فيها
الطالبة المادة ..

- من أنت .. ؟

- عائشة الصالح ..

حدق فيها ، بنظرة حادة ، وقال بلهجة لا تخلو من غضب ، وعبارة مألها
مقتاً وإزدراء :

- آه .. عرفتك ، أنت التي يسمونك زملاء " الملا عمر " .. !

لم تمر الحادثة بهدوء . أصبحت حديث مجتمع الجامعة ، وتداولتها بعض
البيوت . بعد أيام وصلت القصة .. وإسم عائشة ، إلى زميل قديم لوالدها .. جار
لهم . صلى معه العصر ، وبعد الصلاة همس له :

- لعله بلغك خبر الذي حصل في كلية الطب .. !

- نعم .. ابنتي حدثتنا ، بما صار ، بين بعض الطالبات والدكتور .. وقد ذكرت
أنها وزميلاتها ، قدمن شكوى لعميد الكلية ضد الدكتور ، الذي هددهن
بالحرمان ..

- لا .. يا أبا أحمد .. الأمر ليس بهذه البساطة . الطالبات اتهمن الدكتور
بالخروج على تعاليم الإسلام ، وقلن إن نظام الكلية كافر . نصيحتي لك أن
تنتبه لابنتك .

عاد أبو أحمد إلى البيت ، وروى لعائشة وأمها ، الذي دار بينه وبين صاحبه .
كان واضحاً أنّ ثمة هماً ، بدأ يتسلل إلى قلبه ، ولم تفلح التلقائية التي حاول أن
يتصنعها في حديثه ، في إخفاء ذلك . عائشة أرادت أن تهوّن الأمر ، ولم تخف
سخريتها من الشائعات ، التي ضخمت الحادثة ، فأوصلتها إلى هذا الحد .
الطبيعة القلقة لوالدتها ، جعلتها تنظر للموضوع من زاوية مختلفة :

– أنا قلبي يوجعني يا عائشة ، الموضوع يكبر ، والناس ما لهم إلا الظاهر .
المثل يقول : ” ابعء عن الشر وغني له ” .. !

صمت الأب ، فيما بقيت عائشة ، تجادل عن موقفها . أكدت أن الأمر لم يتعد
النقاش الذي روته بتفاصيله ، بين الدكتور والطالبات .. وأن أي شيء خلاف
ذلك ، هو من الإشاعات والأراجيف ، التي يروجها بعض الناس . أرادت أن
تضع تفسيراً علمياً لتضخم الشائعة ، فعزت ذلك إلى طبائع بعض الأشخاص
النفسية ، الذين يعيدون صياغة الأحداث ، بما يتفق مع رؤاهم ، ويوافق
طبائعهم . ذكّرت والدها بما كان يقوله عن صاحبه هذا ، من أنه ميّال لأن
يتبني الرأي الذي يبرر سلوكه الانسحابي ، ويقوم على تضخيم المواقف ،
بدافع الخوف ، لتبرير التنصل منها :

– ألم تقل يا أباي أن صاحبك هذا جبان ، وأنكم أيام الدراسة ، كنتم
تسمونه (الدجاجة) .. لشدة خوفه .. ؟

أخذت تشرح كيف أن طبيعة الرجل ، تفسر سلوكه . فالقصة وصلته مع بعض الإضافات . بيّنت .. أن كونه يعرفهم ، دفعه لأن يصنع له دوراً في الحدث ، يتناسب مع طبيعة شخصيته .. الجبانة ، التي لا تستطيع أن ترى نفسها في موقف (ضد) أي مؤسسة رسمية . في نظره .. كلية الطب مؤسسة حكومية ، والحكومة (دائماً) على حق .. ولا يمكن أن يصدر منها ما يخالف الدين ، أو يصادم الأعراف والتقاليد . أضفت .. أنه ثمة أمرٌ آخر . كل التجاذبات والصراعات ، التي يمر بها البلد ، تدور حول العلاقة بين التكفير والإرهاب . أفضل (سلاح) يمكن استخدامه الآن ، لإدانة الرأي الآخر .. المعارض على بعض السياسات الرسمية ، هو دمغه بالتشدد والتكفير ، ثم إدانته بالإرهاب :

– هذا كل ما في الأمر يا أبي .. ويا أمي ، وستسمعون كلاماً أكثر غرابة وشدوذاً من هذا .. من نوع أننا قلنا : يا ليت طالبان تحكمننا .. مثلاً ..! هل تصدقون ..؟ أنا لم أقل لكم هذا الجزء ، مما دار بيننا وبين الدكتور . لقد وصفني الدكتور بـ (الملا عمر) ..! ماذا يحصل لو أنني قلت للدكتور : أنت مثل نوال السعداوي ، أو شبهته بأحد العلمانيين المتطرفين ..؟

بدا التفسير مقنعاً ومنطقياً لوالد عائشة ، ولكن والدتها ظلت قلقة . انصبت نصائحها لعائشة ، بوجوب إيثار السلامة ، والإهتمام بدراساتها فقط :

- يا بنيّتي .. خليك في دراستك ، " لست وكيلة آدم على ذريته " . فيه خراب
وفساد في البلد ، كل الناس تعرف ذلك .. !

لكن .. " الموت مع الجماعة رحمة " .. !

لم ترق لها اللغة الانهزامية لوالدتها .. لكنها ظلت صامتة ، بانتظار تعليق
والدها . كان والدها يتأملها بنظرة عميقة ، حملت كثيراً من المعاني .. ليس من
بينها الخوف عليها ، أو وضع حدود لحرية تصرفها ، وسلوكها داخل الكلية .
كانت متأكدة من ذلك . في اللحظة التي أراد بها أن يتكلم ، استجابة لرجاءات
تتلاحق من عينيها ، دخل شقيقها أحمد ، يحمل رزمة من الأوراق :

- السلام عليكم .. كأن عندكم اجتماع خاص .. لا تكون عائشة مخطوبة .. ؟

قالها وهو يبتسم ، ويقلب الأوراق بين يديه . ثم أضاف ، وقد تاهب للجلوس
.. وهو يؤشر بالأوراق التي بيده :

- من قدها .. ! موقفها هي وزميلاتها في الكلية ، أصبح حديث منتديات

الانترنت .. أكيد سيكثرون خطابها .. !

لم تبتسم عائشة كعادتها ، على دعابات أحمد ، خاصة المتعلقة منها بالزواج .
التقطت الأوراق من على الطاولة ، حيث وضعها أحمد ، وصارت تستعرضها .

والدة أحمد ، أخذت زمام الحديث .. وقالت :

- قصة عائشة وزميلاتها ، وصلت الإنترنت .. هذا الذي كان ينقصنا .. !

- ليه يا أمي ..؟ لو أنا مكانك ، أفتخر بعائشة . الشباب في الانترنت اعتبروا

موقف البنات مشرف ، وأفيدك .. فيه أخبار من داخل الجامعة ، تؤكد أن

مدير الجامعة ، عد الذي قامت به عائشة وزميلاتها ، حقاً مشروعاً لهن .

- أكيد يا حبيبي .. أنت لم تصلك الأخبار الثانية . الناس يقولون ، إن البنات

يكفرون دكاترة الكلية ، ومنهج التدريس فيها .

- كلام فاضي يا أمي .

عائشة كانت تستعرض الأوراق ، وتفتح عينيها دهشة . صدمتها العناوين

المبالغ فيها ، التي تتصدر المقالات . صارت تردد : " ما هذا .. ما هذا ..؟ " .

أبوها الذي لاحظ انزعاجها .. سأل :

- ما الأمر يا عائشة ..؟

- اسمع يا أبي ماذا كتبوا في الانترنت : " حفيدات حفصة وعائشة والخنساء ،

يتحدین العلمانية في عقر دارها " ، " دكتور ليبرالي في كلية الطب ، يستهزئ

بحجاب المرأة المسلمة " ، " دكتور الطب العلماني ، يطلب من بنات المسلمين

العبث بأعضاء الرجال التناسلية " ، " كلية الطب أصبحت وكراً للرزيلة " ،

" أين الغيورون مما يحدث لبناتهم من انحلال ، باسم الطب ؟ " .

وجهها امتلاً أسفاً وأسىً وغيظاً ، وهي تستعرض الأوراق ، وتقرأ مقاطع مما جاء فيها . والدها لم يكن متأكداً من حقيقة موقفها .. مما تقرأ ، هل هي مع .. أو ضد ..؟ ظل نظره معلقاً بها ، بانتظار أن تفصح عن حقيقة شعورها . أخوها أحمد ، كان مزهواً . فسر تعليقاتها القصيرة على الموضوعات ، وتعابير وجهها ، بأنها فرحة طاغية ، وشعور غامر بالسعادة ، لحصولها على مثل هذا التأييد الكبير . رمت الأوراق على الطاولة .. وقالت :

- هذا الكلام غير صحيح ، وغير منطقي .. ! أي علمانية ، وأي رذيلة ..؟

نظرت إلى والدها ، وعيناها قد احتقنتا بالدمع .. وأضافت :

- نحن بين طرفين يا أبي .. دعاوى التكفير ، وتهم العلمانية والانحلال ..!

أحمد الذي فاجأه موقف عائشة ، التزم الصمت . تحسس جيبه ، وأخرج ورقة وأعاد طيها ، ثم أرجعها مرة أخرى لجيبه . كان واضحاً من مظهرها ، أنها من جنس الأوراق ، التي استعرضتها عائشة ، وقرأت مقاطع منها .. مطبوعات من منتديات الإنترنت . اهتمامه الخاص بهذه الورقة ، أثار استغراب والده .. فسأله :

- ما هذه الورقة التي في جيبك يا أحمد ..؟

ارتبك ونظر إلى عائشة ، التي أدركت ما هي ، فغشيت وجهها حمرة الخجل .
والده كرر عليه السؤال .. فأجاب :

– صورة مقال ، مثل المقالات التي كانت عائشة تقرأ منها !..!

– لماذا أنت مهتم به .. بشكل خاص ؟..!

تلعثم .. ونظر إلى عائشة مرّة ثانية :

– لا أبداً .. إنه لكاتب تحب عائشة أن تتابع ما يكتب ، وأنا أزودها بمقالاته .

تناول الأب المقال ، وشرع في قراءته . لم يكن مختلفاً عن تلك التي كانت عائشة

تقرأ منها ، إلا أن لغته أكثر حدة . حين انتهى من القراءة ، انتبه إلى أن

الكاتب اسمه (شهاب الإسلام) . نظر إلى عائشة .. وقال : – ما الذي يشدك

إلى كتاباته ؟..!

ردّت وهي تتصنع عدم اهتمام :

– يتناول أحياناً ، موضوعات لها علاقة بالمرأة العاملة في القطاع الطبي ..

التفت إلى أحمد :

– هل تعرفه شخصياً يا أحمد ؟..!

- هاه .. لا .. لا

أحمد كان قد أُسِّرَ إلى عائشة .. في وقت مضى ، أن (شهاب الإسلام) ، هو ابن خالتهم عبد السلام الياسر . كتابات شهاب الإسلام ، شدتها منذ البداية ، قبل أن تعرف اسمه الحقيقي . في بداية دخولها الكلية ، كانت متحمسة لطرحة الجريء ، في مواضيع لها علاقة بظروف عمل المرأة ، خاصة في القطاع الصحي . أسلوبه وافق هوى في نفسها ، في بداية دخولها إلى الكلية .. يوم كانت في قمة حماسها . كانت تصور مقالاته ، التي يزودها بها أحمد ، وتوزعها بين الطالبات في كليتها .

شيئاً فشيئاً ، اكتشفت أنها لم تتعلق بمقالاته فقط ، بل بشخصه . صارت تطلب من أحمد ، بطريق غير مباشر ، أن يجمع لها معلومات أكثر عن شخصيته . تتذرع أحياناً بحاجة الطالبات ، إلى الاتصال المباشر به ، لإطلاعها على خفايا ما يحدث في الكلية . تقول لأحمد ، إنهن لا يمكن أن يتواصلن مع شخص ، حتى يعرفن شخصيته الحقيقية ، ليثقن به . أحمد قام باتصالات كثيرة ، عن طريق البريد الإلكتروني ، و (الماسنجر) ، مع أعضاء عديدين في المنتدى ، حتى استطاع معرفة الشخصية الحقيقية لشهاب الإسلام . في إحدى المناسبات الاجتماعية ، واجهه بما وصل إليه من معلومات عن شخصيته ، فأقر بذلك ، وطلب منه أن يكتفم الأمر .

عندما التحقت عائشة بالجامعة ، كان (شهاب الإسلام) ، طالباً في السنة الثانية في كلية التربية . لم تعرف حقيقة شخصيته ، إلا حينما صارت هي في السنة الثالثة ، في كلية الطب ، وهو كان قد تخرج وقتها من الجامعة ، وقلت مشاركاته في منتديات الانترنت ، وإن لم يفتر حماسه . ظلت لغته ، وأسلوبه في الكتابة ، بنفس القوة والحدة . تجربتها في الكلية ، حيث احتكت أكثر ، وتفاعلت على مستويات متفاوتة ، مع أفراد مختلفين ، من أساتذة وزميلات .. إضافة إلى كونها صارت أكبر ، وأكثر نضجاً ، جعلها أقل قابلية لهذا النوع من الطرح ، وأقل انجذاباً ، إلى لغة بهذا المستوى من الحدة . لكنها .. في أعماقها ، ظلت تشعر بانجذاب إليه .

بعد أن عرفت شخصيته ، تشجعت وأرسلت له رسالة بريد إلكترونية . ذكرت في الرسالة أنها تعرفه ، وعرفته بنفسها ، وشكرته على مواقفه ، وطرحه الجريء . بررت إرسال الرسالة إليه ، بأنها افتقدت حضوره في الانترنت ، وأن مشاركاته قلت بشكل ملحوظ . رد عليها برسالة ، شكرها فيها ، وذكر أن قلة مشاركته في الانترنت ، تعود لتخرجه من الجامعة ، وانشغاله بالبحث عن وظيفة . ختم الرسالة ، بالدعاء لها بالتوفيق في دراستها ، وحياتها المستقبلية .

لغة الرد في رسالته كانت باردة . لم يكن بها احتفاء ، أو حماس ، أو تشجيع من أي نوع .. فضلاً عن أنها لم تشتمل على أي مفردة حميمة . قلق صار يساورها ، وتكدر خاطرها .. لكنها عزت ذلك لطبيعته الجادة ، أو ربما أنه يرى أن التزامه الديني ، يمنعه من استخدام لغة غير رسمية ، وكلمات مجاملة ، مع امرأة ليست من محارمه . وقفت عند عبارته ، التي تمنى لها فيها التوفيق في حياتها المستقبلية . هي الآن في آخر سنتها الرابعة في الكلية ، وبقي على تخرجها سنتان . هل هذا هو (المستقبل) ، الذي تمنى لها التوفيق فيه ..؟ حين أعادت قراءة الرسالة ، وجدت أنه قد أشار إلى دراستها ، وتمنى لها التوفيق فيها أيضاً .. إلى جانب (حياتها) ، المستقبلية .

طافت في ذهنها خواطر سيئة ، وقلبت أفكاراً سلبية : هل كانت حساباتها خاطئة .. أكانت سنوات من الوهم ..؟ ليس أقسى ، وأكثر فجيعة ، من أن تراهن على وهم . تمضي سنوات عمرك .. تراه إلى جانبك ، بناءً عالياً ، صنعته من شوق ، وحب .. وتحسبه مشروع حياة ، ثم تفيق ذات صباح ، فلا ترى إلا سراياً ، وتتلمس .. وليس ثمة شيء . أمس رفضت العريس الثامن ، الذي يتقدم لخطبتها . أغلبهم زملاء في الكلية ، من دفعات سابقة ، تخرجوا أو على وشك التخرج . متفوقون ويغلب على سلوكهم المحافظة والانضباط الشديد .

علامة الاستفهام كبرت : هل فرّطت بمستقبلها (الحقيقي) ، متعلقة بسراب

..؟ تتابع على خاطرها ، أسماء الشباب الذين تقدموا لخطبتها .. ورفضتهم .

أكثرهم تدور أحاديث الطالبات الخاصة حولهم . لا تتذكر أن واحدة من

الطالبات ، التي كانت توزع عليهن نسخاً من مقالات (شهاب الإسلام) ،

تحدثت عنه بإعجاب ، ولو بطريقة عابرة .. رغم أن بعضهن يتبنين آراءً ،

أكثر تطرفاً مما يطرح . تساءلت في سرها بمرارة : " كيف ربطت مستقبلها ،

وعلقت قلبها ، بمعرف مجهول في الانترنت " ..؟ كيف لو عرفت زميلاتها ،

أنها رفضت مستقبلاً لها ، مع خالد ، ومحمد ، وناصر ، وفهد ، وعبد الكريم

.. من أجل شهاب الإسلام ، الذي يتمنى لها (التوفيق في حياتها المستقبلية)

..؟ لكن مع من ..؟ سؤال انغرز في قلبها ، مثل مخيط غار في كرة صوف .

تعوذت من الشيطان ، وهي تفتح إحدى الصفحات الداخلية لكراسة محاضراتها

، وتتأمل عبارة كتبتها ، قبل سنتين ، بأكثر من لون : " شهاب الإسلام ..

أضأت قلبي ..! " . إلى جانب العبارة في أسفل الصفحة ، ألصقت قصاصة مقال ،

لشهاب الإسلام عنوانه : عائشة الصالح .. قبس من نور يضيء دهاليز كلية

الطب " .

مستقبلها الذي جعلت شهاب الإسلام أهم أركانه ، تشكل من حلمها .. بإنسان

يؤمن برسالتها وليس بـ (صورتها) . نظرت إلى إقبال زملاء ، على طلب

الزواج بها .. أنه رغبة في جمالها ، وليس إيماناً برسالتها ، وتقديراً لدورها .
في الكلية نفرت من زملائها ، الذين يتهافتون كالفراش ، على الجميلات .
زميلاتها ممن لم يتوفر لهن حد أدنى من الجمال ، لم تشفع لهن جديتهن
ومحافظتهن . التناقض بين المبادئ والأفعال ، بسدا صارخاً ، وهي ترى
فتيات يذبلن بين قاعات الكلية ، وممرات المستشفى .. لأن حظهن من الجمال
قليل . بينما .. الرجال ، أصحاب الشعارات ، عندما لا يتوفر الجمال يبحثون
عنه خارج الكلية ، لدى من هُنَّ أكثر جاذبية .. بدعوى (النقاء) . تصبح
الطالبة أو الطبيبة ، أقل نقاء وطهرانية ، إذا كانت أقل جمالاً . هذا هو
المبدأ ، الذي تتندر عليه ، هي وزميلاتها .. مقابل الهمس ، الذي يعلو أحياناً
، بين (الذكور) ، عن تبسّط طالبات الطب والطبيبات ، في علاقاتهن مع
زملائهن الرجال .

هي الآن تخطو خطواتها الأخيرة ، نحو نهاية مشوارها . ست سنوات مرت ،
هي المسافة بين حلم طفلة التاسعة ، ومشروع امرأة الرابعة والعشرين .
إحساسها بالاختلاف ، أصبح أعلى وتيرة ، وأسرع إيقاعاً . ليس فقط نظرة
أهل بيتها وأقاربها ، الذين تعودت عليهم منذ سنوات ، ينادونها بالدكتورة .
لقد تغيرت صفتها الأكاديمية كذلك . لم تعد طالبة ، بل صارت تسمى
Residence ، أو طبيب مقيم . أصبحت تدخل غرف العمليات ..

لتشارك في رفع الألم ، وتخفيف المعاناة عن الناس . منظر الناس يسلمون
أرواحهم .. طواعية لآخرين ، ويأتمنونهم على أجسادهم ، لم تكن عملية سهلة
 . استشعرت المسؤولية ، إلى درجة أنها في بعض المرات ، تتردد في اتخاذ
الخطوة الأولى ، لخوض تجربة معادة ومكررة ، ضمن روتين عملها اليومي .
لم يكن ترددها في دخول غرفة العمليات .. الذي تفكر فيه ، ولا تعلنه ،
نتيجة خوف ، أو رهاب من أي نوع . ثمة صراع يتنامى داخلها . فهي .. إزاء
ما تراه من تقصير وتجاوزات ، تحدث في غرف العمليات .. تجاه المرضى ،
طورت لنفسها معادلة صارمة : " يسلمك روحه .. تحافظ عليها ، يأتمنك على
جسده .. لا تخونه " . معادلتها الصارمة ، التي لم تتهاون في تطبيقها ، كثيراً
ما أدخلتها في جدالات حادة ، مع أساتذة وزملاء . اعترضت مرة ، على
وجود زميل بملابسه العادية في غرفة العمليات ، لأنه كما يقول ، وصل
متأخراً ، ولم يجد الوقت لتبديل ملابسه . أصرت أن يبدل ملابسه ، أو أن
العملية لن تبدأ ، كما هددت بالتصعيد .

في مرة ثانية كانت المشكلة مع زميلة . جاءت إلى غرفة العمليات ، كما لو كانت
تدخل قاعة أفراح .. كما تقول . المكياج طبقات ، والعطور أنواع . أبدت
استياءها في البداية ، ولكن .. حينما بدأ المكياج يسيح ويختلط بأحمر الشفاه ..
قررت أن تتوقف ، وتوقف كل شيء . لم يكن الوضع يسمح بأي نوع من أنصاف

الحلول . تم استبدال الزميلة بأخرى ، لكن القصة خرجت من غرفة العمليات .. ووصلت العميد . لم تحصل محاسبة ، ولا لفت نظر . لكن أصداءها وتداعياتها ، ظلت تتردد داخل الكلية ، عبر التعليقات الساخرة ، التي يتداولها الطلاب والأطباء : غرفة العمليات صار يطلق عليها (قاعة الديسكو) ، أما العملية نفسها ، فأصبح اسمها .. بين الطلاب والطالبات ، (حفلة الدي جي) .

مسألة الانضباط المهني ، في غرفة العمليات ، تبدو يسيرة ، أمام موقفها الحاد والقطعي ، تجاه حماية خصوصية المرضى . حين يأتي دورها في الجدول ، لتكون ضمن الطاقم الطبي داخل غرفة العمليات ، تحدث حالة استنفار قصوى بين جهاز التمريض ، الذي سيتولى تجهيز المريض . التعليمات تنفذ بدقة ، بخصوص الأجزاء التي يمكن كشفها من جسم المريض ، الذي ستجرى له العملية . عندما يكون المريض أنثى ، تتابع شخصياً إجراءات تجهيزها لغرفة العمليات . في البداية واجهت إهمالاً ، أو تجاهلاً ، أو رفضاً من الأطباء .. بشأن طلباتها بهذا الخصوص . لكنها .. متسلحة بموقف شرعي وأخلاقي ، قاومت كل الضغوط ، وأساليب الإهمال والتجاهل . لم تكن تتردد في التعبير عن اعتراضها ورفضها ، لأي سلوك ترى فيه انتهاكاً لخصوصية مريض ، تحت أي تبرير . كثيرٌ من الألقاب والصفات ألصقت بها ، ويتم تداولها همساً ، بين

بعض الأطباء مثل : (حارسة العورات) . تتصنع اللامبالاة أحياناً ، وتتظاهر بالقوة . لكن .. حين تخلو بنفسها ، يعترىها الضعف البشري .. فتبكي . تحدث نفسها : " الجميع يؤثر السلامة " ، حتى (الطيبون) . في إشارة منها للأطباء المتدينين .

كان قد بقي أمامها أسابيع لتتخرج وتصبح طبيبة عامة . لكن .. كأن قدرها يأبى إلا أن تنهي مسيرة حياتها الأكاديمية ، بحدث غير اعتيادي ، يضاف إلى سجلها الحافل بالمواجهات والمصادمات والمواقف المدوية . كان يوم اثنين ، خرجت من البيت صائمة ، جدولها اليوم مزدحم . أوصلها السائق إلى المستشفى ، متأخرة خمس دقائق . صعدت إلى القسم ، وأنهت تحرير بعض الأوراق . كانت هناك جولة على بعض المرضى ، حرصت أن تنهئها قبل التاسعة ، حيث إن موعد عملية ، ستكون ضمن طاقمها .. سوف يكون الساعة التاسعة وعشرين دقيقة . لم تنس أن تتصل بجهاز التمريض ، لتؤكد على تجهيز المريض . صار لها عادة أن تصلي ركعتين ، قبل كل عملية تدخلها .. فاتجهت إلى مكتبها وصلت . وصلت غرفة إلى العمليات في التاسعة وخمس دقائق . مريضة اليوم شابة في بداية عشريناتها ، تشتكي من فتق مزمن أسفل البطن . كانت المريضة قد وصلت ، فاتجهت إليها وطمأننتها ، وهذأت من قلقها . بعد عشر دقائق ، اكتمل وصول الطاقم الطبي .

بدأت العملية ، ومرّت النصف ساعة الأولى بشكل اعتيادي . انتبعت بعد ذلك ، أن الطبيب ومساعدته ، يتبادلان إشارات بالأعين . لم تفهم طبيعة هذه الإشارات ، ولم تجد لها تفسيراً .. إلا حين لاحظت أنهما يتعمدان إزاحة الغطاء عن بعض أجزاء جسد المريضة ، بطريقة تبدو عفوية . توترت .. لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً ، سوى ملاحظتهما ، وتغطية الأجزاء التي تتعرض للكشف . انتهت العملية ، لكنها شعرت بإحباط شديد . مبدؤها : " يأتذك على جسده .. ولا تخونه " . ، صار يلح عليها بأن تفعل شيئاً . في طريقها لغرفة تغيير الملابس ، قلبت الأمور ، فرأت أنه ليس لديها الكثير لتفعله . سلوكهما بدا عفويّاً وتلقائياً ، ولا يمكن إدانتها بأي شكل من الأشكال . أي تصعيد ، سيكون بالضرورة ضدها .

عندما انتهت من تبديل ملابسها ، غسلت وجهها واسترخت على أحد المقاعد . التوتر مع الصيام أرهاقها ، والحدث زادها مرارة . مرت ربع ساعة ، شعرت أنها أكثر هدوءاً . نهضت وتوجهت خارجة من غرفة العمليات ، ثم خطر لها أن تمر على المريضة في غرفة الإفاقة ، لتطمئن عليها . حين أزاحت الستارة ، فوجئت بمنظر صدمها . المريضة ما زالت في غيبوبتها ، عارية تماماً .. الغطاء مرفوع عنها ، والطبيب ومساعدته يتأملانها . صرخت :

- حسبى الله عليكم ..! هذا والله خيانة وإجرام ..

فوجئاً بوجودها فارتبكا ، وحاولا استيعاب المفاجأة ، بالتظاهر بأنهما يقومان
بإجراء روتيني ، لمتابعة حالة المريضة ، وذلك بالتهامس والإشارة لموضع
العملية ، ثم إعادة تغطية المريضة . لم تنجح محاولتهما في تهدئتها ، أو الحد
من انفعالها ، رغم أن الطبيب حاول الاستخفاف بها ، والظهور بمظهر الوثائق
من نفسه .. حين قال :

– روعي لبيتكم يا شاطرة .. أحسن لك .

استمرت في توجيه عبارات التوبيخ والتوعد بتصعيد الموضوع .. والتهديد
بمقاضاتهما . صوتها المرتفع ، جعل بعض الأطباء والعاملين ، يتوجهون إلى
مصدر الصوت ، لتقصي الأمر . خرج الطبيب ومساعدته ، ازداد مع تكاثر
الأشخاص ، الذين دفعهم الفضول للقدوم ، لمعرفة ما يجري . كانت تتكلم عن “
خسة ونذالة .. وخيانة للأمانة وشرف المهنة ” ، دون أن يدري
الموجودون ، ما الذي حدث بالضبط . بعض الحضور ، ظن أنها قد
تعرضت للتحرش .. إلى أن قالت :

– لقد مسكت سعادة الدكتور بسام ومساعدته متلبسين ، بجريمة كشف عورة
مريضة . إن الأمر لا يقف عند الاعتداء على شرف الناس ، وهذه بحد ذاتها
جريمة ، بل كذلك .. خيانة للعهد والميثاق وشرف المهنة .

رد الدكتور :

- أنتم تعرفون الأخت .. مريضة بالوسواس ..

- المريض يا دكتور ، هو الذي لم يردعه دين ، ولا سن ، ولا شرف مهنة ، عن كشف عورات المرضى النائمين .

- ما قلت لكم ..؟ الأخت مهووسة بشيء يتداوله المتطرفون في الانترنت ، اسمه العورات النائمة .. وهناك من يحرضها من متطري وإرهابيي الانترنت .

ثم أراد أن يحول الأمر إلى سخرية منها ، وتكريساً لاتهامه لها بالوسواس ، وصلتها بمن يسميهم متطري الانترنت .. فقال :

- الأخت تحب القيادة والزعامة والأضواء .. ما يكفيها أنها اشتهرت في الكلية باسم (الملا عمر) ، بسبب سلوكها المتطرف ، البعيد عن المهنية . لذلك .. أقترح .. لإرضاء هوسها ، نسميها زعيمة (حزب العورات النائمة) .

ثم اصطنع ابتساماً ، وصار يتلفت نحو الموجودين ، لينال تأييدهم ، ومشاركتهم السخرية منها .. لكنها ردت :

- الدفاع عن عورات المسلمين النائمة ، ضد لصوص الأعراض مثلك ، يا سعادة الدكتور .. شرف . من هو المسكون بفوبيا الجنس .. أيها التنويري ، من نوع

تلك الشعارات الفارغة التي دائماً ترددها .. لتسويغ الانحراف ..؟ والله العظيم
لن يمر الحادث بسهولة ، وإن لم تتخذ الكلية إجراءً .. إنني لأصعد الأمر
لوسائل الإعلام .

لم يتخذ إجراء من أي نوع ، ولم تجرِ حتى مساءلة .. وحرصت عمادة الكلية
، وإدارة المستشفى ، على احتواء الموضوع ، والتكتم عليه .. حفاظاً على سمعة
الكلية والمستشفى . كثير من حقوق الناس تهدر ، لتبدو صورة
المؤسسات الرسمية (كاملة) . يموت الناس ، أو يتعرضون للأذى .. بسبب
إهمال الأطباء ، أو تعدي الأفراد ، على الموقوفين في المراكز الأمنية .. ولا
يحاسب أحد ، لأن هذا يضر بسمعة الوزارة المعنية ، التي ترخص أمام (
نزاهتها) المزعومة ، أرواح المواطنين . تساق قضية (الخصوصية) دائماً ،
لتبرير عدم مساءلة أي مسؤول ، أو محاكمته علناً على تقصيره . أطرف تعليق
على هذا الوضع الشاذ ، ما سمعته مرّة من إحدى صديقاتها : " في العالم ..
غيرنا ، حين يعيث المسؤول فساداً ، في حياة الناس وأموالهم .. يستقيل أو
يحاكم ، أما عندنا .. فلا هذا ولا ذاك ، لأن لنا ، كما يقولون (خصوصيتنا)
، وقاعدتها الذهبية : " صورة الحكومة أولاً ، وسمعة المسؤول ثانياً .. وليذهب
المواطن إلى الجحيم " . عائشة .. على أساس من قناعات وتجارب سابقة ، كانت
تتوقع موقفاً مثل هذا ، لكنها .. نجحت في تسريب الموضوع إلى الصحافة .. إلى

الأستاذ سعد ، كاتب عمود صحفي مشهور ، فدارت سجلات حول القضية ، تؤكد على وجوب حماية خصوصية المرضى ، واستحداث نظام للملابس ، داخل غرف العمليات .. يحميهم من العبث والتجاوزات .

الميدان الآخر للحدث ، كان أحاديث أفراد المجتمع ، ومنتديات الانترنت . ظل النقاش حاداً وساخناً ، لأكثر من شهر .. مما خلق رأياً عاماً ، يطالب بوضع قوانين تحمي المرضى ، وتعاقب من ينتهك حرمتهم . الحادثة نفسها وتداعياتها ، أشاعت حالاً من الحذر والخوف ، لدى أفراد يقعون في انتهاكات لخصوصيات المرضى ، أو تقصير في حقهم . هناك حديث مرتفع ، عن تحرشات يقوم بها بعض العاملين الذكور في المستشفيات . يتردد أن هناك عبثاً واستغلالاً جنسياً ، لبعض المريضات ، من قبل أشخاص ، يعملون في قطاعات فنية مساندة في المستشفيات ، يزعمون أنهم يتلقون توجيهات من أطباء ، مستغلين جهل المرضى وذويهم .

بعد الفضيحة .. التي صارت حديث الناس ، صار هناك توجس . لا أحد يرغب في أن يضع نفسه ، في موقف مثل الذي حصل للدكتور ومساعدته . الأمر في بعض مراحل ، كاد أن يكون أكثر خطورة ، لولا تدخل بعض الأشخاص ، من داخل الكلية .. لدى عائشة . كانت قد هددت ، إن لم يتخذ إجراء وعقوبات رادعة ، بأنها ستبلغ أولياء المريضة ، بالفعل الذي ارتكبه الدكتور ومساعدته .

صدمة عائشة ، لم تكن من الفعل فقط .. على بشاعته . بل من الطبيب نفسه .
يقدم الدكتور بسام نفسه ، ويعرفه زملاؤه ، على أنه ليبرالي تنويري ، يناصر
حرية المرأة ، وحقها في العمل ، ويدافع عن الحريات عموماً . كثيراً ما وصف
الدعوات التي توجه إلى عمادة الكلية ، أو لوزارة الصحة ، بتنظيم عمل المرأة في
القطاع الصحي .. بما يوائم عادات المجتمع وتقاليده ، والحد من الاختلاط ..
غير المبرر ، بين الجنسين ، بأنها (فوبيا) جنسية ، يروج لها (المتزمتون)
، المسكونون بميكانيزم غريزي ، يجعلهم ينظرون إلى المرأة ، على أنها هدف
جنسي متحرك . جاءت الحادثة ، ليس فقط ، بمثابة الفضيحة للدكتور بسام ،
ولتسقط صورة المثقف ، التي صنعها لنفسه . بل كذلك .. لتكشف حقيقة
موقفه من المرأة ، و(الأجندة) التي يقوم بتسويقها ، حول حقوق المرأة . كما
أن وقوف بعض زملاء الدكتور إلى جانبه ، ومساندتهم له .. على فداحة الفعل
الذي ارتكبه ، جعلها تقطع أن دعاوى الحرية والليبرالية ، التي يدعيها بعض
الأشخاص ، ليست إلا شعاراً فارغاً ، لسلوك شهواني . أمرٌ كانت تدركه ،
وتعرفه حق المعرفة ، لكنها كثيراً ما تدخل في جدالات ونقاشات ، حول
حقيقته ، وإمكانية إثباته . قالت للدكتور نايف ، وهو زميل للدكتور بسام ،
تبني حملة للدفاع عنه :

- أفهم أن تنادوا بحق امرأة أن تتبرج ، لكن كيف تدافع عن زميلك الذي يعرّي

امرأة نائمة ، معتدياً على أهم حقوقها .. خصوصية جسدها ..؟ هل تريد أن

تقنعني أن المريضة النائمة ، كانت في حالة (سلوك ظلامي) ، وأن زميلك

الدكتور بسام ، كان يمارس (فعلاً تنويرياً) ويعبر عن سلوك ليبرالي ..؟!!

الحدث صار حديث مجتمع الجامعة ، وربما انتقل خارجها ، لكن عين عائشة

وقلبها ، كانا في مكان آخر . ماذا كتب في الانترنت عن الموضوع .. وما الذي

كتبه شهاب الإسلام تحديداً ..؟ شقيقها أحمد ظل يزودها بكل ما دار في

الانترنت حول الحادثة وتداعياتها . مكثت هي أسابيع ، تتابع الإنترنت

بنفسها ، وتطلع على ما يحضره أحمد لها . لم تجد شيئاً لشهاب الإسلام . نفذ

صبرها ، فسألت عنه أحمد ، الذي كان يتوقع سؤالاً مثل هذا .. قال :

- تابعت كل ما كتب .. لم أجد شيئاً لشهاب الإسلام ، ولم يرد على البريد

الالكتروني ، الذي أرسلته إليه بهذا الخصوص .

أحمد كتم عن عائشة ، كلاماً سمعه عن شهاب الإسلام .. وهي ظلت تترقب .

بعد أيام ، بعض زميلاتنا اللاتي يعرفن اهتمامها بما يكتب شهاب الإسلام ،

سَرَبْنَ لها كلاماً منسوباً إليه ، في أحد مواقع الانترنت .. مفاده : " موقفها

جيد ، لكن ما الذي يجيز لها أن تبقى في غرفة العمليات ، مع رجال أجانب ،

يتكشّفون عورات المسلمين ..؟! " . سكتت ولم تعلق ، وحاولت أن تستبعد

صدر هذا الكلام منه . صار الموضوع هما ، لم تطق الصبر عليه ، فصارحت
أحمد بما نقل إليها . لم يشأ أن يؤكد لها الموضوع ، الذي تواتر عنده من أكثر
من مصدر . خشي أن يسبب لها صدمة . قال :

– سمعتُ مثلك هذا الكلام .. لكنني لست متأكداً من أنه فعلاً قاله ..!

هزت رأسها ، وهي تنصرف إلى غرفتها .. وتغالب ، لتبدو تعابير وجهها
طبيعية . لم يكن ردّه مقنعاً .. ولم تعلق . لكنها .. شعرت بجرس يُقرع في
قلبها . للحزن ، والرحيل ، والفقد .. طعم واحد ، وأصواتٌ متعددة . قرأتُ
مرّة .. أن الريح تعوي في الأطلال الخربة . حين ضمت ساعديها إلى صدرها ،
وتلمست أضلاعها ، تحسست صوتاً ، كأنّ صخبه في أذنيها .. تساءلت : أهذا
صوت عواء الريح في قلبي ..؟

على مشارف عامها السادس والعشرين .. تلتفت ، ثمة إنجازات كبيرة ، على
أكثر من صعيد . الذين حولها يقولون : ما زلت صغيرة .. المستقبل أمامك ،
لديك الكثير لتحقيقه . اليوم .. حين أحست بذلك الدويّ في صدرها ، أدركت
أن لا شيء في قلبها تحقق ، منذ أول خاطر ، تسلل عبره شهاب الإسلام إليه :
أطلال .. وريح تعوي . نحن لا نقيس انجازاتنا .. فقط ، بما حققناه ..
لندهبش الآخرين ، فيصفقوا لنا . للقلوب مساحة من زمن ، تزهر فيها ..
قصيرة ، إن لم يأت ربيعها بـ (وسمي) ، فليس إلا عطش الدهر .. وحزن

الأبد . المستقبل بدا موحشاً وعمداً ، وحديث القلب : سُختِ .. ليس ثمة وقت
لأحلام .. !

كانت جالسة على طرف سريرها . أرهقها الهم ، فلم تخلع حتى معطف
المستشفى الأبيض . الأفكار كانت قد أخذتها بعيداً ، حين دقت نغمة جوالها ،
معلنة استلام رسالة . سحبت الجوال من جيب معطفها ، ووضعتة على منضدة
الزينة . ترددت في فتح الرسالة . سئمت من كثرة الرسائل ، التي وصلتها ،
حول قضية الدكتور ومساعدته ، إما استفساراً عن الموضوع ، أو إشادة بموقفها .
حين بدلت ملابسها ، ألح عليها فضول غير عادي ، بأن تفتح الرسالة التي
وصلتها قبل قليل . التقطت الجوال واستلقت على سريرها ، فتحت
الرسالة .. لم تكن من النوع الذي اعتادت استلامه مؤخراً : " لكم باقة ورد
، لـدى محل (الفصول الأربعة) للورود . نرجو الاتصال ، لإعطاء
مندوبنا وصفاً لعنوانكم . رقم الطلب □/□/□ . اعتدلت في جلستها . غمامة
فرح ، بدأت تتشكل على محياها . ابتسامة صارت تنمو في ثغرها ، وقسماتها
غدت أكثر إشراقاً ، . شعور بالبهجة ، تحسه يجتاحها ، ويكاد يرفعها عن
الأرض .. كأنها على بساط ريح . همست لنفسها : " شيء رائع ، أن يأتيك ورد
بعد أن أصبحت المشاهد كلها .. بلون رمادي ، ولم يعد لإيقاع الحياة طعم .. أو
رائحة " .

تحب الورد ، ولا تتفق مع الرأي الذي يرفضه ، على أساس من موقف ديني .
ليس في تهادي الورد تقليد لكافر . سمعت هذا الرأي من أكثر من عالم موثوق .
تحتفظ بذاكرتها بموقف جميل عن الورد ، تروييه إحدى زميلاتهما . تحدثت
الزميلة عن زوجها الذي غاضبها مرة .. فندم . ثم اختلس .. في ذات الوقت ،
فرصة انشغالها ، بأمر ما ، وأشتري لها وردة ، أرفقها ببطاقة كتب فيها :
أفتقد الذوق أحياناً " . كان للوردة ، والعبارة ، والموقف .. فعل السحر ، تقول
الزميلة .

الورد مظهر من مظاهر الجمال .. أو هو أبهى مظاهر الجمال .. و " الله جميل
يحب الجمال " . لكنها .. تكره المغالاة والتباهي ، في إهداء الورد ، مثل ذلك
الذي تراه يحدث في المستشفى .. بين النساء خصوصاً . تذكر أنها دخلت على
إحدى المريضات ، فوجدت حول سريرها ورداً ، قيمته لا تقل عن عشرة آلاف
ريال . عرفت السبب . كل صاحبة باقة ورد ، تبرز اسمها بشكل واضح على
باقتها ، فتأتي أخرى تزايد عليها ، فتهدى أعلى منها .. وتجعل اسمها بارزاً
.. وهكذا ..! المريضة لاحظت اندهاشها من العدد الكبير من الباقات وآنية
الورد .. فقالت مزهوة : " أنا سعيدة .. الورد جميل " . فاجأها ردّها : " ألا
ترين أنه يصبح قبيحاً ، عندما يتحول إلى مباحة وتبذير " .

اتصلت بمحل الورد ، وأعطتهم وصفاً لعنوان البيت . بانتظار وصول الهدية ، أخذت تستعرض في ذهنها من قد يكون المرسل . اليوم الخميس ، لا تتذكر مناسبة توافق هذا التاريخ . رجحت أن تكون إحدى صديقاتها .. في الكلية أو المستشفى ، أو ربما أحد من عائلتها ، مهتم بها ، وهي لا تعلم .. أو قد يكون شخصاً قدر موقفها ، في موضوع عورات المرضى النائمين . وصل مندوب الفصول الأربعة ، واستلمت الباقة . كانت جميلة جداً ، فتلهمت لمعرفة المرسل . التقطت البطاقة المرفقة ، التي كانت كبيرة ، خلاف البطاقات ، التي ترفق عادة مع باقات الورد .. وشرعت تقرأ :

” سيدتي الجميلة ، أنت لا تعرفيني ، ولست بحاجة لأن تعرفيني . جدتُ مرّة .. قبل عام إلى الطوارئ ، ومع طفلي المريضة ، وهي في حال يرثى لها ، من المرض وعدم النظافة . كان اهتمامك بها ، ورعايتك لها ، ولستك الحانية ، ومتابعتك لحالتها ، شيء لا يفعله .. إلا إنسان يمارس فعله عن إيمان . ثم كان خطابك المطمئن ، اللطيف ، المؤدب لنا .. الذي غمرنا بشعور من الأمان والسكينة .

أعتقد أن وجود مثلك ، ليس في هذه الأماكن فقط ، بل في حياة الناس ، ضرورة كونية ، لكي لا يختل ميزان القيم ، وليكون للحياة معنى .. كذلك .

غريب . هي نفسها ، رغم أهمية المناسبة لها ، لم يرتقِ اهتمامها بها ، إلى هذا المستوى . لا تدري هل هو بسبب خيبات القلب ، أو لأن الحدث ، بعد سنوات الدراسة الطويلة ، صار تحصيلُ حَاصِلٍ . في الأشهر الأخيرة ، صارت تمر بحالات هبوط نفسي ، تحس بها.. تؤزّمها ، وتغمسها في مستنقع يأس ، ثم تهوي بروحها إلى أعماق . لولا زحمة العمل ، التي أصبحت تتعمد أن تغرق نفسها في بحرها .. لتهرب من واقعها ، لاختنقت في جُبِّ أزمتهما .

تأمل الورد وتتلمسه ، ثم تعود تقرأ البطاقة . أحست بروحها تصعد . تغادر رويداً .. رويداً ، حضيض بؤس ، هوت في أعماقه ، وحين وصلت إلى الكلمة الأخيرة ، شعرت كأنها على رأس قمة .. حولها فضاء مفتوح .. ومدى لا نهائي . تنهدت بعمق : " كم هو مبهج ، وباعث على الأمل ، أن تمتد لك يد غريبة .. لم تنتظرها ، لتنتشلك من قاع ، لم يدرك من حولك ، كم صار لك ، تتردى في قراره " . يتوغل الألم في داخلنا بقسوة ، حين ينفُضُ الذين نحبههم أيديهم منّا ، وينفضّون عنا .. يتركوننا ، نغوص في لجة أحزاننا . نواجه عناءنا ، بقلوب أفرغها الفقد ، من أي رجاء .. ونزعت منها ، رياح الوحدة والوحشة .. كل الأشرطة .

عابرون كثيرون في حياتنا .. بذات الجمال ، والثراء الروحي ، ويملكون أيضاً من المشاعر والأحاسيس ، لا ندرجهم ضمن (قائمتنا) المهمة .. لأننا وضعنا

لها معايير ، لا علاقة لها بالقيم الخلاقية للفرد .. من حيث هو إنسان ، يمكن أن يضيف إلى حياتنا الحقيقية شيئاً . كم من مثل صاحب الرسالة ، افتقدوا فقط .. آلية التواصل معنا ، ليسكبوا مثل هذا الفيض في أرواحنا . لم يكن .. لأنهم يحتاجون أن (نحسن) إليهم ، لنستحثهم على فعل ذلك ، فتنثال مشاعرهم نحونا . بل لأننا .. خلقنا (حدوداً) ، تحدد جغرافيتنا ، ووضعنا نقطة عبور واحدة .. نحونا ، لأفراد منتخبين ، وفق معايير ، لا علاقة لها بما تحتاجه أرواحنا ، ويحتاجه الإنسان فينا . نخسر كثيراً ، مشاعر دفاقة بهذا الحجم .. نحتاجها ، من أناس بسطاء . لأن فرصتهم لكي يبوحوا بها ، لا تتأتى إلا مرة واحدة .. لحظة نشعر أبواب قلوبنا لهم . إن لم نفعل ذلك في ساعة (صفر) ، يفرضها قدر لقائنا بهم ، على ناصية لحظة من زمن حياتنا .. فلن يحدث ذلك مطلقاً . سيبتلعهم إيقاع الحياة ، الذي يسرق أعمارهم ، في ساعات لهاث خلف لقمة عيش .. فلا يعودوا ، وتخوننا معاييرنا ، التي لم تمنحهم الفرصة .. فتقصيهم ونخسر .

وضعت الورد في مستطيل زجاجي ملأته بالماء ، بعد أن استلّته منه وردة جوري ، وضعتها على وسادتها . ألصقت البطاقة بطريقة أنيقة ، في الزاوية العليا اليسرى لمرآة منضدة الزينة . في هذه الأثناء قرع باب غرفتها .. كان صوت أمها

تستأذن . أسرعت وفتحت الباب ، وبهجة طافحة على وجهها .. بادرتها
والدتها :

- منوره .. أكيد هناك أخبار سارة . لم أرك من أمس يا عيوّ .. يا عائشة ،
اشتقت لك .. !

انتبهت أنها كانت ستناديها يا عيوش ، وهو الاسم الذي كانت تدللها به ،
منذ كانت صغيرة .. وإلى وقت قريب . قالت مُداعبة :

- لأنك لم تعودي تدليني .. ! حتى عيوش صرت تستكثريه علي .

- لا والله .. لكنني أحس إنك صرت كبيرة ، وقلت يمكن أن يحررك
تصغيري لك .. خاصة وأنه بقي يومين وتصيرين دكتورة ..

قالتها وهي تبتسم . ضمتها عائشة وهي تقول :

- ما فيه أحلى من عيوش على لسانك .

انتبهت لإناء الورد ، ولوردة الجوري على وسادتها فقالت :

- عندك هدية ثمينة من النوع الذي تحبينه ، خسارة .. فيه أحد سبقني في
تكريمك .. !

لم تعلق .. لكن والدتها لاحظت البطاقة الملصقة بعناية على المرآة ، فاقتربت
وقرأت مقتطفات منها .. وتوقفت عند التوقيع ، الذي لم يعطها أي دلالة على
صاحبه . التفتت إليها ، وفي عينيها علامة استفهام .

ابتسمت عائشة ، وعرفت ما يدور في خلدتها .. فقالت :

– هذه شهادة تخرجي الأولى ، وقعها (إنسان) لا أعرفه .. لكنه منحني
وثيقة عبور ، لأكتشف كينونتي ، وقيمتي الحقيقية .. وأهداني ورداً .
الجامعة .. يا أمي ستقدم لي يوم السبت ، وثيقة تخرجي الرسمية ، بوصفي
طبيبة مجازة ، وستمنحني ورقة ، تسميها مرتبة شرف ، سأضيفهما
لمجموعة الأوراق التي كدستها في خزانتي . هذا هو الفرق يا أمي .

ابتسمت ابتسامة خفيفة ، وهزت رأسها ، ثم ثبّتت نظراتها على وردة
الجوري ، الملقاة على الوسادة البيضاء ، المطعمة بتشجيرات صغيرة من الأحمر
والأخضر .. تحاول أن تبحث عن علاقة ما ، بين مكانها على الوسادة ، وبين
البطاقة المعلقة على المرآة بأناقة . علقّت عائشة :

– آه .. وردة الجوري ..! انتزعتها من الباقة ، ووضعتها على الوسادة . كنت
أستعد للنوم ، وأردت أن أحلم أحلاماً وردية .. مزيج من البياض الذي ملأني
به الرسالة ، ولون الوردة .

- الله يجعل أحلامك كلها وردية يا عيوش . غداؤك جاهز .. سأضعه في الثلاجة ،
وإذا قمت سخنيه .. يا عيوني .

خرجت وسحبت الباب خلفها بهدوء .. وفي الوقت الذي كان صوتها ، يتناهى
إلى داخل الغرفة ، طالبة من إخوانها الصغار عدم إزعاجها ، لتخلد إلى النوم ،
كانت عائشة تضع رأسها على الوسادة ، ووردة الجوري تتمدد أمام عينيها ،
على طرف الوسادة البيضاء المشجرة ، مثل حورية بحر ، استلقت بضجر ،
على شاطئ رملي أبيض ، تناثرت فوقه الأصداف ، وأعشاب البحر .. بانتظار (
فارس) ، أخلف مواعده .

يوم السبت كان استثنائياً لدى أم أحمد . ما إن خرجت عائشة في الصباح ، إلى
المستشفى ، حتى حولت البيت إلى ورشة عمل . عند العودة من المدارس .. كل
فرد من العائلة أكلت إليه مهمة :

- ستعود عائشة اليوم مبكرة من المستشفى .. لتستعد للذهاب إلى حفل التخرج
الليلة . كل شيء يجب أن يكون قد انتهى قبل رجوعها .

كانت قد وضعت برنامجاً لحفلة مصغرة .. بين المغرب والعشاء ، قبل أن تذهب
إلى الحفل في الجامعة . تقتصر الحفلة على الدائرة القريبة من الأقارب ،
الأعمام والعمات والأخوال والخالات .. وبناتهم الكبيرات . بعد ساعات من

العمل ، تحول البيت إلى لوحة جميلة من الزخرفة والزينات . صُفّت الهدايا بطريقة بديعة في الصالة الرئيسية . في غرفة الطعام ، تم تنظيم المائدة بذوق فنان . تقتضي الخطة أن يتم استقبال عائشة ، حين عودتها من العمل عند باب البيت ، ثم يتم عصب عينيها ، واقتيادها إلى غرفتها ، حتى لا ترى أياً من مظاهر الاحتفال ، ولا تخرج إلا حين يصل الضيوف بعد صلاة المغرب . سارت الاستعدادات وفق الخطة المرسومة . بهجة عائشة لا توصف ، حين خرجت من غرفتها . أدهشها مستوى التنظيم ، وجمال مظاهر الاحتفاء . الحفاوة البالغة من أقاربها الرجال ، ضخ فيها روحاً غير عادية . عبارة عمها ، الذي يكبر والدها .. حملتها إلى سماوات :

– عائشة .. دعوت الله ألا أموت ، حتى أشهد هذه المناسبة .

مفاجأتها بكلام عمّها جاءت بسبب الإشاعات التي رُوّجت ، أنه كان ممن سعوا لدفع أقاربها للضغط على والدها ، لمنعها من دخول كلية الطب . كان في خاطرها شيء عليه ، فأسعدتها أن تسمع هذا الكلام منه .. خاصة وأنه اشتهر في الأسرة بورعه وتقواه . أخذت رأسه وقبلته بشدة ، وصارت تلثم يمينه وشماله ، وتقول :

– هذا الكلام .. أغلى وسام ..

شكرت الجميع على حضورهم ودعمهم .. ثم قالت :

- ما كنت لأكون شيئاً .. لولا هذا الرجل .. إن كانت
عائشة أصبحت (شيئاً) .. فهو من جعلها كذلك ، وحال دون أن تكون
رقماً ، ضمن آلاف الإناث .

ثم أشارت إلى والدها ، الذي امتلأت عيناه بالدموع .

كانت على وشك أن تنصرف إلى والدتها والمدعوات في الداخل .. حين تذكرت
وصية والدتها لها ، بأن تشكر أعمامها وأخوالها على هداياهم .. فاستدركت :

- حضوركم أهلي .. واحتفاؤكم بتخرج ابنتكم أعظم هدية ، وهداياكم القيّمة ،
يعجز العرفان بالجميل .. مهما بلغ ، أن يفيكم حقكم ، بما تكلفتم به .

حفل النساء كان مهرجاناً آخر من الحفاوة والفرح . احتفى بها الجميع ،
وعبروا عن فخرهم بها . روت لها البنات ، كيف كنّ يتداولن أخبار تفوقها ،
ومواقفها داخل الكلية ، بكثير من الاعتزاز .. بين زميلاتهن وصديقاتهن ،
ويفتخرن بقرابتهن لهن . هي بدورها عبرت عن امتنانها وشكرها ، وكررت
كثيراً ، شعورها العميق بالحب والعرفان للجميع ، وخصت والدتها بثناء
خاص :

- لولا أُمي ما كنت طبيبة .. والله لولاها ما كنت سأصبح طبيبة . أُلها هو الذي خلق الفكرة الأولى في عقلي ، وحبها ، ورعايتها ، وتشجيعها ، هو ما جعلني أصمد أمام طوفان الخذلان والتثبيط .

ذكرت كيف أنها في بعض الأحيان تأتي من الكلية تبكي ، من موقف مرّ بها ، أو ظلم وقع عليها .. فتأخذها في أحضانها ، حتى تسكن وتهدأ .

- من يملك حضناً يلون به ، وصدراً يسكن إليه ، ألا يستطيع أن يقاوم أعتى الأعاصير ..؟ بلى .. يقاوم والله . يحمر وجه والدتها خجلاً ، وتتمتم : " عائشة تبالغ " . فتضمها إليها ، وتقول .. مؤكدة للحضور أثرها عليها :

- يا بعد عمر عيوش أنتِ ، والله ثم والله ، ما أنسى نظرتها ، مع نافذة غرفتها ، إذا خرجت الصباح إلى لكلية .. كأنما ترسل نظراتها معي ، تحفني وترعاني ، ولا وقففتها عند الباب ، إذا رجعت بعد العصر .. وابتسامتها تدعوني لأحضانها ، وهي تردد : " عقبال ما أفرح بك يا دكتورة " .

خالتها هَيَا ، أم عبد السلام الياسر ، (شهاب الإسلام) ، التي كانت حاضره .. عقببت على كلامها :

- تستاهلين يا عائشة . ما تلام الوالدة .. مثلك يرفع الرأس . عقبال ما نفرح بك الفرحة الكبيرة ..!

أدركت عائشة ، أنها بعبارتها الأخيرة ، كانت تلمح للزواج . انتفض قلبها ،
مثل عصفور بللته غمامة . هل خالتها تريد أن توصل لها رسالة من شهاب
الإسلام ؟ هل الشائعات التي تقول أنه لا يفكر فيها ، وأنه يبحث عن زوجة ..
ليست صحيحة ، وأن خالتها أرادت بجمالها هذه ، أن تدحض هذه الشائعة
..؟ وجع الأيام السابقة ، أحست به ينسل من قلبها ، مثل شوكة تنزع من
أخمص قدم . كمية هائلة من الهواء زفرتها .. فأتسع صدرها ، كأن ثقلاً أزيح
عنه .. أو كأنها لم تتنفس منذ أيام .

تَعْجَب من حالات القلب : كيف تغدو به وتروح ، كلمات ومواقف . كيف
يتعلق بـ (غائب) ، يهيم النهار كله ساهياً .. لا يدري عنه ، وفي الليل
يحضن وسادة .. ربما ، وينام ملء عينيه .. ساكناً ، لا يتحرك منه ، إلا بضع
قطرات من ريقه ، تتهاذى على وسادة من ريش . وهو .. القلب ، يضطرب
داخل أضلاع ، تضيق وتحكم الحصار عليه .. مثل قضبان زنزانية ، ويضطرم
مثل مرجل ، من شوق يشتعل في سويدائه .. لا يطفئه إلا ريق ، تراق قطراته
عبثاً ، وضمةً .. كان هو أولى بها من الوسادة ..!

أختها أروى ، التي استمعت إلى تعقيب خالتهما هيا .. هي الوحيدة ، التي
التقطت المشاعر ، التي أورقت في وجهها .. فانفجرت أساريره ، مثل
ورد ناعس ، نبّهه الربيع .. فأفاق وتفتح . أروى أختها وصديقتها الخاصة

أيضاً . في لحظة صدق وألم ، حدثتها بحقيقة شعورها ، تجاه شهاب الإسلام .
لم تستطع أن تحتلم السر لوحدها ، وعجز قلبها ، الذي تهتك من الهم القلق ،
أن يكون وحده وعاءً .. لوجع بهذا الحجم . أروى لا تتفق معها في شعورها ..
وترى أنها متعلقة بوهم . قالت لها مرّة : " حب من طرف واحد " ، فمرضت
بسبب ذلك لأيام . تحاشت بعدها أن تقول لها رأيها بصراحة .

أصرت أختها وقربياتها ، أن تلبس لحفل التخرج ، اللباس الذي اخترته لها ،
لهذه المناسبة . حين ترددت ، قالت خالتها نوره تشاكسها .. وهي عزيزة
عليها ، أكثر من غيرها ، من بين خالاتها وعماتها :

- لا خيار لك .. إذا شئت أن نرافقك للحفل ، ونفرح معك .

- لكنني سأبدو فيه وكأنني عارضة أزياء ، ولست طبيبة .. ماركة مشهورة جداً
وغالوية ، وآخر موضة .

ابنة عمها جمانة ، وهي من صديقاتها المقربات .. أطلقت واحداً من
تعليقاتها الساخرة :

- لا بأس يا عائشة .. هذه المرّة ، لا نريد أن نراك تبدين ، وكأنك تشي غيفاراً
..

ضحكت .. وقالت :

- شفتوا يا بنات ..

جمانة أرحم . فيه ناس في الكلية يسمونني " الملا عمر " !..!

ذهبت عائشة إلى حفل التخرج ، برفقة والدتها وأختها وقريباتها . كانت محل حفاوة الجميع . صفق الحضور طويلاً ، حين أعلن عن اسمها ضمن المكرّمات ، والحائزات على جوائز تقدير . والدتها التي كانت تصلها إشاعات ، أن ابنتها صاحبة مشاكل ، وعلى خلاف مع الجميع ، لم تجف دمعنها ، وهي ترى حجم الحفاوة الذي نالته . بين دقيقة وأخرى ، يأتي من يسلم على عائشة ، ويبارك لها ، ويغدق عليها عبارات الثناء . ترد هي بالشكر والامتنان ، ثم تشير إلى والدتها :

- هذه أمي .. الفضل لها ..

فتغرق الأم في بحر من الدموع .

كانا أسبوعاً احتفال ، ازدحماً بكل مظاهر الاحتفاء . حفلات عشاء ، وهدايا ، وباقات ورد .. وتبريكات . اتصالات هاتفية ، ورسائل جوّال ، وفاكسات . وقت سمته : كرنفال حب . عادت بعد هذا (الكرنفال) لتغرق في دوامة العمل . اعتادت أن تضع هاتفها الجوّال على وضع الصامت ، حينما تدخل العيادة . حين توقفت عند صلاة الظهر عن استقبال المرضى ، نظرت إلى الجوّال لترى ما

قد يكون وصلها من رسائل ، أو فاتها من اتصالات . لاحظت أن هناك أكثر من

□□ اتصالات فائتة . حين استعرضتها ، انتابها قلق . سبع من هذه

الاتصالات جاءت من والدتها . بادرت بالاتصال ، وهي تظن أن أمراً سيئاً

أصاب أهلها . دق جوال أمها حتى انقطع الرنين .. فازداد قلقها . أعادت

الاتصال ، فجاء صوت أمها عاجلاً :

– هلا عيوش .. أقلقتك يا عمري ..!

– سلامات يا أمي ، عسى ما شر ..؟

– أشغلتني أم فهد اللاوي ، من صباح رب العالمين وهي تتصل . تقول إن زوجة

ولدها في المستشفى تنتظر الولادة .. تواجه مشكلة في تنويمها ، وزوجها مُصرٌّ

على أن تُولدها دكتورة ، واتصلت بي ، تبغى فزعتك ..!

– فهد اللاوي ..! ما تذكرين يا أمي أعمال فهد اللاوي ..؟ أنا مجروحة منه ..

والله ..

– كوني أكبر منه يا عائشة ، ولو من أجل أمّه ..!

فهد اللاوي شخص سليط ، وهو أحد أقرباء عائشة من جهة والدتها . يتبنى

موقفاً متشجماً ونشازاً ، ضد دراسة الفتيات في كلية الطب ، من منظور التعصب

القبلي . دراسة المرأة للطب وممارسته ، من الأمور (الوضيعة) ، التي لا تليق

بامرأة تنتسب لأسرة تحترم نفسها .. كما يقول . لم يتورع في كل مناسبة ، عن الغمز واللمز بطالبات الطب ، ونال عائشة منه الشيء الكثير . كان يسميها (المسترجلة) ، ويقول عنها : " من سيـتزوج بنتاً ، تقضي من الوقت ، تخالط الرجال ، أكثر من الذي تقضيه في بيتها " .

بيّنت عائشة في نفسها أمراً . اتصلت بإحدى زميلاتهما ، طبيبة نساء وولادة ، وشرحت لها موقف الرجل ، ورجتها أن تقبل المرأة لتكون مريضتها ، وتتولى توليدها . اتفقت معها كذلك ، أن تطلب من المرأة ، أهمية أن يتصل زوجها بعائشة ، ويطلب منها أن يتولى توليد زوجته طبيبة .. على اعتبار أنها هي المسؤولة ، دون أن يعلم أنه يتصل بعائشة . اتصلت زوجة نايف اللاوي بزوجها ، وأبلغته ضرورة أن يتصل بالمسؤولة ، لأنها صاحبة القرار ، بأن تكون هي ، تحت إشراف دكتورة تقوم بتوليدها .

اتصل فهد اللاوي بعائشة ، وعرف بنفسه ، وسأل .. بصوت فيه الكثير من الخضوع ، أن تقوم طبيبة بتوليد زوجته . كانت مفاجأة كبيرة له ، أن يعلم أن من يتحدث معها هي عائشة ، التي لم تبقَ نقيصة لم يلصقها بها . حاول أن يبدو أكثر لطفاً ، وأكثر تقديراً وامتناناً . لكنها أشعرته أنها لن تعمل هذا من أجله ، وإنما من أجل والدته التي اتصلت بوالدتها ، ملمحة إلى مواقفه السابقة . زميلتها أيضاً ، أخبرت زوجته أن تدخّل الدكتورة عائشة الصالح ، هو الذي

جعلها تقبل أن تكون مريضتها ، وتقوم بتوليدها ، بالرغم من أن جدولها
مزدحم بمريضات أخريات ، وهي ليست من المراجعات المنتظمة للمستشفى ..
ثم أضافت :

– هل تعرفين ماذا كان يقول زوجك عن الدكتورة عائشة والطبيبات ..؟

استحت ولم ترد ..! لا يخفاها ما اعتاد زوجها أن يقول عن الطبيبات ،
والعاملات في القطاعات الصحية ، مقولته التي دائماً يرددتها
: ” بنات (الحمائل) لا يشتغلن هذه الشغله ” . بعد أن انصرفت
الدكتورة ، اتصلت زوجته بعائشة وشكرتها بشدة ، واعتذرت عن مواقفه
وتصرفاته :

– أنا متأكدة أنه سيشعر بالخجل من كلامه السابق .

في المساء حين عادت عائشة إلى البيت ، أخبرت أمها أن مشكلة زوجة فهد
اللاوي ، تم حلّها ، وأنها الآن .. ربما ، في غرفة الولادة ، تحت إشراف
إحدى زميلاتهما . سعادة والدتها كانت كبيرة ، ليس من أجل أم فهد اللاوي .
لكن لأن تصرف عائشة ، يعبر عن شهامة ، وسيخرس لسان ولدها ، الذي نال
ابنتها منه الشيء الكثير . لم تفوّت الفرصة ، فسارعت للاتصال بأم فهد :

- أبشرك يا أم فهد .. الدكتورة عائشة ، جزاها الله خيراً ، توسطت لزوجتي ولدك ، عند واحدة من زميلاتنا الدكتورات .

- جزاها الله ألف خير ، وجعل ما قامت به ، في ميزان أعمالها .

- هذه عائشة ، التي لم يبق شيء لم يقله فهد فيها ، وفي زميلاتها !..!

- لا عليك منه يا أم أحمد .. سفيه . عائشة تاج رأسه .

كانت قد تعمّدت ، أن تجعل جهاز الهاتف على وضع السماع الخارجية ، لكي تسمع عائشة الحوار . حين قالت الأم عن ولدها أنه سفيه ، وأن عائشة تاج رأسه ، ابتسمت ابتسامة عريضة ، والتفتت نحو عائشة ، وغمزت لها بعينها . هزت عائشة رأسها ، وردت على ابتسامة أمها ، بابتسامة خفيفة . لم تكن تفضل أن تشمت أمها بالرجل أمام والدته . لكنها .. قدرت شعور والدتها تجاهها .. ودفاعها عنها .

أحياناً تبدو الأمور ، وكأن الأحداث تجري وفق مصادفات مرتبة . لم يمر عليها أسبوع .. من قبل ، يمثل هذه الصدفة الغريبة . اليوم الأحد يوم عمل مزدحم . لديها عملية في بداية اليوم ، ثم جولة ميدانية على المرضى .. وبعد الظهر عيادة . في آخر النهار كانت منهكة جداً . قبل أن تعود إلى البيت ، مرّت على مكتب ، تشترك فيه مع بعض الزميلات ، وأخذت بعض الأوراق

وجوّالها ، الذي تركته الصباح ، لأنها .. في هذا اليوم بالذات ، لا تحتاجه
أبداً . في طريق العودة ، أجرت اتصالاً مع والدتها .. تطمئنّها على نفسها ، كما
اعتادت أن تفعل ، في نهاية كل يوم عمل . فوجدت برد والدتها ..
الذي تأخر ، وكان مجرد (نعم) جافة ، بدلاً من : (هلا بروحي وعيوني
) ، التي اعتادت أن تسمعها منها ، كلما ردت على اتصالها . سلمت .. وقبل
أن تستوعب المفاجأة من ردها البارد ، بادرتها أمها :

- عيوش .. أنت غيرت رقم جوالك ..؟

- لا .. ليه يا أمي ..؟

- أيش الرقم الجديد هذا ..؟

. أدركت أن ثمة خطأ ما .. وقع . تأملت الجهاز ، فاكتشفت أنه يشبه جهازها .
شرحت لأمها ، أنها أخذت بطريق الخطأ ، جوال زميلة لها ، يشبه جهازها
. لم يكن من وسيلة لمعرفة صاحبة الجوال ، إلا انتظار اتصالها عليه .. للسؤال
, أو مراجعة الاتصالات والرسائل الصادرة والمرسلة . مر وقت .. بعد وصولها
البيت ، ولم يرد أي اتصال . دفعها الفضول ، لاستعراض الاتصالات الصادرة .
لم تكن كثيرة ، وليس بينها مكرر ، إلا واحد تم الاتصال به مرتين . لاحظت
أنه الرقم الرديف ، لجوال إحدى الزميلات . شكّت أن يكون رقم زوجها .

أرادت أن تتثبت أكثر قبل الاتصال ، ففتحت صندوق الرسائل المرسلة . كان فيها رسالة واحدة .. تحمل نفس الرقم المتصل به ، فتأكدت أنها هي .. رشا .
قرأت الرسالة :

” وددت أن أقول شيئاً .. كنت هذا النهار ، فارسي النبيل والجميل ” .

” كنت فارسي النبيل والجميل ” . الرسالة جميلة .. ما أعذبها ، أرسلتها لزوجها .. همست لنفسها . ارتاحت أنها عرفت صاحبة الجوّال ، لكن الرسالة أثارت شجنها . منذ سنوات ، وهي تنتظر (فارسها) ، الذي لم يأت .. !
لواعج حزنها ، التي صارت تتنامى ، جعلها تذكر الله . خشيت أن تحسد صاحبته .. التي لها (فارس) تؤوب إليه ، وتلون به . يتمدد الحزن ، ويتناثر في أعماقنا ، مثل بقعة نפט ، تنتشر على سطح البحر .. لا نستطيع أن نحاصرها ، أو نسيطر عليها . تماماً .. حين تكون سعادة الآخرين ، تثير دواعي شقائنا . إذ كلما ظننا أننا سلونا ، يفجؤنا وجودها .. مثيراً لذكرى ، أو محرصاً على ألم . نجده يترصّد لنا .. فرحهم ، لينكأ جرح أحزاننا : في رسالة جوّال ، أو حديث باسم .. أو أماكن غفت فيها الذكريات .

أقفلت الجوّال ولم تشأ أن تتصل بزميلتها . خشيت أن تسألها ، كيف عرفت أنه جوّالها .. فتضطرّ أن تقول لها ، أنها اطلعت على الرسالة المرسلة . لا تريد أن تبدو فضولية ، تتجسس على خصوصيات الناس ، ولم تستحسن كذلك ، أن

تعرف زميلتها أنها اطلعت على رسالة ، بينها وبين زوجها ، تحمل قدراً كبيراً وجميلاً ، من الحميمية ، والمشاعر الخاصة . لو حصل وتكدرت علاقتهما ، لاثممتها أنها هي السبب .. وعزت ذلك لعينها . هكذا يفكر كثير من الناس .

من الغد ، أخذت الجوّال معها إلى العمل . في فترة الاستراحة لصلاة الظهر ، وجدت بعض الزميلات مجتمعات في الكافتيريا . سلمت .. ونادت عليهن :
- يا بنات .. أنا أمس أخذت جوّالاً ، ليس لي .. بالخطأ ، وأبحث عن جوّالي .
لم استطع أن أتصل بصاحبة الجوّال لأنه مغلق .

صاحت الزميلات عليها ، وأخبرنها أن زميلتهم رشا ، هي أيضاً معها جوّال لا تدري من صاحبه ، وقد تركته في المكتب ، ويمكن أن يكون هو جوّالها .
ذهبت إلى المكتب وأخذت جوّالها ، ووضعت الجوال الذي معها ، في صندوق البريد الخاص برشا .

لم تمر الصدفة التي جعلتها تطلع على الرسالة ، في جوّال زميلتها .. بهدوء .
الرسالة أيقظت مشاعر كامنة ، وبعثت آمالاً توارت ، أمام دوامة العمل ،
ورتابة روتينه اليومي . حين وصلت إلى البيت ، صلت العصر ونامت ، لتستيقظ في المساء ، على الصدفة الثانية ، على حدث عائلي .. أثار جدلاً . أختها أروى

خطبت اليوم .. للمرة الثالثة ، ووالدها ووالدتها يرفضان تزويجها قبلها .

غضبت واحتجت .. ورفضت أن يربط مصير أروى بمصيرها :

- جاءها نصيبها .. لا تقفوا في طريقها ..! أنا إذا جاء نصيبي سأتزوج .

حديث خالتها أم شهاب الإسلام ، يوم حفلة تخرجها ، عن الفرحة الكبرى بها ، ما زال حياً في قلبها . رسالة الجوّال التي قرأتها في جوّال زميلتها ، عن (الفارس النبيل الجميل) .. أحيت الأمل .. ب (الفارس) الذي لا بد أن يأتي ، ولكنه تأخر . أي صدفة جعلت أروى تُخطب ، ويصر أهلها على أن تتزوج هي أولاً .. لحظة انبعث حلم الفارس من مرقدّه ، بعد طول سبّات .. تساءلت ؟..

تمت الموافقة على زواج أروى ، وبدأت الاستعدادات له . العطلة الصيفية على الأبواب ، لكن برنامجها المزدحم ، لا يسمح لها بمشاركة فاعلة في التجهيز .
قالت لأروى :

- حين تبدأ الإجازة ، يسافر الناس ، ويخف الضغط ، وسأكون إلى جانبك . لو تدرين كم أنا سعيدة بك .. ولك .

- لو تدرين .. كم أنطلع إلى الليلة ، التي أراك فيها عروساً .. يا سندريلا ، دون أن تضطري ، أن تفقدي فرجة حذائك .

ابتسمت عائشة . فهمت أن أختها تلمح لحكاية الفتاة (سندريلا) ، في
الأسطورة الشهيرة .. التي لم يأتها فارس أحلامها ، إلا بعد معاناة وطول
انتظار .

كانتا تتحدثان حين دخلت والدتهما ، فقالت مداعبة :

- هاه .. إن شاء الله فيه تبديل أدوار .. عائشة قررت أن تأخذ العريس .. هذا
؟..

نظرت عائشة لوالدتها بعتاب .. فأضافت والدتها :

- قلبي عليك يا حبيبتي ..

ثم غيرت مجرى الحديث ، موجهة الخطاب لأروى .. لتتفادى جرح مشاعر
عائشة :

- خالتك نورة أخبرتني ، أنها اتصلت على جوالك ، أكثر من مرة .. تريد أن
تبارك لك .. قالت أنه مغلق .

- أكلمها الآن ..

- أكدي عليها ، إن موعد اجتماعنا الأسبوعي .. الأربعاء ، صار في البيت ،
وليس الاستراحة .

اتجهت أروى لغرفتها ، واتصلت بخالتها . كانت مرتبكة .. وبدا واضحاً ،
أنه لم يكن هدف الاتصال الوحيد ، المباركة لها بالزواج . أسرت لها بأمر :

- أتدريين يا أروى .. تحدثت مع عبد السلام .. شهاب الإسلام ، قبل
أيام عن الزواج ، واقترحت عليه عائشة ، لأتأكد من شعوره تجاهها .

- قال لي : " عائشة والنعم .. لكن أنا ما يهمني نجاحها ، ودورها في
المجتمع .. أنا لا يمكن أن أتزوج بنتاً ، تتفرج على عورات الرجال في
غرفة التشريح .

لأنك تعلمت

الزمان : فاصل بين الحضور والغياب . المكان : برزخ بين الوجود واللاوجود .

هكذا كان الأمر ، حينما جاءت به أمه إلى الحياة وأبصر النور ، كل ما فيه حزين .
لذلك ، سموه (الحزين) .

صوته لما يبكي ، كأنه ناي يطلق أفجع الرثاء ، وعندما يتكلم ، فكأنما قيثاره تعزف
لحنا جنائزيا . أما عيناه ، فقد خلقتا من حزن صامت . حارت أمه في شأنه ، وعذب
نفسها حالة ، التي هو فيها . حاولت أن تسميه إسما ، يخالف الحال التي هو عليها
. كأن تسميه البهيج ، أو المشرق ، أو غير ذلك من الأسماء ، لعل ذلك يغير من
الأمر شيئا ، لكن حاله كانت تزداد سوءا ، في كل مرة تحاول فيها أن تفعل شيئا
مختلفا .

ذهبت به إلى الأطباء ، وعرضته على كثير من الحكماء . كانت الإجابة في كل مرة :
"لا أمل .. سيبقى هكذا ، حزينا ، يتدفق الحزن منه ، إذا حكى ، أو نظر ، أو حتى
تبسم" .

ماذا بقي ؟ تساءلت . - لماذا لا تجربين إمام المسجد ؟ قالوا لها . يقرأ عليه شيئا
من القرآن ... يرقيه ببعض الأذكار . قرأ الإمام عليه مرات ، وفي آخر مرة قال : -
يا أختاه ... إبنك سيعود طبيعيا يوما ما ، سيزهر الفرح في عينيه ، وسيعود صوته مثل
هزار يغني على فنن ، تسأليني متى ؟ أقول لك : لا أدري ، لكنه سيعود . تقولين
كيف ؟ أقول لك : بالحب ، والحب ... ومزيد من الحب . تقولين كيف ، مرة ثانية
..؟ أقول لك : لا أدري أيضا ، إبنك يحتاج الحب ، ليصير طبيعيا . عادت به ،
وأخذت تذيقه كل أنواع الحب . علمته أن يحب الحرية ، حتى لو غلا ثمنها ، وأن
يحب الحقيقة ، حتى لو عانى من أجلها .

وعلمته أن يحب (الآخر) ، حتى لو اختلف معه . صار يتطور نحو الأحسن ، يومض بريق في عينيه ، ويضيئ جبينه ، وصوته يتحول إلى ما يشبه الحداء . لكن ، ما أن يتحسن لبضعة أيام أو أسابيع ، حتى ينتكس ، ويعود ثانية إلى ما كان عليه ، وتدهور حالته بسرعة ، حينما تنتابها لحظة كراهية لأحد ما . ظلت على هذه الحال ، تغدق عليه الحب فيتحسن ، ثم تعثر بها حالة ضغينة ، فيعود الوضع كأن شيئا لم يكن .

تعبت من هذه الحال ، فهي لا تستطيع أن تمنحه الحب متواصلا ،

خاصة ذلك الحب المتعلق بالآخرين ، والأقربين على الأخص ، الذين يؤثر حبهم ، أو كراهيتهم على تحسن حاله أو تدهورها . رجعت إلى إمام المسجد تشكي له ما تلاقي في سبيل ولدها .

قال لها : - كما ترين يا أختاه ، الحب هو علاج ولدك . أنا أعرف كم هو صعب أن نحافظ على قلوبنا بهذا المستوى من الصفاء والنقاء ، ولو لم يكن الحب بهذه المنزلة لما نادى الرب بين الناس ، يوم العرض : (أين المتحابون في جلالتي ، اليوم أظلمهم بظلي ، يوم لا ظل إلا ظلي) . لا أجد لك حلا ، إلا بأن تحملي نفسك على الحب ، وأن تدعي الله أن يساعدك على ذلك ، وأدعيه أيضا ، أن يقيض لإبنك سببا يكون فيه خلاصه .

عادت ، وقد يئست من شفائه ، فهي تعرف نفسها ، يغلبها عليها الشيطان ، فتعرض لأحد بالكراهية ، خصوصا الأقربين . لماذا كلما كانت الحالة متعلقة بقريب ، أو حبيب ، كان التأثير أشد وأسوأ . .تساءلت ؟ أجابها الإمام : إنها الرحم يا أختاه ، معلقة بالعرش . يقول لها الرب سبحانه : (من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته) ، والكراهية يا أختاه ، تورث قطيعة الرحم ، وتمزق الوشائج ، وتصدع القلوب ، وتغرس نصالها عميقا في الوجدان ، فلا جرم أن وطأتها شديدة على إبنك . ألا ترين أن الحب يعظم أمره على حال إبنك كلما كان شاملا لمحبوب ، أو لذي رحم . إن إبنك

سيعود إنسانا سويا ، متى ما كان قلبك خاليا من الكراهية ، بل يا أختاه ، إن لم يحب ظني ، سيكون إنك منارة لكل شئ جميل ، إذا استطعت أن تبقي شعلة الحب مشتعلة في قلبك للجميع ، لا تكدرها رياح للكراهية من أي نوع ، ولا لأي أحد .
ظلت تحب وتكره ، ووحدها ، وحببيها ، يتردد في ذلك بين الإنتعاش والإنتكاس .
تبكي وتدعو ربها أن يساعدها على الحب ، لتساعده أن يرجع طبيعيا . تدعو ربها ، أن يجعل لابنها سببا يجعل الحب يورق في قلبه باستمرار ، ليكون انسانا طبيعيا ، وليصبح منارة لكل الأشياء الجميلة ، كما قال الإمام . (اللهم ربي إني عجزت ، وفشلت أن أكون ذلك الإنسان الذي أمنيح أمني وحببي ما يكفيه من الحب ليعود سويا) ، هكذا كانت تدعو . وتلح بالدعاء قائلة : (اللهم ربي إني لا أستطيع أن أكون له ينبوعا من الحب صافيا ، فاجعل لي وله ، من لدنك مخرجا ، يا مجيب المضطر إذا دعاه) .

كان حريا أن يجيب الله دعاءها ، وأن لا يرد تينك اليدين الممدودتين ، في جوف الليل ، تبللها الدموع الحارة الصادقة خاويتين . لكن متى يأذن الله بذلك ؟ هذا من أمر الغيب . لذا ظلت تدعو ، وتحاول أن تجعل قلبها مساحة للحب خالصة ...
الحب فقط . ذات صباح جذبها صوت كأنه أهزوجة فرح ، يأتي من فناء البيت الخارجي . الصوت فيه من صوته ، صوت ابنها . لكن أنى يكون هو ، وصوته (نغم) ما خلق إلا للحزن والجوى ، وهذا الصوت ، الذي سمعته الآن ، يشيع البهجة في المكان . هل تراها توهمت بعد طول أمل ؟ ها هو الصوت مرة أخرى . ركضت إلى غرفته ، ولم يكن موجودا في سريره ، والصوت ما زال ينساب إلى داخل البيت عذبا نديا . اتجهت إلى النافذة ، فما هالها إلا أن رآته جاثيا في حديقة الفناء ، حول نبتة غريبة . وجهة كالضحى مشرقا ، وعيناه صافيتان كالسما . إشرأب بعنقه نحوها ، وثغرة يفتر عن إبتسامة ، تومض كالبلور . انطلقت تجري نحوه ، فشاهدت منظرا عجيبا : ابنها يحيط بكفيه شمعة على هيئة وردة . - ما هذه يا حبيبي ، سألته ؟ لم يزد على أن قال : - أمي ... أحبك يا أمي ، وتلألأ وجهة ، بنفس الضياء الذي تنثره

تلك الشمعة . حمدا لك يا رب ، عاد إبني إنسانا سويا . صوته ، وجهه ، عيناه ، كل شئ فيه . ضمته إليها ، فأحست بما لم تعهده فيه من قبل : دفق من الحنان ، والحب ، والعواطف الجياشة ، يسري في جسدها . حمدا لك يا رب .. حمدا لك يا رب ، إن فيض الأشياء الجميلة التي ذكرها الإمام ، تنتقل من ولدي إلي . سيكون بإذن الله ، منارة لكل شئ جميل ، كما قال الإمام . هذه النبتة العجيبة ، التي أنبتها الله ، هي سر تغير إبني . لم يمر غير زمن قصير ، حتى شاع خبر التحول الذي طرأ على (الحزين) . لم يعد مصدرا للحزن والعناء ، كما كان من قبل . وأطلقت عليه ألقاب كثيرة ، كلها ذات دلالات لها علاقة بأشياء جميلة ، من حب ، ورحمة ، وأدب ، ورقة ، وتعاون ، واحترام ، وتسامح . لكن ، لا أحد يعلم أن هذه النبتة العجيبة هي سر التحول .

كانت المرأة خائفة أن يكتشف أحدا السر ، فيعمد إلى الاستئثار بالنبتة ، أو إيذاءها ، أو ربما إتلافها ، حسدا وضغينة . لو حدث ذلك ، فلا شك أن حال ولدها ستتدهور ، ويعود لسالف أمره من الحزن والعناء . عزمتم أن تخبر الإمام بالذي حدث ، وتطلعه على السر ، ففضله عليها ، وعلى ولدها لا ينكر ، كما أنه محل لأن يستودع السر ، بل قد يشير عليها برأي ، يساعدها في حفظ تلك النبتة ، التي تنطوي على سر تحول ولدها .

- يا أختاه .. قال الإمام ، إن هذا من الكرامات التي يمنحها الله لبعض عباده ، لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه . لكن ، يضيف الأمام : إن من طبيعة هذه المعجزات والكرامات ، التي هي خارقة للعادات التي اعتادها الناس ، أنها لا تدوم ، لأن دوامها مخالف لناموس الله في الكون . لذلك يا أختاه ، هذه الشمعة الوردية ، التي كانت سببا في شفاء إبنك ، لا بد أن تزول يوما .

صاحت المرأة بجزع : - ويعود إبني كما كان يا إمام ؟ رد الإمام ، فقال : - إن الله

أوجد هذه المعجزة ، ليتعلم منها إبنك كيف يصير إنسانا سويا . ألم تتألمي في ما وراء هذه المعجزة .. في المعاني التي تقولها ؟

- وضح يا إمام . قالت المرأة ، بصوت يملأه الرجاء . قال الإمام : - معجزة الشمعة الوردية ليست في ذاتها وشكلها ، بل في المعاني التي تحملها . الوردية تحكي البهاء ، والرفقة ، واللمسة الحانية ، والعطاء الطيب ، والمظهر الحسن الجميل ، واللفظ ، وصفاء الظاهر والباطن ، والعفو .. هل رأيت وردة انتقمت من قاطفها ، أو احتجت على من أمتلكها ، واستمتع بها ، واشتم رحيقها ، ثم أهملها .. أو ربما داسها ، وقد ضمها يوما ، وزعم أنه يحبها . الوردية تتألم ، حينما نضع أنوفنا في جوفها ، ونستنزف شذى قلبها ، لنتمتع برائحتها ، فتذوي دون صراخ حتى لا تزعجنا . هي تعطي كل هذا العطاء .. مع هذا ، هل سمعتها يوما تقول : أنا الأفضل .. أنا المصدر الأوحى للبهاء والجمال والشذى .. وما سواي عدم (انتم) بدوني .. لا شيء .

- وماذا تقول الشمعة ؟ - إنها تتحدث عن التضحية ، والإيثار ، وفناء الذات من أجل الآخر ، دون مقابل ، إلا الثواب ..

طبعاً . تتحدث عن كيف يمكن أن نحترق حبا وعطاء ، من أجل إسعاد الآخرين . عن الضوء ... كيف ينداح الوهج علويا ، ويتمدد في كل إتجاه ... يتنزل على جميع الوجوه ، ويعانق كل العيون . يختلط بها ، وهو فوقها ، ومن بينها . هل (سمعتة) يوما ، يحدث خريشة ، أو ضوضاء ، ليجذب نظر الناس إليه .. ليشعرهم .. ليقول لهم : أنا فوقكم .. أنا اتنزل عليكم .. (أنتم) بدوني لا شيء ..؟ تألمي الشمعة يا أختاه كيف تذوب بصمت ليقى الآخرون ، من نحب ومن لا نحب ، يمارسون حياتهم بشكل طبيعي ، لا تكدر صفوهم الظلمه . الشمعة تتألم ... تبكي بصمت ، حتى لا تتعكر أمزجتنا . وإذا ما جثم الظلام ، هرعنا إليها .. نتذكرها .. ونسرف في الحديث عن حاجتنا إليها ، وأهميتها في حياتنا .. فقط حينما نحتاجها .. فقط حينما يهيمن

الظلام ، ولا يبقى مضيئاً إلا هي .. (وحدها) ، ونحن نتخبط في ظلماتنا . ظلمات حسدنا ، وأحقادنا ، وأنفسنا المريضة ، وذاتيتنا المفرطة . هل رأيت هذه المعاني ، وغيرها كثير ، مما يجب على إبنك أن يتعلمه من هذه المعجزة التي لن تدوم ؟ لأنها ما دامت للأنبياء من قبل ، وهم خير الخلق . إن إبنك لا بد أن يتعلم كل هذا ، ليبقى طبيعياً ، ويكون أنموذجاً لكل ما هو جميل . - وأنا ماذا أفعل يا إمام ؟ سألت المرأة . - أنت عليك أن تساعدته ليتمثل كل تلك القيم الجميلة ، ثم الدعاء . فببركه دعائك كام ، سيتحقق الكثير إن شاء الله . لم يمض وقت طويل ، حتى أفاقت ذات يوم على الشمعة وقد أنطفأت ، والوردة وقد ذبلت . لم تهتم ، لأنها كانت تتوقع ذلك ، ولأنها لاحظت ، ويا للعجب ، أن الناس صاروا يصفون إبنها بأنه كالشمعة أو كالوردة ، دون أن يعرفوا سر ، القيم الجميلة التي حازها ، وغمر بفضلها القريب والبعيد . أخذته بين يديها وضمته إلى صدرها ، وقالت :

حبيبي ... ستبقى هكذا ، جميلاً ، مضيئاً ، مشرقاً ، محبوباً ، من ربك والناس ...
لأنك تعلمت .

موضي حلم تحت الأقدام

الساعة تقترب من الثامنة حينما استيقظت .. لقد تأخرت ... قلتها .. وأنا أصر
أسناني غيظا ، من المنبه .. الذي يخذلني في كل مرة ، نفضت الشرشف عن جسمي
، وقفرت من فراشي . الربع ساعة التي أمضيها عادة في الاستعداد ، أختصرتها إلى
خمس دقائق . ركبت السيارة وأنطلقت ، كل شيء إختصرته .. إلا السرعة ، فإنها قد
تضاعفت . يجب أن أصل ، ولو أدرك نصف الاجتماع . كان ذهني مشغولا بحساب
عدد التقاطعات المتبقية ، حتى أصل إلى الطريق السريع ، عندما دوى إرتطام ، عنيف
في الجانب الأيمن من مؤخرة سيارتي ، وعكس اتجاهها تماما ، حينما استعدت
توازني ، بعد مفاجأة الصدمة ، كانت (أشلاء) سيارتي متناثرة أمامي ، ولمحت من بعد
، السيارة التي صدمتني تلوذ بالفرار ..
قلت في نفسي : سيارة فخمة .. لماذا يهرب صاحبها ، ورفرف من رفارها يعادل
قيمة سيارتي ..؟

لم أحتج لتفكير طويل ، لكي أقرر أن أطارده وأنسى الاجتماع . الصدمة قوية ،
والتلفيات في سيارتي كبيرة ، وأنا لا أستطيع أن أتحمل خسائر بهذا الحجم ..
الاجتماع يمكن أن يعوض . هكذا حدثت نفسي ، وأنا أنطلق وراءه بنصف سيارة
تقريبا ، كان مرتبكا ، لذلك لحقته بسرعة ، وبدأت مطاردة غير متكافئة بين سيارته
الفارحة ، وال (نصف) المتبقي من سيارتي . شعر أنني مدركة .. لا محاله ، فأنا
صاحب حق ، والوضع الذي آلت إليه سيارتي ، لم يبق لي شيئا أخسره ، عند أحد
المنعطفات خفض من سرعته كثيرا . لاحظت ذلك ، من نور الكوايح الذي ظل
مضاء أطول من كل مرة . لقد استسلم .. قلت لنفسي ، وبدأت آخذ وضع
الاستعداد للوقوف

فجأة .. رأيت باب الراكب الذي بجانبه يفتح ، ولاحظت أنه يميل ، ويدفع (شيئا)
إلى الخارج .. ثم أعقب ذلك صرير عال لعجلات سيارته يصم الآذان ، وهو ينطلق

بسرعة عالية ، تاركا المكان ممتلئا برائحة إحتراق الاطارات ، إثر إحتكاكها الهائل بالارض ، حينما فتح الباب .. وقذف بذلك (الشيء) ، كان أول ما سقط حقيقه .. ثم شيئا ملتفا بقماش أسود .. كأنه : - يا إلهي .. امرأة .. بل فتاة ، هكذا صرخت ، وأنا أتقدم ببطء تجاه ذلك (الشيء) ، الذي قذف من السيارة .

نهضت الفتاة.. وأخذت تنفض الغبار الذي علق بعباءتها ، وتراجع ملتصقة بالجدار . حينما اقتربت منها ، أخذت تبكي ، وهي تلملم أطراف (مربولها) الذي تمزق ، إثر سقوطها من السيارة .

- طالبه .. قلتها ، وأنا أنظر إلى (مربولها) ، وأغراضها المدرسية التي تناثرت من حقيبتها .. وقفت قريبا منها ، وصرت أسمع بكاءها ، وحشجة صوتها وهي تقول :
- أرجوك .. أرجوك .. أستر علي ، الله يخليك .. لا تفضحني ..

لم أدر ماذا أصنع . شعرت بإرتباك وحيرة شديدة .. وتعطلت قدرتي على التفكير . الموقف يبعث على الريبة : أنا .. وفتاة .. على ناصية الشارع . ثوبها ممزق ، وأغراضها مبعثرة على الأرض .. قلت لها .. بعد تردد ، دون أن أحدد ما هي خطوتي التالية : - اركبي .. سأوصلك إلى بيت أهلك .. صاحت ، بهلع : - لا .. لا أريد بيت أهلي .. ستدبحني أمي .. أرجوك ..

كان يجب أن أتصرف بسرعة ، خاصة وأن المشهد أصبح ملفتا للنظر ، السيارات المارة ، صار أصحابها يحدقون بنا ، وكاد فضول بعضهم يدفعه للتوقف ، - اركبي الآن .. ونتفاهم فيما بعد .. في المقعد الخلفي لو سمحت ..

شرعت أجمع أغراضها ، التي تناثرت من حقيبتها المدرسية .. ثم عدت أدراجي إلى السيارة ، لم تكن قد ركبت !!

- لماذا لا تركيبين ..؟

- الباب لا يفتح ..

- تعالي إلى هذا الباب ..

ألقيت نظرة إلى داخل السيارة ، كان حطام الزجاج يملأ المقاعد الخلفية .. - أووف .. لا باس .. إركبي في المقعد الأمامي ..

ركبت ، وحينما أستوت على المقعد ، أخذت تجمع عباءتها ، لتغطي بها (مربولها) الممزق، الذي أنشق عن ساقها إلى أعلى ركبتهما بقليل . لمحت كفها .. بيضاء صغيرة ، خمنت أنها لا تزيد عن الخامسة عشرة

- تدرسين ..؟ - نعم .. - في أي صف ؟ - الثالث متوسط ..

كان ظني في محله .. لون (مربولها) يشبه لون مربول شقيقتي ، التي تدرس في نفس المرحلة .

وش إسمك؟؟ إسمي موزي

كنت أسير بالسيارة على غير هدى ، وطاف في رأسي كثير من الأفكار : أسلمها للهيئة .. ارجعها إلى بيت أهلها .. أعيدها للمدرسة .. أنا قطعاً لا أستطيع أن ابقها معي

سألتها : - موزي .. من هذا الذي كنت معه ..؟ لم ترد على سؤالي .. ولا أدري تحديداً لم سألتها . كنت أريد أن اخلق حواراً ، لأصنع جواً من الثقة ، يساعدني في فهم ملابسها أمرها .. ويمهد الطريق إلى قلبها ..

القلوب المغلقة مثل دهاليز الاستخبارات .. مرتع خصب للخوف .. والتوجس ..
والشك .. والريبه .. الساعة الآن تجاوزت التاسعة والنصف .. الوقت يمضي ،
وأمامي أعمال كثيرة يجب أن أؤديها ..

حين فشلت محاولتي لإستدراجها للكلام ، رأيت أن احسم الموضوع مباشرة .. قلت
لها : - موزي يجب أن تختاري بين أمرين .. أسلمك للهيئة ، أو أوصلك لبيتكم ..
بقاؤك معي غير ممكن .. كما أن أهلك لا بد أن يعرفوا عن سلوكك .. انفجرت باكياً
، وبطريقة تنم عن سلوك طفولي حقيقي ، رفعت غطاء وجهها ، وهي تتوسل إلي بعينين
دامعتين ، أن لا أفعل ... - أرجوك ... إذبحني .. لكن لا تسلمني للهيئة .. لا
(توديني) لبيتنا .. والله هذي أول مرة أطلع فيها مع رجال .. ضحكت علي البندري

اشفقت على ذلك الوجه الطفولي البرئ . قلت لها ، وأنا أسحب يدي من يديها ،
وهي تحاول أن تجرّها لتقبلها ، رجاء أن لا أسلمها للهيئة ، أو لأهلها : - طيب ..
طيب .. خلاص .. لن أسلمك لأحد .. لكن ما العمل ..؟

- إذا جاء وقت طلوع الطالبات .. أنزلني عند المدرسة .. - متى ..؟ - الساعة
الواحدة .. بعد صلاة الظهر ..

- بقي أكثر من ثلاث ساعات .. وأنا مشغول .. أطرقت لحظات ، تعاقب خلالها
على وجهها إنفعالات من كل نوع .. الرهبة .. القلق .. الخوف من المجهول .

ثم نظرت إلي بعينين فارغتين تماما من أي بريق .. وقالت : - نزلني عند المدرسة ..
- وبعدين ..؟ - أنتظر .. وإذا طلعت الطالبات .. أروح لبيت أهلي ..

شعرت في أعماقي بحزن شديد لهذه البراءة الساذجة . هي بالتأكيد ليست من ذوات السلوك المنحرف المتمرسات .. ولا تعي خطورة الذي تقوم به .. ولا عاقبة تصرفاتها .. - أنت صاحبة .. تقعين في الشارع ثلاث ساعات ..؟

لم ترد بشئ ، لكن الفضول دفعني لأن أسألها عن مكان مدرستها ، لأستدل من ذلك على اسم الحي الذي يسكنه أهلها ... - أين مدرستك يا موزي ..؟ - في حي الأمل .. حي الأمل ..؟

شعرت بمثل المسمار يخترق قلبي .. هذا من المضحكات المبكيات . ما أكثر ما نسمي الأشياء بغير حقيقتها .. ما أكثر ما نزيّف المعاني .. والواقع .. والاحلام ..

هذا أفقر أحياء الرياض .. لو سموه (حي اليأس) .. أو البؤس .. أو التعاسه . الأمل ..؟ إن كان فيه للأمل بصيص .. فوجود هذه (الزهرة) فيه .. هذا الكائن الطفولي الذي تتعرض البراءة فيه للإغتيال ..

تداعت إلى ذهني الصور والمعلومات التي لدي عن حي (الأمل) ، وحاولت أن أفهم العلاقة بين تلك السيارة الفخمة وحي (الأمل) ، حيث تقيم موزي . لا يمكن أن يكون صاحب تلك السيارة يقيم في ذلك الحي ..

لسبب بسيط هو أن ثمنها يعادل قيمة خمسة من (جحور) ذلك الحي ، التي يطلق عليها مجازا .. (منازل) .. كما أن سيارته ستجد صعوبة في إختراق زواريب ذلك الحي ، الذي لا يتسع أحدها ، إلا لمرور سيارة واحدة صغيرة .. ولأن سكان ذلك الحي كذلك .. غالبا ما يتسبون بإغلاق الشوارع ، بايقاف سياراتهم بطريقة خاطئة ، لا تتحملها هذه الطرق ، الضيقة أصلا .

ماذا يكون ...؟ إنه .. (أحدهم) .. إنه فجور المترفين ، إذ يتربص بعوز المحرومين ..
وحرمان البؤساء ، ليطلق غرائزه .. تفتك بإنسانية البسطاء .. وتفترس الشرف ،
والكرامة ..

أعرف هذا الحي . جئته في أحد المساءات ، قبل عام تقريبا ، بصحبة صديق ملتزم ،
من الناشطين في الأعمال الخيرية التطوعية .. لتوزيع صدقات عينيه ومالية . لا أدري
كيف أقنعني عبدالكريم أن آتي معه . فأنا رغم تعاطفي مع حالات البؤس الانساني ،
إلا أنني سلبي جدا في التعاطي معها . أحتاج إلى وقت طويل ، لأتفاعل مع الحدث
، أو الحالة ، وأحتاج لوقت مثله ، لأترجم التفاعل إلى فعل ..

لم تكن المرة الأولى التي يعرض علي عبدالكريم فيها مرافقته ، للقيام بمهمات من
هذا النوع ، وكنت في كل مرة ، أتذرع بحجة مختلفة . لكنني أتذكر ، أنه في تلك
المرة استفزني .. وسخر من (الانسان) البليد ، الجامد في داخلي ، كما قال :

– هل تريد أن ترى البؤس يمشي على قدميه .. هل تريد أن تستعيد شيئا .. شيئا
فقط ، من إنسانيتك المهدره ، بين كلام مجرد عن المثل والأخلاقيات ، التي لم
تجد لها رحما تتخلق فيه .. لتولد .. وتشب .. وتكبر .. وتمنح الحياة ، لكائنات لم
تعرف معنى للحياة منذ خلقت ..

وبين سلوك استهلاكي بشع ، حولتك الرأسمالية المتوحشة من خلاله ، إلى (آلية) من
آليات السوق .. أنت في قوائم التحليل الاقتصادي ، عند (آدم سميث) ، وتلامذته
.. رقما .. آليه .. قدرة شرائية .. أنت بإختصار .. (لا إنسان) ..

دع عنك الهمهمة المعتادة :

"الله لا يؤاخذنا صرفنا واجد اليوم" ..

اليوم .. وكل يوم .. أنت تفعل الشيء نفسه .. تتقمص نفس الدور المسخ .. (آليه)
..

كأني بك مسرورا ، وهم ينادونك :

MR. MARKET MECHANISM

اليوم .. وكل يوم .. أنت تمارس بسادية ، وأد الانسان في داخلك .

تعال معي لتستعيد إنسانيتك ، حينما يفجرها الألم .. لمشهد الحرمان .. الذي
يصنعه الفقر ..

تعال لترى الانسان عند نقطة الصفر .. كيف هو ..

أتعلم ماذا يكون الانسان عند نقطة الصفر .. ؟

تستلب الحياة من كل شيء فيه .. إلا عينيه ..

أتعلم ماذا يكون الانسان عند نقطة الصفر ..؟ الكلمات في قاموسه ليس لها أصداد
.. أنت تعرف السعادة .. وربما سمعت عن الشقاء ، هو لا يعرف الا الشقاء .

أنت تعرف شيئا اسمه الحزن .. والفرح ، هو لا يعرف إلا الحزن ..

أنت تعرف الشيء ونقيضه ، بدرجات متفاوتة .. هو يعرف الكلمة وحدها .. بمعناها

السلبى فقط .. بدون أصدادها ، وبأقصى درجاتها قسوة ..

البؤس .. والعجز .. والحرمان .. والألم .. والعري .. والجوع ..

استفزني عبدالكريم بكلامه ، واستثار التحدي عندي ، فقررت أن أذهب معه .. لأرى هذه (البيئة) التي سوف تعيد خلق الانسان في داخلي ، كما يقول ، ولأؤكد إذا ما كان ذلك (الانسان) الجامد البليد موجودا ..

كنت اتنقل مع عبدالكريم ، من بيت إلى بيت .. كنت معه في سباق مع الألم .. في كل مرة يغرس نصلا ..:

- أترى هذا الطفل .. لا يملك إلا ثوبا واحدا .. إذا عاد من المدرسة خلعه .. وخرج إلى الشارع ، يلعب بسرور فقط .. أتدري لماذا ؟ .. ليس لغزا .. ولا رياضة ذهنية .. إنه لا يملك غيره .. ويجب أن يبقى نظيفا .. حتى يستطيع أن يذهب به من الغد إلى المدرسة ، لم ينتظر مني تعليقا ..

في بيت آخر .. - رأيت هذه الطفلة .. تم سحبها من المدرسة بعد أن وصلت الصف الرابع .. لا .. أهلها ليسوا ضد تعليم البنات .. لكنهم اضطروا لذلك ، لأن شقيقها وصل سن الدراسة .. وليس لديهم القدرة على الصرف إلا على (دارس) واحد .. فكان الولد ..

من منزل لآخر .. حتى استغرقتنا النصف الأول من الليل .. كنت لا أسمع .. إلا :
أرأيت .. أرأيت .. كان عبدالكريم ، وهو يتجول بي من بيت لبيت .. يفتح أمامي أبواب الحزن والبؤس .. على مصاريعها .. ويوقفني على مشاهد للحرمان .. ويسكب في عيني ألما ..

- توصلني قريب من مدرستي .. لو كلفت عليك ..؟ أتى رجاؤها مخنوقا .. ممزوجا بالخوف ، ليقطع علي سلسلة الصور التي تداعت إلى ذهني عن حي الأمل ، وما بقى من آثار تجربته إعادة اكتشاف الانسان البليد الجامد، المغموس بالتفاهات ، الموجود في داخلي ... - لا ... تبقيين معي إلى وقت الخروج من المدرسة .. ثم أوصلك .. غمرها شعور بالسكينة .. لاحظت ذلك وأنا أرى صدرها يهبط .. ثم تطلق نفسا عميقا ، دفع غطاء وجهها إلى الأمام ..

أخذت أقلب الأفكار فيما أفعله ، لأخرج من هذا المأزق الذي وقعت فيه . الواقع المزري لحي الأمل كان حاضرا ، وأنا أبحث عن حل يتجاوز .. أن (أتخلص) أنا ، من (ورطة) موضي .. كنت أريد حلا لها هي ، حتى لا تعود لنفس الطريق . من السهل أن (أرميها) ، كما تقول ، قرب مدرستها ، لتذهب لبيت أهلها ، وسوف تجد إجابة تقنع بها أمها ، عن سبب تمزق (مربولها) ، أشعر أنني غير قادر على الخروج بشيء ذي بال .. في موضوعها . هل يملك (رجال الهيئة) حلا يعطي التجاوز فرصة ، ويوفر علاجا جذريا ، لو أنني لجأت إليهم ..؟

ماذا لو اتصلت عليهم لطلب الاستشارة فقط ..؟

مرت دقيقة أو أكثر ، والأفكار تطوح بي يمينا وشمالا ، قبل أن يقطع تفكيري صوت بكائها. توهمت في البداية أنها سمعنتي ، وأنا أحدث نفسي حول الاتصال بالهيئة . التفت إليها ، كانت قد وضعت وجهها بين كفيها وتنتحب ... - ما بك يا موضي ..؟ قالت بصوت يقطعه البكاء - كيف أشكرك .. (وشلون) أشكرك ..؟

لم يكن بكاؤها عن سبب ، كانت تفرغ شحنة عاطفية مكبوتة ، منذ الصباح ، وهي تراكم هما .. وخوفا .. وإحباطا .. وعجزا .. وقلقا .. وتنتظر أملا .. حين أقتربت من

مقر عملي ، قلت لها : - موزي .. سأنزل هنا .. لدى أمور سأنجزها .. قد يحتاج ذلك ساعة أو أقل . سأقف هنا .. المكان آمن .. سأترك مكيف السيارة مفتوحا . أبق الأبواب والزجاج مغلقة ، لا تفتحي لأي إنسان ، مهما كانت الاسباب .. ولا تغادري السيارة أبدا . سأترك جوالي معك .. إتصلي على هذا الرقم عند أي طارئ .. ولا تردي على أي إتصال .

كنت أهم بالنزول ، عندما قالت : - خذ الجوال .. أنا لا أعرف كيف استخدم الجوال .. هذه أول مرة في حياتي .. أرى فيها جوالا ... توقفت للحظة ، قبل أن آخذ منها الجوال ، الذي بقى في يدها الممدودة .. وشعرت بمثل حد السكين يحز في أعماقي .. وتداعت إلى ذهني قصة (ولد البسام) .. والصدى يجلجل في تلك المساحات الفارغة ، في قطعة اللحم التي تدعي مجازا (قلبا) : "هذه .. أول مرة .. في حياتي .. أرى فيها .. جوالا ..."

.. يا لبلادة المترفين ... ألتقطت منها الجوال ، والمرارة .. والشعور بالاحباط .. وغياب (الانسان) ، ترغم شفتي على الانفراج ، لتصنعا شيئا يسمونه (إبتسامه) ... -
ليه تضحك .. ما أنت مصدقني ..؟

- مصدقك .. والله يا عمري .. - أجل ليه تضحك ..؟ - أضحك على الإنسان البليد في داخلي .. الرقم .. العينة المسحوية في أبحاث السوق .. - ما فهمت ... - تفهمين بعدين ...

أغلقت الباب ومضيت . حينما سرت بضع خطوات سمعت نقرا على الزجاج .. النفث ، كانت تلوح بيدها ، تناديني ، رجعت ، ولما فتحت الباب ، قالت : - أبغى أطلب منك طلب .. لكنني خجلانه ..

- تفضلي ... - أنا جايعة .. من أمس الظهر .. والله ما ذقت شئ .. أصل أمس ...
خلص الزيت ، وما قدرت أومي تطبخ .. وحنا .. بعد .. يعني ... لم تستطع أن تكمل
عبارتها ، ولم تقدران تفصح عما كانت تريد قوله ، كانت تفرك كفيها ببعضهما ،
مطأطئة رأسها

حرت في مكاني لبضع ثواني ، ها هو الانسان البليد في داخلي ، يتلقى صفقة ثانية ،
- جائعة .. وأنا رائحة الشواء ، الذي أتخمت منه البارحة ، حتى لم يبق مكانا لنسمة
هواء .. ما زالت خياشيمي ..

هناك شئ نفعله حينما يبلغ بنا الشعور بالمرارة والمهانة أقصاه ... نبصق على شئ ..
صورة المسئول في الجريدة .. مثلا .. أو على الارض بجانبنا ، وهو أقصى إحتجاج
نقدر عليه ، كنت أريد أن أبصق على خيالي ، الذي يعكسه الزجاج .. على (شكل)
الانسان الذي ادعي أنه موجود لدي ، كنت أهم بأن أفعل ذلك ، لكنني خشيت أن
تفهم أنها هي المقصودة ..

رفعت رأسها ، وأنا مازلت واقفا . كانت عيناها تلمعان من خلف غطاء وجهها .
قالت ، وهي ما تزال تفرك كفيها ، لكن بوتيرة أقل : - الظاهر أن طلي ما كان في
محلّه ... أو (شكلي) أخرجتك .. - لا .. ابدا .. نمشي الآن ...

كنت على وشك أن أغلق الباب حين لمحت بقعة دم على ثوبها ، قريبا من موضع
الركبة . انقبض قلبي بشدة ، وداهمني خاطر سئ .. وشعور بالغضب ، لم أستطع أن
أواريه ، فقلت لها بلهجة جافة .. لا تخلو من إتهام : - موزي .. من وين الدم هذا
؟.. - انجرت ركبتي .. يوم طحت من السيارة ..

عيناها ما زالتا تلمعان من خلف الغطاء .. معلقتان بوجهي ، الذي ارتسمت عليه

علامة استفهام كبيرة .. أحست أن إجابتها لم تقنعني ، وأني لم أصدق كلامها ، فأزاحت عباءتها ، ورفعت ثوبها عن موضع الإصابة ، دون أن تتكلم ، أو ترفع رأسها ، كان جرحا سطحيا ، تيبس الدم حوله . ليس عميقا ، لكنه بدا ، بلونه الداكن ، وتشققاته ، التي أبرزها إهابها الأبيض الرقيق ، مشيرا للألم والشفقة ، أغلقت الباب ، وركبت من الناحية الأخرى . كانت ما تزال مطأطئة رأسها .. أعرف أني جرحت كرامتها

كثيرا ما نوقع أذى بهذا الحجم وأكثر ، بالآخرين .. وكثيرا ما يكون ذلك بدافع من الشعور بـ (طهرانية) مبالغ فيها لذواتنا .. والشعور بـ (دنس) الآخر ، وقابليته للخطيئة ، التي تحتاج إلى (مخلص) مثلنا .. لم يقف يوما في صف ، ويسمع ، "من كان منكم بلا خطيئة .. فليرمها بحجر ..."

.. وأحيانا نمارس الأذى ، ونوقعه بقسوة .. لا تعطي فرصة للتجاوز .. على من نحب .. بدعوى الحب ، كيف يؤذي من يحب ...؟

حاولت أن أغير الموضوع ، وألطف الموقف ، بسؤالها عن ماذا تريد أن تأكل ، لكنها لم ترد. فكرت أن أشتري لها سندويشات وعصير ، لكني لا أعرف محلا قريبا ، يقدم هذا النوع من الفطائر ، وعملية البحث ستأخذ مني وقتا .

اتجهت إلى مطعم قريب ، يقدم وجبات سريعة . في الطريق إليه لمحت صيدلية .. نزلت وأشترت شاشا ومعقما ولاصقا ، وصلنا المطعم .. قلت لها : - انزلي ... - إلى أين ..؟ - إلى المطعم .. لتفطري ...

نزلنا وفي قسم العائلات ، أخذنا إحدى المقصورات . كانت تتلفت .. واضح أنها تدخل مطعما لأول مرة .. قالت ببراعة : - آكل قدام الناس ... ما يشوفوني الرجال

...؟ - لا .. أنت لوحدهك هنا ..

تيقنت أنها بريئة .. ولم تتمرس على الانحراف .. تستحي أن يراها الرجال كاشفة وجهها وهي تأكل ، الحياء لا يتكلف ، ولا يصطنع ..

التظاهر في مثل هذه المواقف ، بغير الحقيقة ، يتطلب درجة عالية من الخبث ،
والتمرس على المكر .. لا يمكن أن تتقنه طفلة في هذا السن ، وأوجعني قلبي مرة
أخرى .. أن ظننت بها ظن السوء ..

طلبت لها أكلا ، وسألته إن كانت تريد عصيرا بعينه ، قالت : - أبغي (كوتيل) .. -
تقصدين كوكتيل ...؟ - ما أدري .. أسمع البنات يقولون ، عصير (الكوتيل) حلو ...
مرة أخرى ييرح بي الألم .. تبدو لغة المحرومين .. ساذجة .. بريئة ، لكنها تدمي
القلب . يحق لك أن تزهو .. إن الطبقة الوسطى ، أو فوقها بقليل .. تعرف
الكوكتيل .. والسكالوب .. والستيك

ها أنت أمام كائن يشاركك نفس الكوكب .. ونفس الوطن .. بل على الطرف الثاني
من المدينة .. ربما لم يعرف سائلا غير الماء في حياته .. أو معلبات الكولا ، التي
تعمل عمل الأسيد في قنوات جهازه الهضمي . إنه (البرجوازي) البشع .. يتربع في
داخلك .. كتمثال من البرونز .. منصوب في ميدان ، في عاصمة (رأسمالية) .. يأتيه
العمال ، والمهاجرون المغتربون .. المسحوقون .. يتمسحون فيه .. ويطوفون حوله
.. يلتقطون الصور التذكارية .. ويصطنعون عنده (لقطات فرح) .. انتزعوها من بقايا
آدمية مطحونة ، في قيعان المناجم .. أو بين هدير آلات المصانع ، يتفصدون دما ..
وعرقا ، يصنع منه طلاء .. يحفظك من الصدأ .. ويبقيك لامعا .. متوهجا .. ليؤموك
مرة ، تلو أخرى ، صرت (ربا) صنما ، حولك .. (يولد) فرح المسحوقين ، ومن
عصارة أجسادهم تبقي لامعا .. لتسعدهم .. أي فخر أعظم من هذا ...؟

جاء الأكل ، واستلمته من العامل ، ووضعتة على الطاولة .. وقلت لها : - أفطري ..
بعد عشر دقائق أرجع لك .. - وين تروح ..؟ - أتركك .. تأخذين راحتك .. - لا
.. لا تتركني .. أنا راحتي معك .. انتفض قلبي لعبارتها .. تملكني براءة الأنقياء ..
وصدق المشاعر

تذكرت الشاش والمعقم الذي اشتريته ، فأخبرتها أنني سأذهب لإحضار بعض
الاعراض من السيارة . كنت أريد أن أدعها لوحدها ، حتى تنتهي من إفطارها ،
ولأحضر تلك الاعراض لتطهير جرحها .. رغم أنني تعمدت التأخير ، إلا أنني حينما
عدت ، كانت ما تزال في بداية وجبتها . شعرت بحرج ، لكنها نظرت إلى بعينين
ساكتين ، وقالت : - خفت .. لما تأخرت علي .. جلست أرقبها تتناول الطعام .
تتصرف بهدوء وعفوية ، دون إحساس بالمكان حولها .. كانت جائعة فعلا ... طريقة
إلتهامها للطعام .. تلقائيتها في التصرف .. حينما نزعت غطاء وجهها ، الذي كان
يتدلى على كتفيها ، ووضعتة على الكرسي بجانبها .. تنقلها بين صنف وآخر من
الطعام بدون أي (إتيكيت) .. كأنما تتذوق (العالم) لأول مرة .. بل هي كذلك ..
إنها الدهشة التي تصيبنا ، حينما نصادف الاشياء للمرة الأولى ، فتتصرف مثل
الاطفال

.. "أوووه أيها المترف" .. يلج نداء في داخلي .. "أصبحت تعلم المحرومين
الاتيكييت" .. أصبحت انت (الاستاذ) .. وغيرك حولتهم الدهشة إلى أطفال .. لم لا
تفهم ..؟ إنه الجوع ، والحرمان .. والبراءة التي ما تلوثت ..

شعرت بفيض من الحب يغمر قلبي تجاهها .. براءتها .. عفويتها .. تلقائيتها ..
والشعور بالامان الذي هبط عليها ، وهي معي .. فنسيت العالم من حولها ، حينما
يسكن إنسان إليك ، تعتريك حالة من الاستسلام .. والحب اللانهائي .. تأمل حينما

يدفن طفل رأسه في حجرك .. ويغفو ، تتنابك حال من الاستسلام غريبة .. وتحس
أن قلبك تحول إلى مهد له .. لوحده .. وتتمنى لو توقف العالم كله من حولك ..
بساعاته .. وسياراته .. وضجيجة كله .. لكي لا يصحو ، هكذا كان شعوري نحوها
.. وأنا أنظر إليها .. تحيلني سكينتها .. وإطمئنانها إلي .. إلى (إنسان) .. قال عنه
عبدالكريم يوما ، إنه غير موجود ، وددت لو أخذتها إلي .. وضممت رأسها إلي
صدري .. ليزوب الجليد .. لأبكي .. لأستعيد إنسانيتي المهذرة .. أليس شيئا هائلا
أن تجد إنسانا يسكن إليك .. و .. تسكن إليه .. ؟

تذكرت صاحب السيارة الذي قذفها ، فتداعى إلى ذهني مخزون هائل من اللعنات
... أي نفس سويه يسوغ لها أن تفتك ببراءة مثل هذه ..؟ أي توحش قادر على أن
يغرس خنجر الغدر في هذا الظهر الفطري ...؟ كنت ساهما .. أهلوس بمثل هذه
الأفكار .. وأتذكر كثيرات .. فتك بطهرن .. بسبب مثل هذه البراءة ، والعفوية ،
جالسا قبالتها .. شاخصا .. صامتا ، حين قالت ، وهي ترفع خصلة شعر سقطت
على وجهها : - كثر الله خيرك ..

دبت الحياة في محياها ، بعد الجوع والعطش ، كما نبت الحياء في أرض مجدبة ..
غمرها الغيث .. وجهها عاد أكثر بشاشة .. جبينها العريض صار أكثر ضياء .. عيناها
، كأنما أوقدت فيهما قناديل فرح .. امتد وهجها إلى ثناياها ، فازدادت ألقا ..
لتصنع لها إبتسامة آسرة .. كلما افتر ثغرها

عندما أنهت ترتيب عباؤها ، وشرعت تضع غطاء رأسها ، ووجهها في مكانه ، قلت
لها : - لا بد أن أعقم الجرح ، حتى لا يلتهب ... هزت رأسها موافقة . رفعت ثوبها
إلى حدود الجزء الممزق ، ليظهر الجرح ، ولأتمكن من تنظيفه . أخبرتها أن المادة
المعقمة تحتوي على مادة قلووية ، وستشعر نتيجة لذلك بألم ، وعليها أن تتحمل

خطوات واثقة



سوبرجا، 245 د.إ.ر.س



دون تو ارت، 200 د.إ.ر.س



بالديوم، 295 د.إ.ر.س



ترافيل، 170 د.إ.ر.س

أضغط هنا للدخول للموقع

أحذية للنساء أحذية للرجال

مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمشي تشكيلة واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالمية والمحلية بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي عملاءه تجربة تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العالمية وعرض المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء من أعلى المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج العربي ولبنان و خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما

توصيل مجاني لباي بيتك

تخفيضات كبيرة وعروض
مميزة

وسائل دفع متعددة منها
الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14
يوم

% منتجات أصلية 100

نمشي

@THEBEST4YO



كنت قد أنهيت تنظيف الجرح ، ووضعت الشاش واللاصق عليه ، وأتعباً للنهوض ، حين شعرت بكفيها تطبقان على جانبي رأسي ، وتأخذه إليها ، ثم تنحني وتطبع قبلة على جبيني ، وتقول : - يا ليتك (أخوي) ... يا ليتك ... وسكنت ..

رفعت رأسي ، ونظرت إلى وجهها .. كان ينطق بكل اللغات .. إلا لغة الجسد .. لقد تلاشي الجسد ، كوسيلة تعبير بيننا .. ولم يكن ثمت إلا أنا .. ودوائر من النور .. تلتمع في مساحات وجهها .. الذي غدا أمامي كمحراب هائل .. طفقت أردد فيه الصلوات .. - اعتبريني أخت لك ... قلتها وأنا أنهض ، وهي تتبعني بنظراتها .. وتغالب دمعيتين ..

عقربا الساعة في سباق ، الصغير يؤشر على الرقم 11 ، والكبير إلتحم بالرقم 2 .. لا أدري أيهما سبق . لم يعد لتقسيم الفراغات في تلك الدائرة التي يسمونها (ساعة) ، أي معنى لدي ... في لغة الوقت ، التي اخترعوها ، الساعة الآن هي الحادية عشرة وعشر دقائق .. أما الوقت لدي ، فقد اختزل إلى بداية ونهاية .. كلاهما إسمه .. موزي .. الزمن فيه لا يحسب بالعقارب .. ولا بفراغات الدائرة ، وتقسيماتها .. إبتدأ بفتاة تقذف من سيارة ، كنتيجة مبكرة لعملية سوف تتم ، بالضرورة لاحقا ، وتحدث في كل لحظة ، يدفع الطرف الأضعف فيها .. دائما ، الثمن الباهض من شرفه .. وكرامته ، وإنسانيته .. وحقه المفترض في حياة كريمه .. لا تخضع لإبتزاز المال .. ونفوذ السلطة .. تأتي المرأة ممثلا (مواظبا) للطرف الاضعف .. الممتهن .. المبتز .. المستهدف .. المقذوف .. ليس من سيارة يمتلكها مترف ، (قادر) .. بل من حقها .. أن يكون لها كينونة .. في بعدها الانساني .. لها اعتبارها .. وكرامتها .. ضمن القانون السرمدى : "وكرمنا بني آدم" ... ينتهي الوقت .. متى ينتهي ..؟

عند الساعة الواحدة .. حينما تدلف موزي ، بخطوات متوجسة إلى بيت أهلها ..؟ وقت طويل .. لو كان الزمن يقاس بعذابات المحرومين وأوجاعهم .. وبأحلامهم التي

تنتهي تحت أقدام نزوات (القادرين) .. وصلت إلى مقر عملي .. ونزلت .. لم يتبق وقت للعمل اليوم . تركتها في السيارة ، وذهبت لإنجاز بعض الأعمال المعلقة ، ولأعتذر عن التأخير .. وعن بقية اليوم .. بدوت أمام الزملاء متوترا .. شاردا البال .. غير قادر على التركيز .. وقعت اسمي في المكان غير الصحيح أكثر من مرة .. وأختلف توقيعي عن الآخر أكثر من مرة .. ناديت أحد الموظفين بغير اسمه .. ظروف عائلية ... كان هذا هو التبرير .. وانسحبت ..

جزء من الشرود والتوتر الذي انتابني في العمل ، كان بسبب الضغط النفسي الذي فرضه التفكير المتواصل في أمرها .. لقد قررت أن لا أنزلها عند المدرسة .. سيطر علي هم واحد : هل أتركها تذهب بهذه البساطة .. دون أن تتعلم درسا ، يمنعها من العودة لنفس السلوك ..؟ هل أدعها تعود لبيت أهلها .. لتعود بعد ذلك لنفس الطريق ..

عدت إلى السيارة بغير الوجه الذي ذهبت به .. مهموما .. متجهما .. ومتوترا .. ضاقت على الأرض بمارحبت .. ركبت ، وسحبت الباب خلفي بقوة .. ولم أكلمها .. كنت ، حينما خرجنا من المطعم ، قد ألنت لها القول ، ولاطفتها ، وحدثتها حديث القلب للقلب عن خوفي عليها .. وقلقي على مستقبلها ، ورجوتها أن تنتبه لنفسها .. وختمت ذلك بمزحة ، فقلت : - إن عاهدتني أن تلتزمي بما قلت لك اشتريت لك أسكريم (كون زون) أو (باسكن روبنز) ، لكن باسكن روبنز أمريكي ، وأنا مقاطع البضائع الأمريكية ، ضحكت ببراءة الآمن في سرية ، وقالت بعفوية أخذت قلبي : - أبعي أكتب اسم الاسكريم .. حتى إذا رحلت للمدرسة أقول للبنات إنني أكلته .. ثم أضافت : - أبلا نوره .. دائما تنهي الحصة بتذكيرنا بمقاطعة البضائع الأمريكية .. لكن .. ثم سكتت قليلا .. لتقول : .. البنات في الفسحة يعلقون على (أبلا) نورة ، ويقولون : "الأبلا ساكنة في شمال الرياض .. وتحسب الناس كلهم مثلها ، يستطيعون أن يشتروا بضائع أمريكية" . أندفع الدم إلى وجهي ، وشعرت كأنما

لفحنتني موجة حارة .. إنها فوقية المترفين ..

إنها (ماري أنطوانيت) ، التي تطالب الجائعين ، الذين يتظاهرون من أجل الخبز .. أن يأكلوا (بسكويت) .. أو هي (أبلا نورة) .. التي تطالب الجوعى والعراة .. أن لا يشتروا من (مكس) ، أو (نكست) ، أو (فرساتشي) .. كيف لا تقرأ (أبلا نورة) هذا الوجع والبؤس .. الساكن في كل قسمة من قسمة تلك الوجوه ، وهي تصافح عينيها كل صباح .. كيف تستطيع أن تعيش في عالمين منفصلين ..؟

كيف يصنع الترف كل هذه الحجب الغليظة من البلادة .. واللامبالاة بمعاناة الآخر .. ووجعه .. وبؤسه ..؟

كيف يهوي الانسان (في داخلنا) إلى تلك الاعماق السحيقة ، فلا يسمع منه زفرة ألم .. ولا يتسلل من تلك اللجة الجليدية .. شئ من مشاعر .. صرخة واهية .. تجاه الحرمان الذي : يخنق أحلام الصبايا .. يغتال الفرحة في عيون الأطفال .. ويقتل الكبرياء في جباه الرجال ...؟

لست وحدك .. هناك ألافاً مثلك .. وألافاً مثل نورة .. حينما استقرت على المعقد ، بتلك الحالة المتوترة ، تطلب الأمر مني وقتاً ، لأخرج المفتاح من جيبي .. ولاحظت ذلك ..

عندما بدأت أدير المفتاح ، لتشغيل السيارة ، صدحت اغنية من (الراديو) ، الذي يبدو أنها قد عبثت به أثناء غيابي .. كان المغني يردد : "زمانك لو صفا لك يوم ... زمانك ما صفا لك دوم وعينك لو أهنتت بالنوم ... ترى الأيام دواره ترى الايام دواره .."

للحظة .. استسلمت لكلمات الأغنية ، التي فتقت جرحا جديدا .. ثم أقفلت
الراديو .. بانفعال . قالت ، وكأنها تريد أن تخفف من حدة التوتر ، الذي لاحظته
على ، حينما عدت : - الاغنية كلماتها حلوة .. صح ..؟

لم أرد عليها - ما تسمع أغاني ..؟ - لا .. - حرام ..؟ - نعم .. - أنت كنت
تسمع قبل (شوي) !! - أنت تحققين معي ..؟ - أنت زعلان .. أنا سألتك .. لأن
فيه معلمة عندنا تقول ، الذي يسمع أغاني كافر .. - لا .. ليس كفر .. لكن حرام
.. - ما فهمت .. - سماع الأغاني معصية .. ويفسد الأخلاق .. وأنت ما أفسدك
إلا سماع الأغاني . - يعني أنا فاسدة ..؟ - هذا الذي قمت به .. ماذا تسمينه ..؟

ران الصمت بيننا .. بدأ الندم يأكل نفسي .. لقد هدمت كل ما بنيت هذا الصباح ..
بلحظة غضب ، أشعر أنني انتقم لنفسي منها .. أن تورطت بها .. أضاعت وقتي ..
وأوقعني في حيرة .. وحملتني مسؤولية الحفاظ عليها .. أنا الذي لم أعش إلا لنفسي
فقط .. وتحاشيت كثيرا أن أصيخ سمعي لوجع الناس .. أو أجرح ناظري بمشاهد
البؤس والحرمان ..

مازالت الذاكرة تكويني ، باسترجاع تلك المناظر التي رأيته .. وبتذكر ذلك الأنين ..
الذي اجتاح هدوئي ، في (مغامرتي) اليتيمه في حي (الأميل) مع عبدالكريم ..

كيف أريد علاجها ، وأنا قد شرعت بإدانتها .. وتجريمها ..؟ قلت ، بعد أن
أستعدت هدوئي ، وبلهجة بالغت بأن أشعرها من خلالها بالمحبة والحنان : - موزي
حبيبي .. أليس هذا الذي فعلته خطأ ..؟

- صح .. لكن خلني أسألك سؤال .. أعطني فرصة .. أقول لك شيء .. - أنا
الذي أريد أن أسألك سؤالاً .. من هو الشخص الذي كنت معه الصباح ..؟ - لا

أعرفه ..

- تركيبين مع شخص لا تعرفينه ..؟ - والله العظيم لا أعرفه .. أصل الموضوع ..
البندري .. وأخذت تبكي .. وتوقفت عن الكلام .. - تكلمي يا موزي .. أرجوك ..
- "أنا شفت إكسسوارات حلوة على زميلتي البندري .. أعجبتني .. قالت لي :
أعجبتك ..؟ قلت لها نعم .. قالت قولي لأبوك يشتري لك مثلها .."

هي تعرف أن الوالد غير موجود .. لكنها .. وانخرطت بنوبة بكاء أشد مما سبق ..
تركتها حتى سكنت ، وأنا أكثر فضولا لمعرفة التفاصيل .

شعرت أن المسألة أكبر من طيش مراهقة ، إلا أنني لم أجرؤ أن أطلب منها مواصلة
الحديث . لكنها ، حينما ألتفتت تطلب مني منديلا تمسح به دموعها ، رأت اللهفة
في وجهي ، لمعرفة تفاصيل الموضوع ، ورأيت أنا في عينيها انكسارا يذيب الحجر
الأصم ..

استأنفت الحديث : - البندري تعرف أن الوالد غير موجود .. لذلك ، قالت لي :
"وإذا ما عندك أب .. لازم يكون لك (صاحب) .. تطلعين معه .. يشتري لك اللي
تبين .. ويؤكلك في المطاعم" .. قلت للبندري : أنا ما أعرف أحد ، قالت : "ما
يهمك .. أنا أعطيك رقم واحد .. عنده سيارة (كشخه) .. تكلمينه .. فعلا ..
كلمته أكثر من مره .. وسمعتني كلام حلو .." أمس قال لي .. الصباح لا تمشين
للمدرسة .. روعي للشارع العام .. وأجىء أخذك من هناك الساعة 7 .. فعلا ..
رحت للشارع العام .. وجاء الشخص الذي رأيته معي ، وركبت ، كان أول شيء قال
لي : "أنا أحبك يا موزي .. البندري كلمتني كثيرا عنك .. أنت تستأهلين كل خير ..
أنت بس تدللي .."

بعد ما مشينا بفترة بسيطة ، قال إن فيه (جمس) ، مثل سيارة الهيئة يمشي خلفنا ..
ثم أسرع .. وصدمننا فيك .. كنت أستمع إليها مذهولا .. أحاول أن أكذب سمعي
.. - ومصدقة انه يحبك ..؟ - لا .. طبعا .. كلام فاضي .. - وأنت صدقتي
البندري .. يمكن الذي اشترى لها الاكسسوارات أبوها ..؟ - لا .. أبوها غير
موجود .. أمها مطلقة .. وهي ساكنة مع أمها .. وأبوها ساكن في مدينة ثانية .. ولا
يعترف فيهم

شعرت برغبة حقيقية بالبكاء .. البندري أيضا ضحية .. بيت ممزق .. وفقر .. ألعن
من .. غير إبليس ..؟ - وأنت .. الوالد أين هو ..؟ ترددت برهة من الوقت .. ثم
قالت : - مسجون ... ثم أضافت ، وقد استحال وجهها إلى الأصفر الشاحب : ..
ولا عندنا أحد يصرف علينا ..

في هذه اللحظة لم أملك أن أمنع نفسي عن البكاء .. أوقفت السيارة على جانب
الطريق ، وبدأت أبكي بكاء صامتا .. بنفسي هذه الطفلة .. وألاف غيرها .. ألعن من
.. غير إبليس ..؟

جوفي كان يشتعل غيظا .. وعجزا .. وإحتقارا ، لذات .. ظلت طويلا .. في منفاها
الجليدي ، لا تحس بلهيب المعاناة لبشر .. يتحالف الفقر ، والحرمان ، والأهمال
.. مع (القوانين) المتخلفة ، والبيروقراطية القبيحة .. المسخ ، في إذلالهم ..

كنت منغمسا في لحظة وجع حقيقي .. أغلق الدمع عيني ، فلم أعد أرى شيئا ،
عندما سحبت يدي وقبلتها ، وهي تقول بعينين دامعتين ، ووجه صار مرتعا للألم فقط
: - تبكي من أجلي .. يا ليتك .. يا ليتك .. ثم خنقتها العبرة ..

كنت قد عزمت على أمر بخصوصها .. وأنا أعود إلى السيارة ، بعد أن تركتها لأصلي

الظهر ، في مسجد على الطريق .. وقع في نفسي أن أمرها ، يحتاج حلا جذريا ..
بعد خروجي من المسجد ، فوجئت بعدم وجودها في السيارة .. شعرت كأنما يد قد
اخترقت صدري .. وانتزعت قلبي منه .. تساءلت ..: أين تكون ذهبت ..؟ .. هل
هربت ..؟

انتابني شعور مزيج من القلق والسخط .. أشد شيء آلمني .. إحساسي أنني بعد كل
الذي صنعته من أجلها .. لم تثق بي . ليس أقسى من أن تفقد الثقة .. أو لا تكون
محل ثقة .. لإنسان تحبه . كنت على هذه الحال ، إذ رأيتها تخرج من مصلى
النساء .. فأشرق وجهي .. وأحسست قلبي يعود إلى مكانه .. صرت أخاف عليها ..
وفرحت أنها حريصة على الصلاة .. تبقى الصلاة ذلك الرباط الوثيق ، الذي يشد
الانسان إلى الخير والفضيلة ، مهما اجتالته الشياطين ..

يؤلمني كثيرا مشهد الانسان الذي لا يصلي .. أشفق عليه من النهاية البائسة .. أحس
أن الصلاة هي العتبة الأخيرة .. التي يقف الإنسان عليها ، قبل أن يهوي .. إذا ما
تركها ، إلى درك .. يكون فيه ، هو والحيوان سواء .. قالت وهي تفتح الباب لتركب :
- خفت تطلع من المسجد .. ولا تلقاني .. ثم تروح وتركني .. فاستعجلت بصلاتي
.. تنهدت ، وقلت في سري : - "أنا الذي خفت .. أنك رحتي وتركتيني .." صارت
بالنسبة لي ، حبلي الوحيد إلى الحياة (الحقيقية) ... التحدي الحقيقي لاستعادة
إنسانيتي المهذرة .. الشمعة التي تتقد لتتشر الضوء ، والدفع في صقيع أعماقي
المظلمة

في الطريق إلى المدرسة قلت لها : - قبل أن أنزلك عند المدرسة أريد أن نمر من
عند بيتكم ، حتى أعرف مكانه .. ردت بتوجس ، وكأنها شكت أنني سأذهب بها إلى
أهلها : - لماذا ...؟ - يمكن أزوركم الليلة .. - والله ..؟ - احتمال ..

تعرفت على موقع البيت ، ثم توجهت بها إلى المدرسة .. لم تكن الطالبات قد خرجن بعد .. فانتظرنا في السيارة في شارع مجاور .. كانت أسراب الطالبات قد بدأت بالخروج من بوابة المدرسة عندما بادرتني قائلة : - ما قلت لي إسمك .. - محمد ..

نزلت .. وأغلقت الباب .. وبعد بضع خطوات ألتفتت نحوي ولوحت بأطراف أنا ملها .. خرجت من حي (الأمل) .. أحمل قلبا .. و(أملا) .. وإنسانية مستعادة ..

عند إحدى الاشارات ، نبهني سائق السيارة الذي بجواري ، إلى أن الباب لم يغلق جيدا .. التفت لأغلقة ، فوجدت قصاصة ورقة .. كانت قد كتبها .. وتعمدت أن تتركها لأجدها .. قرأتها .. ثم دسستها في جيبي .. وتأكدت مرة أخرى أن البراءة لو تمثلت إنسانا ، وسارت على الأرض ، ومشيت بين الناس .. لكانت هي ..

صليت العشاء في نفس المسجد .. ثم أنطلقت باتجاه بيتهم .. كنت قد عرفت منها عدد إخوانها وأخواتها ، واتفقت معها أن تذكر لأمها أن إحدى المعلمات تجمع معلومات عن الأسر المحتاجة ، وأنها قد استدعتها وطلبت منها معلومات عن بيتهم وأسرتهم .. وصلت .. وقرعت الباب .. كنت مرتبكا قليلا . أخذت ، وأنا انتظر الرد ، أقلب طرفي فيما حولي .. لفت نظري أن كل بيت لا يكاد يخلو من طبق من أطباق الاستقبال الفضائية التلفزيونية (الدش) .. بل إن بعضها يتربع على سطحه أكثر من واحد .. تساءلت في نفسي .. : أي واقع إجتماعي سيتشكل ، عندما يجتمع في هذه البيوت .. الفقر .. والظلم الاجتماعي والمشاكل الأسرية .. وإنخفاض مستوى التعليم .. وفضائيات تصب العنف ، والجنس ، والرذيلة .. في عقول ساكنيها ..؟

هل يمكن أن يستغرب المرء سلوكا مثل الذي وقع من البندري .. وموضي ..؟ من أين جاء مفهوم (الصاحب) .. الذي يوفر ما عجز عن القيام به (الأب الغائب) ..

مسجوناً كان .. أو مطلقاً .. أو ميتاً .. أو حتى عاجزاً .. متخلياً عن دوره ..؟ من
المسئول عن نشوء مثل هذا (العجز) .. في ظل الغياب القسري للأب ..؟ من
(الطرف) الآخر الذي (تخلى) عن دوره .. فسقط مثل هؤلاء (الضحايا) ..؟

فتح الباب ، وأطل طفل لا يتجاوز التاسعة . حسب توصيف موضي ، هذا شقيقها
محمد . هناك بنت تكبره .. نوف ، أصغر من موضي ، في الصف السادس الابتدائي
.. وأصغر منه بنت في الصف الأول .. أظن أن إسمها إبتسام ، ثم عبد الاله في
حدود الخامسة . سألته : - اين الوالدة ..؟ - من أنت ؟ - مشرف إجتماعي .. من
الجمعية الخيرية ..

غاب قليلاً ثم عاد .. وسحب الباب خلفه ، وأبقاه نصف مفتوح ، ثم قال : -
الوالدة خلف الباب ..

ألقيت عليها السلام ، وذكرت لها أنني عضو في مجموعة خيرية ، تقوم بحصر الأسر
المحتاجة ، من خلال التعاون مع بعض المعلمات ، ليتم ترتيب شيئاً لها ، يساعدها
في مواجهة تكاليف الحياة .. كان يوم سبت ، أخبرتها أن هذه الزيارة استقصائية ،
لمعرفة أوضاع الأسرة بالتفصيل ، وأنه سيعقبها زيارات أخرى .. طلبت مني الدخول
إلى غرفة تفتح على الممر المؤدي إلى داخل المنزل ، يبدو أنها (المجلس) المعد
لإستقبال الضيوف .

جلست على فرش (موكيت) متآكل .. قد ذهب لونه . كان هناك مسندتان للظهر ..
أو ثلاث .. ولا شيء غير ذلك .. في السقف يوجد مروحة عتيقة ، ولمبة (فلورسنت)
2. شمعة ، أطرافها معتمة لطول الاستخدام . على الجدران المدهونة ، بلون أبيض
مطفي ، يوجد خربشات أطفال .. لفت نظري أحدها ، يقول : "الدهر يومان .. يوم
لك ، ويوم عليك" .. ثم رسمة لقلب ، قد إخرقه سهم ، وينزف ، وقد كتب تحته :

" أحبك لو تكون ظالم " ..

لاحظت أن مثل هذه (الشعارات) مشترك (ثقافي) ، بين الاغنياء والفقراء .. لكن .. كيف يفهم كل فريق (اليومين) .. اليوم الذي له .. واليوم الذي عليه ..؟ ما هو مفهوم كل طرف للحب .. وكيف هو مفهوم الظلم في الحب .. وفي غيره ، عند كل منهما ..؟ كيف فهمت موزي (الحب) .. لما سألتني إن كنت افعل الذي أفعله من أجلها .. لأنني أحبها .. وتبرعت بالتفسير ، على ضوء ما تعتقد أنه القانون السائد ، الذي يحكم العلاقات بين الناس .. فقالت : "الشخص لا يخدم شخصا آخر إلا إذا كان يحبه .. أو ينتظر منه شيئا .. مقابل ما يقدمه له" ..

موزي علمت يقينا أنني لا أنتظر منها (شيئا) .. مثل ذلك الذي كان يريد منها صاحب السيارة .. وهي غير متأكدة أنني أحبها .. لروحها .. وذاتها .. إذ هي .. رغم صغر سنها ، تدرك ، أن حبا من هذا النوع ، لا يمكن أن يتخلق في إتصال هاتفي .. أو لقاء عابر .. لذلك .. هي عاجزة أن تفسر موقفي منها .. لأنها غير قادرة على أن تبني علاقة بين متغيرين ... "الخدمة .. مقابل .. ماذا ..؟" وهو ما دأب المعطى الثقافي السائد ، على تقديمهما ضمن (تراتبية) معينة ..

عندما أخذت مكاني في المجلس ، جلست هي خارجة ، في الممر ، عند الباب ، تسمعي ، ولا أراها . سألتها بالتفصيل عن أحوالهم المادية ومصاريفهم اليومية والشهرية .. عرفت منها أن زوجها مسجون في قضية مخدرات ، وأن محكوميته طويلة ، وأنهم منذ سنتين تقريبا لم يروه .. لأسباب لم تذكرها . لا أقارب لصيقين لهم في الرياض .. أهلها .. وأهل زوجها يعيشون في مناطق بعيدة .. وليسوا بأحسن حال منهم ، أنتهى اللقاء .. ووعدها بزيارة قريبة ..

كنت قبل أن آتيهم ، مررت على محل لبيع الوجبات السريعة ، وأشترت لهم فطائر

(هامبورقر) ومشروبات غازية .. وتعمدت أن يكون عدد الفطائر غير مطابق لعددهم .. حتى لا تشك بأن لدي معلومات سابقة عنهم ، كانت فرحة الأطفال لا توصف .. بكيث في داخلي ، وأنا أراهم يتقافزون فرحا .. ويردد عبدالإله الصغير : "زي اللي في التلفزيون" .. عالم لا يرونه إلا في التلفزيون .. وحياة أخرى .. بعضها تافة وسخيف .. ونمارسها نحن بعشوائية ، وتلقائية .. لا يسمعون عنها إلا في التلفزيون .. إنها (قصة) التلفزيون .. قصة (الأكسسورات) ، و (الصاحب) .. و (الحياة) التي لا تنال .. إلا بأثمان باهضة أدناها الكرامة .. وأحدها الشرف .. وأحيانا كثيرة .. لا تنال ..

مررت مساء الاثنين في زيارة سريعة ، وأنزلت اغراضا ، استشفيت من لقائي الأول أن هناك حاجة ماسة لها .. اشترت كذلك وجبات (هامبورقر) .. في هذه المرة لفت نظري شيئا .. عندما كانت تساعد في إدخال الاغراض لاحظت أنها شابة .. كانت أصغر مما توقعت بكثير . كنت أظن أنها على مشارف الأربعين .. ظننت ذلك بناء على عملية حسائية ، أضفت فيها عمر موزي ، إلى سن الزواج المعتاد للنساء .. وتأخر في الحمل ، سنة أو سنتين ، إضافة إلى أشهر الحمل .. هي في أول ثلاثينياتها قطعا .. وربما لا تزيد على الثلاث والثلاثين . تألمت أن تواجه امرأة شابة ، في قمة نضجها البدني والعقلي .. هذا الواقع البائس .. وحدة .. ووحشة .. وبؤس .. وحرمان ..

في مثل هذه المواقف ، يخطر على بالي هاجس ساذج ، اشبه بتصورات الاطفال .. تتملكني حالة من الأسى ، فتشف روعي .. وأبلغ درجة من التسامي والشفافية ، حتى أنني أود لو أكون أبا لكل يتيم .. وزوجا ، أو أخوا لكل أرملة ، أو مطلقة .. أو أنثى .. تواجه بؤس الواقع لوحدها .. وتنحسى سم الظلم .. والقهر ، صباح .. مساء ولأنها (خواطر طفلية) .. فإن عجز الاطفال يعتريني ، فأعمد إلى البكاء .. الصامت . أبكي .. حتى يدوب قلبي من كمد .. وتذوي نفسي ، حتى يرى ذلك في

عيني .. اللتان تتحولان إلى بئر هائلة العمق .. لا ترى إلا لجتها السوداء .. ابتلعت
الدمع .. والضوء .. وغاض منها بريق الحياة .. هكذا هي الحالة التي تلبستني حينما
رأيت أم موزي .. أو أم محمد ، كما هي كنيتهما ..

ما أقسى الألم .. حينما يكون امرأة .. وما أتعس قلبا .. لا يرى العالم .. إلا من
خلال امرأة .. كأن العناء الذي أثارته موزي لا يكفي .. ذكرت لها أني سأتي عصر
الخميس ، لآخذ الاطفال إلى مركز ترفيهي ، ليتسلوا ببعض الالعاب . حينما جئت
يوم الخميس ، كانوا بانتظاري .. محمد وابتسام وعبدالالة . سألتهم عن نوف ،
فقالوا إن والدتهم لم تسمح لها ، وقالت لها ، أنت كبيرة .. لا يجوز أن تخالطي
الرجال . بقدر ما أسفت أنها لن تفرح مثل بقية الاطفال ، في سنها ، إلا أنني ثمنت
الموقف التربوي لوالدتها ، وحرصها على أخلاقها .

أخذتهم إلى مركز ألعاب ، وأطلقتهم يلعبون كما يشاؤون .. كنت أطرب حينما يأتي
أحدهم ، ويقول : "عمي لو سمحت .. خلني ألعب في هذي اللعبة .." .. كان قلبي
يرقص معهم .. وفرحت كما لم أفرح من قبل في حياتي .. وحينما ركبت معهم في
إحدى الالعاب ، ومالت بنا .. وظنوا أنهم سيسقطون ، ألتصقوا بي كالافراخ ، إذ
تلوذ بأمها ..

في تلك اللحظة شعرت أني كلي صرت قلبا ، يهتز فقط .. ليمنحهم الحياة .. ولما
طوقتني سواعدهم في إحدى المرات .. شعرت أني أعلو ، وأن روحي تتحلل من ربة
الجسد .. فأنا محض روح ..

خرجنا من مركز الالعاب ، وكان قد بقي على صلاة المغرب ما يقرب من ساعة ..
أقترحت عليهم أن نأكل شيئا .. فضجوا ، فرحا وابتهاجا . دخلنا مطعم وجبات
سريعة ، وأكلنا ، وطلبت أكلا للذين بقوا في البيت .

كان وقت صلاة المغرب قد حان ، عندما غادرنا المطعم . صليت أنا ومحمد في مسجد قريب ، ثم أنطلقنا إلى البيت . عند الباب كانت في استقبالنا .. كان للأطفال صراخ ، وضحكات منقطعة ، وضجيج .. فتح الباب بعد طرق لم يتعد ثواني .. من خلف الباب سمعتها تلهج لي بالدعاء .. طلبت مني أن أدخل لأتناول كأسه شاهي .. فاعتذرت لإنشغالي بارتباط .. جاء صوتها ترجموني : - لن نؤخرك .. إشرب شاهينا .. حتى لو إنه .. (ماهو قد المقام) .. - أشرب شاهيكم يا أم محمد .. ولا تقولي هذا الكلام مرة أخرى .. فإنه يؤذيني ..

جلست في نفس المكان ، وبعد لحظات جاء الشاهي في صينية معدن مثلمة ، وعليها ثلاث كأسات شاهي ، كل واحدة من صنف مختلف . جلست أمامي القرفصاء ملتفة بعباءتها .. وبجانبها عبدالاله . وصبت كأسه شاي وناولتني إياها ، بأطراف أصابعها ، وكفها مازالت ممسكة بعباءتها .. محاولة أن تكسر جمود الصمت بيننا .. قالت : - كلفنا عليك .. في ميزانك .. إن شاء الله .

- ليس أجمل من ضحكة طفل .. إلا شعوره بالامتنان تجاهك .. لقد ضمنتني إبتسام .. دون أن تتكلم .. لو تدرين يا أم محمد .. تطحننا الحياة أحيانا .. بلا رفق ، بإيقاعها السريع .. ونحتاج إلى ضمة كهذه .. لتبتل قلوبنا التي قتلها العطش ..

خرجت من عندهم ، ووعدت بزيارة في مطلع الاسبوع القادم دون أن أحدد وقتا معيناً .. انشغلت يوم السبت ، لكنني جئت في الموعد نفسه مساء الأحد . طرقت الباب وأنا أحمل طعاما ، وبعض الحلويات .. تأخر الرد هذه المرة .. ثم حينما فتح الباب ، ظهر محمد مترددا .. ناولته الأغراض ، بعد أن سلمت عليه ، وداعبته .. لكنه لم يستجب لدعابتي .. قلت .. ربما أغضبه أحد .. لكنه أيضا ، لم يستلم الأغراض مني .. وتراجع ، وقال ، وهو يشرع في إغلاق الباب : - أمي تقول .. لا

نريد منك شيئاً .. ولا نريد أن نراك ثانية .. وقفت مشدوها أمام الباب .. ما الذي حدث .. خاطبت نفسي ..؟ تركت الأغراض في مكانها ، وعدت إلى سيارتي أخرج خطواتي جراً .. شعرت أنني مكلوم الفؤاد .. مثل عاص طرد من الرحمة .. ركبت سيارتي ، لكنني عجزت عن تشغيلها .. عدت إلى الباب ثانية وطرقته .. وألححت في الطرق .. فجاءني صوتها من وراء الباب : - أرجوك أن تدعنا وشأننا .. - لن تريني ثانية .. خذي الأغراض التي عند الباب .. إنها للأطفال .. أرجوك .. لم أتم تلك الليلة .. قلبي الهم والوجع .. وتعذبت .. شعرت كأنما دخلت التيه من جديد .. كطفل فقد أمه في زحام .. فارغ القلب .. فارغ العينين .. يصرخ .. وصوته ضائع في الضجيج ..

سيطر علي إحساس أن الأمر له علاقة بموضي .. في الصباح الباكر إنطلقت ، قبل أن يبدأ الطلاب والطالبات الخروج إلى المدارس .. جلست أرقب البيت من بعيد .. كلهم خرجوا إلا هي .. من الغد .. صباح الثلاثاء ، فعلت الشيء نفسه .. لم تخرج موضي ..

بعد المغرب كنت عند الباب . طرقت .. جاء الرد بأسرع مما توقعت .. كانت إبتسام هي التي فتحت ، يضيء وجهها بإبتسامة ، شعرت بوجهها يلمع في عيني .. - ماما .. محمد عند الباب ... سمعت الصوت يأتي من الداخل ... - أغلقتي الباب ... يا بنت ..

كان معي في جيبي حلوة ، فأخرجتها ، ولوحت بها لإبتسام .. فجاءت تركض نحوي .. طبعت على جبينها قبلة ، وأعطيتها الحلوة .. وأخذت أمارحها .. استبطأت أمها عودتها ، فجاءت إلى حيث الباب ، فرأتها معي .. صرخت : - تعالي يا بنت .. ثم وجهت الكلام لي : - لم لا تكفيننا شرك ..؟ - أم محمد .. أنا سأذهب .. لكن ، ليس قبل أن أعرف السبب .. - أما تخاف الله .. تستغل حاجتنا

.. وضعفنا .. وقلة حيلتنا لتخدع فتاة بريئة .. أحسست كأنما دق في صدري وتد هائل .. انقبض قلبي وزادت دقاته .. وعجزت أن اتنفس .. وشعرت بحاجة للجلوس .. فارتيمت على عتبة الباب .. وخانني الدمع .. فتفجرت عيناى ..

رفعت وجهي إليها ، الذي غدا ، والدمع يملؤه ، كغدير ماء ضحل خاضت فيه السنابك .. - إتق الله .. فأنا لا أتحمل مثل هذا الكلام .. ولن أغادر عتبة بابك حتى أعرف القصة كاملة .. كأنما شككت فيما لديها ، مما تعتقد أنه (حقائق) ، وهي ترى الألم .. والذهول .. والصدمة .. تتصبب من قسمات وجهي صبا .. أو هكذا ظننت .. - تفضل ..

دخلت وأخذت مكاني المعتاد في المجلس . غابت عني دقائق ثم عادت ومعها موزي .. ووقفت أمامي .. ثم قالت ، وهي تشير إلى موزي بصوت مملوء بالغضب .. - ما قصة هذه الملعونة ..؟ ثم لطمتها لطمة أطارت غطاء وجهها .. كان مشهدا صدع قلبي .. ذلك الوجه اللؤلؤي البديع غدا كقطعة كهربان .. من الكدمات السود التي انتشرت فيه ، نتيجة لتعرضه لضرب قاس وعنيف .. إلتقطت موزي غطاء وجهها ، ولحظتني بطرف كسير .. أتى على البقية الباقية من نفسي .. ثم قبعت عند الباب .. كما أمرتها أمها ..

حكيت لها قصتي مع موزي كلها .. ثم قلت : - أريد أن أحدثك حديثا خاصا .. قبل أن أمشي .. أشارت إلى موزي بالانصراف .. - البنت طفلة بريئة .. ضحية ظروف كثيرة ، لا تستحق هذه القسوة .. والقسوة لا تحل مشكلة .. إن كانت موجودة .. هي قد ارتكبت خطأ .. نعم .. لكن تم تداركه والحمد لله ..

- محمد .. هكذا نادتنى .. باسمي مجردا .. والبكاء يغلبها .. إنها لحظة الضعف البشري .. التي تنسى كل (البروتوكولات) .. لحظة .. يتحول الانسان كله إلى ما يشبه

(يد) غريق .. تمتد من خلال الموج .. لتمسك بأي قشه .. - أنت لا تعرف أي شئ مثلت لي خلال هذا الأسبوع ، قبل أن أكتشف قصة موزي .. زوجي مات في السجن .. وهو قبل أن يموت فعلا .. كان بالنسبة لنا ، في عداد الاموات .. تورط في تعاطي المخدرات ، ثم ترويجها .. وانتهى النهاية المتوقعة لسلوك مثل هذا .. وأنا امرأة ضعيفة .. أم بنات .. مشلولة الارادة .. مستهدفة .. أعيش حالة من الذل مستمرة .. إن ذهبت للبقالة .. لا يخلو خطاب العامل الهندي لي من تلميحات .. إن سرت في الشارع .. كل الرجال يعتقدون أنني مستعدة لتقديم شيء .. قبل أن أتوقف عن الذهاب إلى (الذل الجماعي) الذي يسمونه (الضمان الاجتماعي) .. كنت أعاني العذابين .. لو لم يكن فيه من بلاء إلا مكانه .. لكان يكفي .. في ذلك البناء المتهالك في (الغرابي) .. حيث طوابير العمال .. نظراتهم الجائعة .. تنهش جسدي .. أتعثر مرة .. وأقوم أخرى .. لأعود بفتات تافه حقير .. لا يكفي دفاتر ، ومراسم لهؤلاء الاطفال ..

ثم وصلت إلى لحظة من الضعف .. فبدأت تبكي كالأطفال .. وحاولت أن تتكلم ، فلم تقدر .. شعرت أن جوارحها كلها تصرخ .. وتتدافع إلى حنجرتها ، لتأخذ دورها في الشكوى .. ثم قالت ، وهي تنتزع آهة من أعماقها .. وبصوت يشبه العويل : - لا يمر أسبوع إلا وتمر علي (أم سعد) .. تغريني كثيرا .. وتهددني بخطف بناتي أحيانا .. - من هي أم سعد ..؟ - قواده .. وحاولت أن تستمر ، لكن غلبها البكاء .. فتوقفت .. وأخذت تنشج ، حتى ابتل غطاء وجهها ..

استأنفت الحديث ، بعد أن تماكنت نفسها : - قواده .. تقول لي .. مرة في الاسبوع .. أربعة آلاف ريال في الشهر .. ومصروف جيب للأولاد .. و "تحبين يدك مقلوبة" .. بسرعة ترى شبابك ينقص كل شهر .. وليس كل سنة .. حقيقة .. لم استطع أن أتكلم .. أو أعقب ، واستمرت هي في الكلام .. - في كل مرة تجيء بسيارة أحسن من التي قبلها .. آخر مره قالت لي : "إسمعي نصيحتي يا ساره ، إذا

أنت مبسوطه من عيشة النكد والفقر التي أنت فيها .. (حرام) تحرمين موزي من فرصتها .. موزي بنية حلوة .. وكثيرون سوف يدفعون ..

لقد كاد أن يصيبني الجنون ، عندما اكتشفت قصة موزي بالصدفة .. قلت .. أكيد صادتها (أم سعد) .. أنا أعيش كابوس اسمه (أم سعد) .. الله يلعن القوادات .. أنا من يفكني منها ؟.. من يفكني ؟.. تلومني يا محمد إذا طردتك ..؟ تلومني إذا (كفرت) بالبنت .. وضربتها بهذا الشكل ..؟ في البداية .. قلت ، أنت نازل علي من السماء .. ثم لما غلظت موزي ، وقالت لإخوانها أنها أكلت في مطعم .. حسبت أنك .. حاشاك .. من (كلاب) أم سعد ..

استمرت تتكلم وأنا مطرق رأسي .. عقدت لساني الصدمة .. وأخرسني الألم .. وأخذت أشعر أنني أتضائل أمام معاناتها .. تتشبث بي .. وأنا أفكر بالفرار .. لا أستطيع أن أتحمل معاناتها .. وأشعر بالعجز حيال ما تواجهه .. كيف (أفكها) من أم سعد ..؟ كيف أساعدها ..؟ كيف أستطيع أن أقف معها ..؟ وإلى متى ..؟ بين كل عبارة وأخرى تكرر .. "حنا محتاجينك" .. وأنا قد سيطر علي تفكير واحد .. أن أنسحب .. أن أهرب .. إلى عالمي (الأناني) .. البليد .. أفكر بربطها بإحدى المبرات الخيرية .. وأخرج من عالمها .. وأرتاح .. قلت .. وأنا أنهض : - أستأذن يا أم محمد .. - ستركنا ..؟ - سأسعى لوضع ترتيب لكم مع إحدى الجمعيات الخيرية ..

- نحن لا نحتاج خبزا وزيتا .. ثم أضافت والعبرة تخنقها .. نحتاج إنسانا يقف بجانبنا ، ويحمينا ... نحتاجك .. وأجهشت بالبكاء .. - أنا شخص مشغول .. وأنتم بحاجة إلى جهة تلنزم تجاهكم بكل شيء .. - ستركنا ..؟

انتزعت الكلمة هذه المرة ، من أعماقها ، والدمع يكاد يشرقها .. - من الأفضل لك

أن أبتعد .. تردددي عليكم قد يشير حولك أقوال .. أنت بغنى عنها .. قلتها ، وأنا قد امتلأت بالدمع حتى فاض ، أو كاد أن يفيض .. من عيني .. - لكننا نريدك .. ثم أضافت .. : - كل الناس حولي هنا لا يسلمون من كلام مثل هذا .. قدر المحرومين ، والبؤساء أن يحرموا حتى من السمعة الطيبة .. لكن ، أنت شيء مختلف .. لم أرد .. وكنت ما أزال واقفا .. حينما ألقيت علي عرضا مثل القنبلة : - أزوجك موزي ..

فجأني كلامها .. فلم أدر ما أقول .. ولم تعطني فرصة للتفكير .. فأضافت : - أنا أعرف ماذا يدور في ذهنك .. صحيح نحن لسنا (قبائل) .. كما يقولون .. لكن الحمد لله .. محافظون على أخلاقنا .. وديننا .. ثم .. إذا لم نكن (قبائل) .. وهذا قدرنا .. ماذا نفعل ..؟ ونحن .. كذلك .. لم ننزل من القمر ..

أحسست بالدوار ، والغثيان .. والمقت ، وتذكرت صديقا لي ، دائما ما يفخر بقبيلته ، ويتحدث عن (أمجادها) العريقة .. وكثيرا ما يستهجن موقفي المتميع ، كما يقول ، من قضية الخضيرى والقبيلي ، قال مره ، وقد جمعنا مجلس :

"فلان تزوج خضيرية .. الله يخلف على الأصول" .. صاحبي هذا .. (الاصيل) .. شقيقه متزوج من أمريكية ..

قلت له : - نايف .. أنا مللت هذه الاسطوانة القبيحة .. التي لا تفتأ ترددها علينا باستمرار .. أنت تعلم ، من واقع معرفتك بالمجتمع الامريكي ، أن كل فتاة أمريكية .. إلا في القليل النادر ، لا بد أن تكون لها علاقات جنسية قبل الزواج .. وربما عاشرت أكثر من شخص ..

وتعلم كذلك أن هناك نسبة من الامريكيين يولدون سفاحا ، إما نتيجة علاقات جنسية قبل الزواج ، حيث لا يتم الزواج بين والديهم إلا بعد ولادة الطفل الأول .. أو الثاني .. أو يولدون من علاقات عابرة .. وما أكثر حمل المراهقات في المجتمع الامريكي .. أين (الأصالة) .. التي تتحدث عنها .. أو يتحدث عنها أولئك الذين يجوبون مدن

العالم يلتقطون النساء من حاراتها الخلفية .. يتزوجونهن .. لا يعرفون لهن أصلا ..
ولا فصلا ، ولا نسبا (عريقا) وإذا ما تربعوا في المجالس تحدثوا عن الشريقات
.. العفيفات : "هذه خضيرية .. ليست أصيلة .." .

أذكر أنه غضب مني .. وخرج من المجلس ، ولم يعد يحدثني بعدها .. لكنني كنت
مرتاح الضمير .. لأنني شفيت صدري .. من واحدة من أكثر تناقضات مجتمعنا ،
قبحا .. وغباء ..

لم يكن لدي شيء أقوله لها .. وأستدرت خارجا .. قبل أن أصل الباب الخارجي
سمعت صوت عبدالإله خلفي .. يناديني : - محمد .. محمد .. وهو دائما يناديني
هكذا ، باسمي مجردا من أي لقب .. ألفت إليه .. فالتقت عينانا ، أنا بما بقي لي
من نظرة واهية كسيرة .. خضبها الدمع .. وأضناها الألم .. وهو بنظرة اختزلت ذل
اليتيم .. والعجز .. والحاجة .. ونقاء الطفولة .. إذ يشرع القلب لها أبوابه .. بلا
مقاومة .. قال : - صحيح .. أنت قلت أنك سوف تخرج بنا إلى البر .. نلعب كوره
؟.. - صحيح يا حبيبي .. متى ..؟

عند هذه اللحظة كان العناء .. والألم ، والصراع النفسي ، قد بلغ لدي درجة ،
صرت أشعر فيها أنني قد تحولت إلى كتلة من الدمع والأنفوس الحرى .. وأني أحتاج
إلى صدر لأدفن فيه رأسي .. وأبكي .. ثم أبكي .. ثم أبكي .. قلت له : - الآن يا
حبيبي ..

أقتربت منه .. وجلست أمامه وأخذته إلى صدري .. وضممته .. ثم وضعت رأسي
على كتفه .. وبكيت .. لا أدري كم بكيت .. لكنه استسلم لي .. ومنحني كفا ..
مسح بها رأسي .. وعبث بها شعري .. وسلمني كتفه لأبكي عليه ..

حينما أفقت من سكرة الألم هذه .. ورفعت رأسي .. كانت إبتسام واقفة قريبا منا ،
في عينيها دمعان .. وألقيت نظرة على وجه عبدالاله .. كان الوجه الصغير مخضلا
بالدموع .. من داخل البيت كان صوت جهاز التسجيل يأتي ، محملا بكلمات أغنية
.. تقول : أحبك .. لو تكون ظالم ... أحبك .. لو تكون هاجر ... أحبك .. لو
تكون غادر .. وأمشي معاك .. للأخر ... أنا أمشي معاك .. للأخر .. لم يكن قلبي
بحاجة لمثل هذا الكلام .. كان ينزف ..

قلت لإبتسام : - من الذي يشغل المسجل ..؟ - موزي .. عرفت أنها توجه لي
رسالة .. - قولي لها تغلقه .. أنا لا أحب سماع الأغاني ..

قبل أن أنهي عبارتي كانت قد انطلقت إلى داخل البيت .. تصرخ في موزي ، تطلب
منها إغلاق المسجل .. لأنني "ما أحب سماع الأغاني" .. ثم أضافت من عندها ..:
" وإلا ترى ما نأخذك معنا للبر .. " .

ركبنا السيارة جميعنا .. ومررت على أحد المطاعم ، وطلبت لنا عشاء .. ثم توجهت
إلى الدائري الشرقي .. في منطقة بين مخرج (9) و (8) .. وأخذنا مكانا منعزلا ..
أخرجت بساطا ، أحمله معي في السيارة ، وفرشته لهم .. وأعطيتهم الأكل ، بعد أن
أخذت نصيبي .. مشيت مبتعدا .. وأنا أسمع ضحكاتهم تدوي في أذني ..
وتهديدات إبتسام ، بأن الذي لا يسمع الكلام "لن يخرج معنا مرة ثانية" .

كنت قد ابتعدت ، غابت الأصوات .. ولم يبق إلا كلمات الأغنية .. تتردد في ذهني
.. ودقات قلبي .. الذي ما زال ينزف ..

وداعاً هيا

منذ سنوات تعودت هيا أن لا تنام بعد أن تصلي الفجر ، تعد القهوة لوالديها والإفطار لإخوانها ، وتكمل ما فاتها من أمور البيت ، التي غلبها الإعياء والنوم ، دون أن تنجزها الليلة السابقة .

في الخامسة والعشرين ولم تتزوج هيا ، التي أصبحت معلمة منذ ثلاث سنوات . متوسطة الجمال ، ومتوسطة في كل شئ ، طرق باب أهلها كثير من الرجال ، لكنها امتنعت عن الزواج ، أو أن شرطها ، يرد عنها راغبي الزواج : أتزوج لكن أبقى عند أهلي ...

– من يقبل هذا الشرط يا هيا ...؟

تسألها أمها بمزيج من العتاب والشفقة .

تحاصر آهة تكاد تذيب صدرها ، وترد على أمها دون أن تنظر في عينيها :

– المقسوم لا بد أن يكون يا أمي .

بينها وبين أكبر إخوانها عشر سنوات ، بنت في الخامسة عشرة . أمها ليست من أنصار تحديد النسل ولا تنظيمه . نصف متعلمة ، أو قل أمية إن شئت ، أجهضت في حملها الثاني ، بعد هيا ، فأسقطت جنينها ، فتأثرت قدرتها على الإنجاب ، وفشل أطباء المستشفى الحكومي في علاجها ، ولم يكن في مقدور الوالد ، الفقير المعدم ، الذي لا يملك إلا دكانا صغيرا ، أن يعالج أمها في المستشفيات الخاصة .

حملت أمها دون علاج ، هكذا كأقدار البسطاء ، بعد عشر سنوات ، وأنجبت أربع بنات وولدين ، أكبرهم عمره سبع سنوات . قبل ست سنوات ، حينما كانت أمها حاملاً بأخيها الأصغر ، وبينما كان والدها يجتاز الشارع ، في ظهيرة حارة ، في اتجاه

الكلية ، حيث كانت تدرس ، ليأخذها ويعود بها إلى البيت ، إجتاحته سيارة فارهة ، فأصيب بشلل رباعي . لم يعرف نوع السيارة ، ولا قائدها ، لكن ، قال له فيما بعد ، شخص كان حاضرا الحادث ، أنه ترجل من السيارة شاب ، فتفقد مقدمة السيارة ، ثم قال ، وهو يمد بطاقة أخرجها من جيبه، لسيارة شرطة صادف وجودها في تلك اللحظة :

– "وجع ... ما يشوف ...؟" .

ثم أنطلق ، وهو يمسح من على جبينه حبات من العرق تكثفت ، حينما لفحت الشمس وجهه ، الذي كان قد غادر لتوه هواء مكيف السيارة البارد .

هيا تخرج من البيت بعيد الفجر ، قبل أن تمزق الشمس أستار الظلام ، لتقلها سيارة ، هي وبعض زميلاتها ، إلى حيث تدرس ، حيث تم تعيينها معلمة في مدرسة تقع في قرية تبعد عن مقر إقامتها 3.. كيلو متر . لم يشفع لها حطام ذلك الآدمي .. أبوها ، ولا أمها البائسة التي تنوء بهم أبيها المقعد ، وبقلق الخوف عليها منذ تخرج حتى تعود ، وقلق العذاب على مستقبلها ، الذي يعني بؤسا وضياعا لهم جميعا لو تركتهم ... وهي لن تفعل .

قالت للمسؤول :

– هذه حال أبي .. وأمي وإخواني القصر ، حاول أن تساعدني .. أن تجد لي مخرجا . سعادة المسؤول ، النزيه جدا ، قال لها :

– عفوا .. النظام لا يسمح .

وضعت سماعة الهاتف ، والمرارة تكاد تمزق حلقها ، ونظرت بانكسار للمديرة
وقالت :

- لقد رفض .. يقول النظام لا يسمح .

كلتاها تعلمان أن (سعادته) ، قد نقل قريبة له قبل أيام ، من مدرسة في الحي
المجاور إلى مدرسة ملاصقة لمنزلها . استدارت خارجة من مكتب المديرية . وحينما
حاذت لوحة على الجدار تعلق عليها قرارات إدارة التعليم بصقت عليها . هكذا هو
رد فعل المحرومين، البؤساء ، يعبرون عن غيظهم بالبصق على الجدران .. فقط
حينما لا يراهم أحد .

دائما أصادف هيا تخرج ملتفة بعباءتها مع الفجر ، تنتظر السيارة التي تقلها إلى
عملها .. إلا اليوم . اليوم أنا أجهشت بالبكاء ، حيث لم تخرج هيا كعادتها . وهي
أيضا لم تعد القهوة لوالديها ، ولم توضى أباهما المقعد ، قبل ذلك ، أو تدفئ الماء
لأمها ، التي تسلخت يداها ، من رضح نوى التمر لبيعه علفا للأغنام . وهي كذلك ،
لن تصنع فطورا لأولئك الأطفال ، الذين سيخرجون إلى المدارس شعورهم مبعثرة ..
وربما بلا فطور .

اليوم أنا أجهشت بالبكاء ، بكيت كثيرا ، رغم أنه لا تربطني بهيا صلة ، ولا أعرفها
ولا تعرفني . ليس لأن هيا في الخامسة والعشرين ولم تتزوج ، لأنها تصر على أن
تبقي مع أهلها . لا ... لقد غادرت أهلها إلى الأبد .

اليوم أنا مزقني البكاء على هيا ، التي رحلت وأخذت قلبي معها ... قلبي الذي تعلق
بروحها دون جسدها ، هيا ماتت بحادث سيارة ، قتلتها السيارة التي تحملها إلى
عملها البعيد عن حطام البشر ، الذين كانت تقوم قبل الفجر من أجلهم .. وأمتعت

عن الزواج من أجلهم . ماتت وهي في طريقها إلى عملها البعيد ، الذي تمزقت بينه وبين نماذج من البؤس ، قضت المشيئة أن تكون حبلهم الوحيد المتصل بالحياة .

أنا جار هيا الذي أنطفأ وهج الحياة في قلبه ، يوم أنطفأت هيا .. الشمعة التي ظلت تتقد بصمت .. تقاوم الظلام بصمت .. تقاوم الصقيع بصمت .. الظلام والصقيع بكل ما يمثلانه من ظلم ، وتخلف ، وحيف ، وقسوة ، وترف ، ومحسوبة .. وبيروقراطية قبيحة . الظلام والصقيع كأبرز مظاهر التوحش وإحتقار الإنسان ونسيانه .

أنا اليوم جار هيا الجريح ، معطوب إلى النهاية ، لأن هيا التي مثلت أجمل مظاهر مقاومة الفناء ، الذي يفرضه الإنسان على الانسان ، وهيا التي مثلت نافذة الضوء الوحيدة ، لبقايا بشر (يقفون) بين الحياة واللا حياة .. قد أنطفأت إلى الأبد .

هيا ماتت في حادث سيارة ولم يسمع بها أحد ، رغم أنه دوى في قلوب أناس أيقظ نحيبهم صم الصخر .

ماتت هيا ... لم يسمع بها أحد ، وهي التي لم تضاجع الرجال ، ولم تتعري ، ولم تتخذ صديقا ، ماتت في عباءتها .. لم ير جسدها أحدا . ماتت لم تتزوج ولم تصنع لنفسها حياة ، لأنها كانت مشغولة بصناعة الحياة لغيرها ... ولم تكتب عنها الجريدة . قلت لرئيس تحرير جريدتنا المحلية :

– ماتت هيا ..

قال :

– كتبنا عن ديانا .

اليوم أنا أجهشت بالبكاء ... بكيت طويلا ، وقفت ولم تخرج هيا كعادتها . اليوم كذلك ، لم يخرج الأطفال إلى المدارس ، ليس لأنه ليس هناك (هيا) ترتب شعورهم وتعد لهم الإفطار . اليوم لم يخرج الأطفال إلى المدارس لأنه ليس لديهم دفاتر ، ولا أقلام ، ولا (مراييل) جديدة .. ولا فطور ... لأن هيا لم تعد هناك تنفق عليهم .

ماتت هيا فارتاح مدير التعليم ، ورئيس التحرير لن يكتب عنها ، وأنا انتقلت إلى بيت آخر، بعيدا عن بيت أهلها .. بعيد عن المكان الذي كانت تقف فيه ، بانتظار السيارة التي تقلها .. إذن أنا لن أفكر فيمن ماتت من أجلهم ..

إذن أنا مرتاح الضمير ...

شكرا مدير التعليم .. شكرا رئيس التحرير .. وداعاً هيا .. وداعاً هيا.

يفترس في الوجوه والليل يقترب

أحبها .. ومنحها قلبه .. ثم تنكرت له .. وأنكرت أن تكون تنكرت له .. لكنه لم يعد يراها ذلك المنهل .. الذي كلما عذبه العطش .. رنا بروحه إليه .. تغيرت .. لماذا تغيرت ..؟ هو لا يدري .. هو يسمع عن قصص الحب العذري .. بليت بين يديه ، تلك الكتب التي تتحدث عن أخبار (المجنون) وصاحبه .. قرأ عليها مرة ، (الأطلال) .. لابراهيم ناجي .. وقال : هذه (تعويدتي) .. وبكى .. في ليلة باردة .. شديدة ظلمتها .. أخذ القلم .. ناجى نفسه ، وكتب : - كيف أفرض نفسي على إنسان لفظني ..؟ يمكن أن (يتسول) المرء أي شيء ، لكنه لا يستطيع أن يتحول إلى (شحاذ) حب .. حينما يصبح الحب تسولا ... يكون أي شيء ... إلا الحب . العواطف لا (تستجدي) ... إذا كان السؤال ذلا .. فأذل الذل أن (تتسول) الحب . أذل الذل أن تقول لإنسان : أرجوك ... أحنيني .. وأكثر الذل قسوة وتوحشا ، أن تشبث بإنسان يدفعك بقدمه ، وليس بيده . تشبث به ، ظنا منك .. أنه قد أحبك يوما ما .. مفعج أن توهم الحب عند إنسان آخر .. وتظل تنتظر .. وتنتظر . تنتظر .. ولا تجني إلا وهما .. وعذابا .. وإنتظارا ..

أن تظل تطرق باب قلبه ، بحثا عن حب .. تظنه موجودا .. بحثا عن حب .. تظن أنه يحمله لك .. تطرق .. تطرق ، ولا تسمع إلا صدى ، يشبه عويل الريح .. في ليلة باردة .

كيف بدأت القصة ..؟ حدث نفسه .. كنت أقول : لا أريد أن أتقدم .. قلبي يصرخ بي : لا تقترب تحترق .. وقلت لك : أنا خائف أن تكون فورة عاطفة ... وقلت لي : لا .. ما أحمله لك شيء لا يمكن أن تتصوره ... كنت أقول : أنا قلبي موجوع .. لا يتحمل الصدمات .. أخاف أن تتركينه .. كان ردك علي : أنا أحبك (وبس) ... وصدقتك . كنت أحاول أن أقف عند حد معين .. لم أكن طالب جسد .. بل جائع لروح تضمه إليها .. وكنت تتقدمين نحوي كالطوفان .. فغرقت .. خائفا

من نهاية مثل هذه .. كنت .. تملكني شعور بأن صراخ الجسد كان أعلى من نداء الروح .. لكنني انجذبت إليك بسحر لا أعرفه ... مزيج من الروح والجسد .. لا أدري . لم أنتبه .. أن صراخ الجسد ، مثل أي شيء محسوس .. سوف ينتهي . لم أنتبه .. أن ما أعتقدته روحا ... كان سرابا .. فأنا الآن اقتات مرالذكريات .. واجتر مر الأسي ... وأعيش على (وهم) روح .. ما خلقت لي .. لقد كان ضجيج الجسد عاليا .. فلم أتبين .. أكانت الروح تهمس لي ... إن كان ثمت روح ..

أم كان الجسد يجرنني لجحيمه .. لأحترق ..؟ أكان نداء الجسد ... أم شوق الروح ... ذلك .. الذي جعلك تصرين على أن ابقى .. كلما آذنتك بالفراق ..؟ لا تقولي أنك الآن اصبحت مشغولة .. تمر الأيام والاسابيع ولا أسمع صوتك .. لا تقولي أنك مشغولة .. لم يتغير شيء .. قلبك فقط .. إن كان قلبك .. هو الذي أملى عليك ، أن تبدأي القصة ثم تنهينها ..؟ ماذا صنعت بي ..؟ كنت خائفا أتوجس .. أن تكون لعبة .. نزوة عابرة .. وأنا أحمل قلبا لا يعرف اللعب .. ولا يريد أن يلعب ..

كنت تسحبيني أكثر .. إلى أعماق عالمك .. كطفل برئ ، أسلم لك القيادة .. كلما أردت الخروج .. فتحت لي بابا جديدا ... تذكرين أنني كنت أقول لك : . أنا كل يوم أكتشف فيك شيئا ، جديدا ، جميلا .. أكتشفه في روحك ، التي كنت أمد إليها حبال شوق فأزداد ارتباطا . حدثتني عن كل شيء .. عن (جنونك) .. هل تعلمين ما صنع بي جنونك ..؟ هل تعتقدين أنني نسيت همسك القاتل ..؟ رأيت فيك إنسانا مذهلا .. روحا خلاقه .. وملاذا .. و .. كتبت فيك أجمل الكلمات ... دخلت عالمك .. وأنا الجريح ، الذي يبحث عن يد تمسح جراحه .. عذبتة التجارب الفاشلة .. مشبع بالخيبات .. وأوغلت في هذا العالم .. أوغلت .. وأنت تمنحيني فضاء هائلا .. لأحلق .. وأحلق .. حتى اصبحت معلقا بينك وبين الفراغ .. حيث لا ثمت شيء تحتي .. سوى الدمار .. أو أنت ..

ثم أطلقنتني .. فأنا أتردى في هوة أنت دفعتني إليها .. وكلما أمعنت سقوطا ، يتطاير قلبي مزقا .. و.. أراك هناك .. في برجك العاجي ، مشغولة .. (بتقليل أظافرك .. ربما) .. غير آبهة .. بجراحي .. وأنيبي ، ودمائي .. التي ملأت رائحتها الفضاء

أنا أصبحت خطيرا .. لأنني جريح .. والجريح تسكره رائحة الدماء ، فيأكل بعضه أحيانا .. وقد تكونين بعضي ..

كنت أقول لك ، أول ما رأيت صدودك .. وكررتها كثيرا : . هل أنت نادمة ..؟ كانت إجابتك : . لا .. كنت أريد أن أنسحب ، قبل أن توغل سكين الخديعة في قلبي ... لكنك رفضت .. كأنك تتلذذين بإذلالتي ... وأنا الجائع لفنات حب .. كنت أريد أن أنسحب بالبقية الباقية من حطام قلبي .. الذي مزقته .. حينما يختنق الحب .. تموت كل الاحاسيس والمشاعر .

منهك .. محزون .. مروع .. أبحث عن من يسمعي كلمة طيبة .. تداوي جراحي .. تخفف أحزاني .. تطفى الألم الذي يشتعل في قلبي ... أبحث عنك .. فلا أجذك ..

أنا أأذي وهبتك كل شيء .. قلبي .. وروحي .. ووقتي .. ومالي .. لم تكن تهمني في شيء من قبل .. لأنها من أجلك ..

أما الآن فإنني أتأسف على كل شيء .. ليس لأنك لا تستحقين ... بل لأنني كنت أدفع ثمن خديعتي ... وسذاجتي ..

إذ صدقتك .. أليس هذا منتهى الغباء ..؟ غامرت بنفسي ، دون أن أحسب للنتائج

... لأنك كنت نفسي كلها .. كنت الدنيا بأكملها لي .. إذا تذكرت أنك كنت
تقولين أن لديك الاستعداد .. لأن تضحى بكل شئ من أجلي .. شعرت بمثل حد
السكين ، يحز قلبي حزا : " أهذه هي المرأة ، التي زعمت في يوم من الأيام أنها
ستتخلى عن كل شئ من أجلي ..؟ أهذه هي المرأة التي حدثتها .. أنهاهي الروح ..
وليس الجسد ، الذي عذبني البحث عنها ..؟ فعلت هذا .. لأنني أحببتها حبا صادقا
.. لأنني وثقت بها الثقة .. العمياء ... أهذه هي المرأة التي كنت سأبيع الدنيا من
أجلها .. وأقف ضد العالم كله من أجلها ..؟ "

آه ه ه ه ه ه .. كم تملأ المرارة حلقي ، والغيط قلبي .. كم تتراقص شياطين
الانتقام أمام عيني ..

أهذا جزاء الذي منحك كل شئ .. ولم يطلب منك إلا روحك .. قلبك .. مشاعر
صادقة ... تعاملينه ، هذه المعاملة ..؟ تدمرينه هذا الدمار .. تهملينه .. وهو الذي
أنتشلك من الإهمال .. ورأى فيك إنسانا جميلا .. يستحق أن يعامل .. ويحتفى به
.. كما يحتفى بالأشياء الجميلة . .

لم يدخل الحب قلبك أبدا .. لا تزعمي غير ذلك .. الحب إذا دخل قلبا .. لا
يموت .. أما أنت .. ما أنت ..؟

هل تذكرين حينما قلت لك ، يوم رأيت صدودك .. والوجع يمزق قلبي : . أنا لا أريد
منك إلا الروح .. قلت لي بكل قسوة : . هذا كلام سخييف .. إما أن أكون جسدا
وروحا .. أو لا أكون .. مازلت أنزف من كلمتك هذه .. وحاولت أن أتناساها ..
بغياء .. لكن هيهات .. هيهات .. ما جاء بعدها أكدها ... خفق قلبي (سخييف)
.. نبض مشاعري (سخييف) ..؟ لم يدخل الحب قلبك .. ابدا . . امرأة كانت تعيش
تجاهلا .. وإهمالا .. وحرمانا .. وبحث عن من يعوضها .. من تنتقم من خلاله ..

من ذلك الواقع الذي تعيشه .. من ذلك الذي أهملها .. وتجاهلها .. وألغى
إنسانيتها .. من ذلك الذي لم يثمن هذا الشيء الجميل الذي بين يديه .. فرمت
شباكها .. بحثا عن لعبة تلهو بها .. لا بحثا عن حب .. فوقعت على إنسان رأس
ماله قلبه .. قلبه الذي سمت فيه الروح على الجسد .. فأقام محرابا للإخلاص فيه ..
إنسان لا يرى المرأة متاعا رخيصة للذة .. إنسان آمن بالروح دليلا إلى الجمال ..

أنا عشقتك روحا ... يدوى حنين في أعماقي شوقا إليها .. أحبتك حبا لا يخطر لك
على بال .. والله ما أشتهيت شيئا .. إلا تمنيت أن تشاركيني فيه ..

وماذقت لقمة ، ووجدت حلاوة طعمها في ريقى .. إلا عذبنى الحنين .. أن تكوني
معي تقاسميني إياها .. وأتذكرك .. (جنونك) .. عينيك .. لون شعرك ..

صدى صوتك .. حب مجنون ، مثل هذا .. ماذا تسمينه ..؟ أغبى الغباء .. أليس
كذلك ..؟ أحببتك ، ولا أدري لماذا ..؟ لم تكوني أجمل امرأة عرفت .. لكنك
اخترقتني .. كالسهم المسموم .. وأشرعت لك أبواب قلبي .. وأذبتك في دمي ،
تكوين مني حيث شئت .. فأنت في قلبي .. وأنت في عيني .. وأنت في سمعي ..
وصرت الهواء الذي أتنفسه . وما زلت أتعجب .. كيف كنت أصد النساء عني ..
وكيف استسلمت لك ..؟ قدرتي أن أعيش بقلب .. وألغى الجسد من حساباتي .. أنا
لا أستعطفك .. ولا أطلب شفقتك .. الحب لا يستجدي .. الحب لا تعود له الحياة
بهذه الطريقة .. أي حب سوف يخرج من بين الحطام ..؟

الحب لا (يتسول) .. أنا عرفت أنني متسول حب .. ساذج .. وأن لا مكان لي في
قلبك .. كل ما في الأمر أنك تشعرين أنك (تورطت) معي .. تخافين أن تطردينني
، هكذا مباشرة .. تخافين ، لأنك تعتبريني (ورطة) .. وليس حبيبا .. اعتقد يوما
أنك ملاذ .. العمامة التي ظل ينتظرها طويلا .. في صحرائه المقفره .. أنه ..

سيطفئ عطشه .. فى (روحك الجميلة) .. وهذه حقيقة .. أقولها .. رغم ظلمك لي ..
.. رغم الدمار .. الذي تحقق على يديك .. لقلبي الموحجوع ..

تخافين أن انتقم منك .. إن طردتني .. أن ابتزك .. أنا لن أبتزك .. لأنني لم أطلب
جسدا .. حتى أساوم عليه .. والحب لا يأتي إبتزازا ..

أنا مفجوع بغدر النساء .. والمغدور يختار الطريقة التي تناسبه للإنتقام .. لا أحد
يستطيع أن يتنبأ .. ماذا سيفعل .. هو وحده الذي يقرر .. هو وحده الذي يختار
الطريقة التي يحاسب فيها من غدر به .. من عذبه .. وأشقى قلبه ..

أنا سأرحل .. بكل جروحي .. وفشلي .. وأثار الغدر .. الذي يمزقني .. إنسان
أحبك بمثل هذا العنفوان .. وهذا الجنون .. إنسان يبكي حينما يسمع صوتك ..
ويبكي حينما يبطئ عليه صوتك .. ويبكي حينما تصله رسالة منك .. ماذا تتوقعين
منه ..؟ أنا الآن أدوس على قلبي .. أدربه على كرهك .. حتى يصل إلى النتيجة التي
أريد .. أن يكرهك بنفس العنفوان الذي أحبك فيه .. عند ذلك .. حينما يصل تلك
المرحلة .. أي شئ سيفعله .. سيكون (مقبولا) .. و (منطقيا) .. ولا مكان
للضمير فيه .. صار حينما يرد إلى خاطري شئ يثير جروحي .. إسماك .. أشياء
محددة تحبينها .. تقفز المرارة إلى حلقي .. ويخفق قلبي .. وتقفز الدمعة إلى عيني
.. ماذا أصنع ..؟ صرت الآن استدعي شياطين الحقد والانتقام .. وأطلب منها
محاصرة القلب الغبي .. لقد بدأت أنجح .. ولا بد أن أنجح .. فافرحي ..

إفرحي أنك ستخلصين من هذه (الورطة) .. من هذا (العبء الثقيل) .. الذي
عبثت به ، عبث الطفل بلعبته .. ثم رميته كالنفايات .. إفرحي أنك لن تسمعي صوتي
المبحوح .. الذي يذكرك بالطيبة .. والسداجة .. وربما الغباء .. وعدم فهم قوانين (
اللعبة) .. إفرحي أنك لن تتلقى مني أي رسائل .. تلتمس عطفك .. ثم تقرأينها ..

وتقولين : متى يكف هذا الغبي ..؟ سيكف ... سكيف ..

أنا أعلم أن أي شئ أفعله .. بما في ذلك تدمير حياتك .. بالطريقة التي أعددتها ..
بالطريقة التي تعيد الإعتبار لقلبي المجروح .. الذي وقع ضحية .. طهرة .. ونقائه ..
وصدقه .. كل ذلك .. لن يضمّد جراح قلبي المغدور ، ولن يوقف نزيفه .. ولا أن
يجمع حطامه .. ولا أن يسكت بكأؤه ... أو أن يخفف من لهيب الكراهية الذي
يشتعل فيه .. قلت لك كثيرا .. أنك لن تجدي على وجه الأرض من يحبك أكثر
مني .. سأصل إلى مرحلة أقول فيها .. لن تجدي على وجه الأرض من يسعى إلى
دمارك .. ويكرهك أكثر مني .. أنا حزين أنني وصلت إلى هذه النتيجة .. أنت
دفعتنني إليها ..

انا .. سأرحل .. الحب علاقة بوجهين .. حب خالص .. أو .. بغض أعمى ليس فيه
منطقة وسط .. ولا مكان للنسيان فيها .. ولا يمكن أن يدفع الثمن فيها طرف دون
آخر .. ولا يمكن أن تنتهي دون خسائر .. للطرفين ..

وهي ليست لعبة .. ينهيها أحد الأطراف متى ما أراد .. وليس عدلا أن يتحمل طرف
، ثمنها الباهض لوحده .. لا يستطيع حتى لو حاول ... لا يستطيع .. لأن الدمار
هائل .. أعظم من أن ينسى .. له رائحة الحزن .. وطعم الفجيعة .. ومرارة الغدر ..
وذلل الخديعة ..

هل تدريكين معنى أن تنزعي طفلا من أمه .. وترميه في الزحام ..؟ إنه التيه .. والضياح
.. والفقد .. والقلب الفارغ من كل أمل ..

إنه الليل الأظلم .. يقبل .. يراه قادما .. وهو ما زال يفتش في الزحام .. يتفرس في
الوجوه .. بحثا عن (وجه واحد) .. والليل يقترب ..

إنها الوحشة بلا مدى .. إنها الوحشة بلا مدى ..

سألني مرة : . كيف حالك ؟ قلت : . قبل أن أجدك ، كنت .. تائها يبحث عن تائه
.. أذكر أن الاجابة أعجبتك ، فناديتي نداء رقيقا .. مازلت أحسه في قلبي : . يا
عمري ..

ها أنذا في دوامة التيه من جديد !!

صف الوريقات ، ثم ثناها برفق ، ووضعتها في ظرف . . وكتب : العنوان :

المرسل اليه : ~~~~~ ص . ب : ~~~~~ المرسل : ~~~~~

قرر ان يخرج من النافذة ، لان الباب من الجهة الغربية . الغرب لا يأتي بالأمل . .
حدث نفسه .. الشمس تشرق من الجهة المخالفة . (الغرب) كذلك .. أكثر ظلمة
.. وقسوة .. وغدرا . رمى الظرف في اول صندوق بريد صادفه . جمع موظف البريد
الرسائل وبدأ يفرزها . عشر على الرسالة .. بلا معلومات . . بدأ بتعبئة البيانات . .

المرسل اليه : مجهول المرسل : مجهول ص . ب : فارغ ..

كانت هناك مساحة فارغة ... قلب الظرف بين يديه ، ثم . . قذفه . . في الفراغ
..... الى المجهول ..

الدرس في التابع والمتبوع

أكثر شئ يضايقه ، حينما تبدأ زوجته بعقد مقارنة بينه وبين زملاء دراسته في الجامعة ، تقول : تأمل .. فلان أصبح مسؤولا كبيرا في الدائرة الفلانية ، وأنظر ... فلان غدا صاحب منصب رفيع في تلك المؤسسة . تفعل ذلك وهي تضع السفرة ، وتفعله وهي ترفعها ، وحينما تشرب هي وإياه الشاهي في غرفة المعيشة ، أو عندما يخرجان هم والأطفال في السيارة لغرض ما . وهي غالبا ما تختتم حديثها قائلة : (أنا أعلم أنك لست أقل منهم قدرة وكفاءة .. أليس ذلك عجيبا ..؟) .

كثيرا ما يرد على تساؤلاتها بإبتسامة ، وقد يقول أحيانا ، حينما يراها مهتمة جدا : ألسنا نعيش مثلهم وأحسن .. وهل قصرت عليك بشئ يا حبيبتي ..؟ تستحي وتقول : لا .. فقط أنا أتعجب ، ألا ترى أن هناك سر ..؟ ربما .. يقول .

في واقع الأمر هي تعرف ما تسميه (سرا) ، لكنها لا تجرؤ أن تقول لزوجها ، إفعل مثلهم لتصل ، رغم أنها تعيش في أعماقها صراعا بين ما تراه من قدرات زوجها ، وبين القيم المثاليات التي يتمسك بها ، وترى أنها تحول بينه وبين ما تطمح إليه من أهداف .

رغم أنها تعلم أنه لا يقبل المناقشة في هذا الموضوع ، ويعده مسألة مفروغ منها ، إلا أنها لا تفتأ تلمح له ، من خلال ضرب الأمثال ، أن موافقة

ضرب من المستحيل ، كأن تقول : (من لا يحني رأسه تقتلعه العاصفة) ،
أو (اليد التي لا تقدر على كسرها قبلها) ، وغيرها من ذلك الرصيد الضخم
من الأمثال الشعبية ، مثل (الموت مع الجماعة رحمة) .

هي تعلم أن كل هذه القصص والأمثال لا تؤثر فيه ، بقدر ما تزعجه ،
وأحيانا تثيره ، عندما تذكر له بعض أصحابه القريبين ، الذين شاركوه في
يوم من الأيام مبادؤه ، أو ما تسميه هي مثالياته وأحلامه ، ثم تنازلوا
عنها ، أو عن بضعها ، وبقي هو لم يتغير ، حتى أطلق عليه أحد أقاربه
تندرا : (الحرس القديم) .

حدثها مرة ، فقال : هل تعلمين كم من البطون الجائعة ، والاجساد
العارية ، سوف يسد رمقها ، ويكسى عريها لو أستوصل الفساد ،
ووضعت الأموال في مكانها الصحيح ؟ . صاحبي ، صاحب المبادئ ، أو
الذي كنت أظنه صاحب مبدأ ، يقول : أنت لا تستطيع أن تواجه التيار
وحدك .. لا تركب رأسك .. لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ... إلا من أكره
وقلبه مطمئن بالإيمان . فجأة يا زهراء ، تحول صاحبي ، ذلك (الأصولي
الشرس) ، الذي يشن في جلساتنا الخاصة ، الحملات الشعواء على الفساد
والمحسوبية ، وصروح الربا ، والإعلام الفاسد ، والفضائيات الداعرة ، إلى
حكيم .. إلى حمامة ودیعة . يقول : علينا أن نتدرج في الخطاب ، حتى

نصل إلى موقع القرار ، الذي نستطيع من خلاله أن نمنع الفساد .. إن
الحكمة تتطلب ذلك . الحكمة يا فضيلة (الشيخ) ... الحكمة أيها
(الداعية) الكبير .. أم المنصب الذي (يسيل لعابك) ، من أجله .. (..) ؟
لا .. لا .. هذا غير صحيح .. سأصعد الأمر ، وليكن ما يكون .

ردت عليه محتجة : لماذا تركب رأسك ، لماذا أنت عنيد .. هل أنت
وكيل آدم على ذريته . هل تريد أن تدمر نفسك ، وتدمرنا معك ، مثلما
حرمت نفسك من الفرص الجيدة والترقيات .

– هل تقبلين بالفساد ، وأكل الأموال بالباطل ..؟

– ما شأننا نحن ؟ ألسنت تقول إن فلان وفلان من أكثر من عرفت نزاهة
وإخلاصا ..؟ لماذا لا نسمع لهم صوتا ..؟ وأنظر فلان وعلان ، الذين طالما
تطعمت بالحديث عن التزامهم وتضحياتهم ، وأقحمت ذكرهم في أمسياتنا
. أين صاروا ... وأين أصبحت أنت ..؟ وجاهة .. وأموال ، أو (بزنس
وبرستيج) ، على حد تعبيرك .

– هذا عرض قريب ، وسفر قاصد يا زهراء .. والحررة تموت ولا تأكل
بثدييها ، وما عند الله خير وأبقى ..

– يا أبا يمامه لم يصل الأمر بعد إلى هذا الحد .. وأصدقك القول أنني منذ تلك الليلة الهادئة المقمرة ، قبل عدة سنوات ، حينما حدثتني ، ونحن في الطريق إلى مكة ، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، بذلك الشغف الممزوج بالشجن ، وأنا أحس أنك تحلق في سماء لا أرض تحتها .. لكنني لم أجرو على مناقشتك ، وتركتك في أحلامك الوردية . وأصدقك القول كذلك ، أنني أحيانا أشك بأنك واقعي . لماذا يا أبا يمامه تريد أن تكون رأسا تناطح ..؟ لماذا .. لا ..

في هذا اللحظة دخل بشير ، يترنم بكلام ويتضحك ، فقطع كلامها . قال بشير ، وهو الإبن الذي يدرس في الصف الثالث ابتدائي :

– اليوم يا أبي قص المدرس علينا قصة جميلة جدا .

– ما هي القصة يا بشير .؟ سأله باهتمام .

– قصة الفلاح وإبنه يا أبي ، ألا تعرفها ..؟ ثم أخذ يترنم : (لا تكن رأسا .. لا تكن رأسا دن .. دن ..) .

سكت ولم يجبه . لكن بشير واصل حديثه :

– قال الفلاح يا أبى لإبنه : (يابني لا تكن رأسا فإن الرأس كثير الآفات)
. ومضى يروى ما سمعه من أستاذه بسرد طفولي عذب .

زهراء شعرت بإرتياح ، أن جاءت حكاية الأستاذ متوافقة في جانب منها
مع ما كانت تناقش زوجها فيه ، لكنها لم تشأ أن تصرح له بذلك ، أو أن
تقول : رأيت ، أو أنظر .. الناس كلهم رأيهم هكذا . كان بشير يتحدث
، وتند منه بين حين وآخر ضحكة إعجاب بالقصة . غمغم وقال بصوت لا
يكاد يسمع :

– (بئسما علمك استاذك .. لا تكن رأسا .. ماذا تكون إذن .. ذنبا ..؟) .
بشير ، قال يخاطبه :

– يقول المدرس لا تكن رأسا ، ألم يعلمكم ماذا تكونون ..؟
فوجئ الطفل بالسؤال فتوقف عن الكلام . وصار ينقل نظراته بين أبيه وأمه
، التي هي كذلك لم تتوقع سؤالا كهذا . فأغتتم فرصة حيرة الطفل ،
وإرتباك أمه ، ليلقي سؤاله المقصود :

– هل يعني أن تكون ذنبا ..؟

شعر الطفل بالخجل ، وأحس أن العبارة جارحة نوعا ما ، وفيها خروج عن اللياقة التي رباهم عليها ، وإن كانت لا تخلو من السخرية المضحكة .
أدركت أمه ما يدور في ذهنه فأرادت أن تنقذ الموقف ، فقالت :

– أبوك يعني أن الذنب ، أي الذيل لا قيمة له .

نظر إلى وجه أبيه مستفهما ، فرد عليه بابتسامة ، فانطلقت منه ضحكة مدوية ، كأنما أعجبه الاستنتاج الذي توصل إليه أبوه ، وتطوعت أمه بتوضيحه . توقف عن الضحك وقال مجيبا على سؤال أبيه :

– أكيد لا .. ولم أفكر ، ولا أحد من الطلاب بهذا السؤال . المدرس

تحدث فقط عن مشاكل الرأس ، كما حكى ذلك الفلاح لإبنة .

– إذن هو لم يتحدث عن معنى أن يكون الإنسان ذنبا ، بدل أن يكون رأسا .. أقصد ، أنه لم يذكر أن الفلاح قال لابنه شيئا حول ذلك ..؟ سأله
. قال بشير :

– لا .

– وأنت يا بشير إذا كان الرأس كثير الآفات ، هل تحب أن تكون

ذنباً ..؟

- لا .. طبعاً ..

- ولا ذنب حصان يا عزيزي ..؟

قاطعته زوجته منزعة : أبو يمامه .. ما هذا النقاش ..؟ الطفل لا يعي ما تقول .. والموضوع كله لا يعدو قصة قصها المعلم من باب الفكاهة لا غير؟

- هل تعتقدون ذلك ..؟ ما رأيك يا بشير .. هل تريد أن تكون ذنب

حصان ..؟

لم يجب ، وإنما ظل ينظر إلى أبيه تارة وإلى أمه تارة أخرى .

- الحصان جميل أليس كذلك يا بشير؟ هز رأسه بالإيجاب . أنت رأيته ..؟ قال الطفل نعم . رأسه وذنبه .. كلاهما جميل .. أليس كذلك؟ نعم . قال : أسألك .. وقل لي بصراحة .. أيهما تحب أكثر ..؟ أجاب بشير بلا

تردد : الرأس . سحب رأسه إليه ، وأخذ يداعبه بمرح ، ويقول :

- ممتاز يا بشير .. ما رأيك لو نأخذ الليلة درساً عن الرأس والذنب .

ضحك بشير .. وأعلن موافقته . الدرس للجميع .. لي ولأمك ولك

ولإخوانك .. جيد ..؟ هز رأسه . - بعد المغرب إن شاء الله ، سنذهب
جميعا إلى المكتبة ، لنشتري المواد الضرورية للدرس ونعود إلى البيت
ونجهزها ، ثم نأخذ درسنا بعد الرجوع من صلاة العشاء .
عادوا من المكتبة ، بعد أن اشتروا صورا لاصقة ، لحيوانات مختلفة
وبحجم واحد ، وأشتروا معها كذلك ، لوحا أبيضاً . بعد صلاة العشاء
اجتمع بشير وأمه وإخوته . قال والده :

- قبل أن نبدأ الدرس ، سنقوم بقص كل صورة إلى ثلاثة أجزاء . الجزء
الأول يشمل رأس الحيوان فقط ، والجزء الثاني الذنب فقط ، أما الجزء
الثالث فهو بقية جسم الحيوان . تذكروا نريد الرأس لوحده ، والذنب
لوحده من كل صورة .. الدقة مطلوبة . أنهمك الجميع بعملية القص ، أما
هو و زهراء ، فقد تولوا تعليق اللوح على الجدار . كانت تقول له :

- ماذا تريد أن تصنع ..؟

- يرد بشي من الدعابة : سأشرح فلسفتي الكبرى : (الرأس والذنب ..
إشكالية المكان : قراءة في التابع والمتبوع) .
لم تعجبها دعابته الثقيلة ، فقالت بضجر :

– ليتك أشغلت وقت هؤلاء الأطفال بشئ يفيدهم .

إستمر في مزاحه قائلا :

– شئ يفيدهم ...؟ ستعرفين أهمية ما أفعل الآن ، حينما أخرج هذه (الفلسفة) في كتاب خطير يحمل نفس العنوان ، بالإضافة إلى عنوان فرعي هو : (ما بعد البنيوية والتقويمية .. إحتضار الرأس وسمو الذنب) .

– ألا تكف عن هذا المزاح الثقيل ..؟

– لا يا زهراء .. تخيلي إحتفاء المنتديات العلمية ، والصفحات الثقافية بي وبكتابي .. سأكون مشهورا كما تحبين .. صورتني ستظهر بشكل يومي في الصحف ، إلى جانب صور جاك دريدا ، ورولان بارت ، وميشيل فوكو .. وسأدعى لحضور مؤتمرات في الخارج ..

طبعا سأخذك معي .

– قاطعته : أقول .. (عفوا يا عزيزي .. دلة القهوة على النار .. وأخشى

أن تفوح .. بعد إذنك) .

– جاهزون ..؟ سألهم .

- ردوا بصوت واحد : جاهزون .

ضم أجزاء الصور إليه وخلطها ، ثم قال : سأثبت جسم الحيوان على اللوح ، ثم أختار من الأجزاء الأخرى رأسا وذنبا ، ثم نرى ما الذي يحدث . وقع الاختيار على جسم زرافة ، وأختار رأس بعير وذنبيه فألصقهما على الصورة ، مكان رأس الزرافة وذنبيه .. وهنا صاح الأطفال :
- .. لا .. لا .. هذا رأس بعير ..

- والذنب ..؟ سألهم .

فترددوا ، ولم يجزموا بشئ . رفع رأس البعير ، ووضع رأس الزرافة مكانه .. فصاحوا تأييدا للوضع الصحيح . رفع رأس الزرافة مرة أخرى ووضع مكانه رأس حمار ، ثم كلب .. وحيوانات أخرى عدة مرات ، وكانوا يصيحون في كل مرة ، أن الوضع غير طبيعي . أعاد رأس الزرافة ، ورفع ذنب البعير ، ووضع ذنب الزرافة مكانه .

فقال بشير ، وإخوانه بتعجب :

- أووه ... لم يتغير شيئا كثيرا ، وأضافت أروى : أعتقد أن الزرافة

يمكن أن تعيش بذنب البعير ، ولن يلاحظ أحد ذلك .

– قال والدها : هل توافقون على ما تقوله أروى ..؟

فصاحوا جميعهم تأييدا لقولها .

– قال : ما رأيكم لو نجرب غير ذنب البعير مع الزرافة ...؟

وضع أذنان عدة حيوانات مكان ذنب الزرافة ، وفي كل مرة يسألهم كان

جوابهم واحد :

– لا توجد مشكلة .

استمر يغير رؤوس الحيوانات وأذنانها ، وفي كل مرة يضع رأسا بدل الرأس

الحقيقي ، كان يسمع صيحات الاحتجاج وأصوات الاستهجان : أووه ..

لا .. لا ... ما يصلح ، أما حينما يغير في الأذنان ، فإنه يسمع

الضحكات وأصوات الدعابة والسخرية .. مثل : (الذنب ما عنده مشكلة

في أي مكان يكون) ، أو (الذنب أحلى له يكون مع الحمارة) ، وهكذا ..

بعد أن أنهى إستعراض جميع الصور التي معه ، قال :

– والآن انتهى الجزء الأول من الدرس ، وبقي الجزء الثاني والأخير .

الجزء الثاني عبارة عن السؤال التالي :

– ما هي النتيجة التي خرجنا بها من قيامنا بخلط أجزاء الحيوانات ؟

– قالت أروى : أنا فهمت أن الرأس لا بد أن يكون رأسا .. أعنى من

الصعب أن نلعب بالرأس ونضعه في مكان غير مكانه .

– ممتاز يا أروى .. ممتاز .

– أنا فهمت أن الذنب يمكن أن يكون في أي مكان يوضع فيه ، ولا يواجه

أي مشكلة

– ممتاز .. رائع يا بشير .. رائع .

كانت البنت الكبرى يمامه مستغرقة في ضحك ذي مغزى ، أما زوجته فقد

ارتسمت إبتسامة عريضة على شفثيها . رفع بصره إليهما فقال ، وكأنه

يؤكد إنتصاره ، وهو يجمع قصاصات الصور :

– يا ويلك يا جاك دريدا ، جنئك بما وراء التقويضييه .. بإشكالية الرأس

والذنب . ثم أنفجر ضاحكا ، ولا شعوريا بدأ يدندن :

– (لا تكن رأسا .. لا تكن رأسا) ..

ولم يتوقف إلا حينما دوت في أذنه صرخة بشير :

- بابا .. ما هذا ؟..

- همس في سره : الحمد لله .. الدرس أثمر ..

ديمي .. حب أول

كنا قد فرغنا لتونا من إحدى فقرات المؤتمر ، وبقي على موعد صلاة الظهر أقل من الساعة . اقترحت عليه أن نتناول كوبين من القهوة بالحليب ، مع قطعة من الكيك ، لنضع عن كاهلينا شيئا من العناء ، الذي فرضه ضغط البرنامج ، الذي بدأ مع ساعات الصباح الأولى . استحسن الفكرة ، فتوجهنا إلى الفندق ، حيث مقر إقامتنا .

في البهو الأرضي أخذنا زاوية قصية ، منحنا انعزالها بعض الخصوصية ، وكثيرا من الهدوء الذي نحتاجه . كنت قد تعرفت على مصعب في مؤتمر سابق ، فاستمرت العلاقة بيننا ، رغم بعد المسافة ، وقويت ، لتتحول إلى صداقة حميمة .

مصعب في العشرينات ، برونزي اللون ، شعره أسود فاحم ، ويكسو وجهه لحية خفيفة ، تضي عليه مسحة من السكينة والوقار ، رغم صغر سنه . في ظلال عينيه يتوارى حزن لا يفصح عن نفسه ، ويمنع من السؤال عنه حياء ، جعل من مصعب قليل الحديث ، وجعل من يعرفه يتردد في الدخول في مغامرة لاستكشاف دخيلته .

لم نتكلم كثيرا ، لكن مذاق القهوة الساخنة اللذيذ ، وهدوء المكان ، جعلاني أبادر (مصعب) ، عندما رأيت في محياه علامات الاسترخاء ، والاستغراق في لحظات تأمل عميقة ، لأسأله عن أصعب موقف مر به

خلال السنوات الخمس ، التي مضت على وجوده هنا ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، كشاب نشط في حقل الدعوة إلى الله .
خيل إلى ، حينما سعد نظره في ، كأنما قد سألته عن أمر كان يفكر فيه ، لحظة السؤال .. فقال ، وكأنه يدفع عن نفسه تهمة :
- عفا الله عنك ، وأي مواقف تستحق أن تسجل لشاب صغير مثلي ، إلا أن يكون سؤالك استفهاما عن شيء بلغك عني .
كانت عيناه تقولان شيئا قطعاً ، وأحسست بالخرج من الطريقة التي رد بها علي ، ومن نظرتة إلي فسكت . مرت لحظات من الصمت بيننا ، تشاغلنا فيها بتحريك الملعقة داخل كوب القهوة ، الذي بقي فيه نصفه ، وتلهى هو ، بصف مكعبات السكر فوق بعضها في الطبق الذي أمامه . ثم فجأة قال لي :

- كأنني لم أكن لطيفاً في الرد على سؤالك ..؟

- لا .. لكن يبدو أنني لم احسن طريقة صياغة السؤال ، أو ربما أنني

أقحمت نفسي في شأن خاص .

- لا ... ليس أي منهما ، لكن .. و (تردد لحظة) أسألك بالله هل بلغك

شيء عني..؟

- لا والله ، أنت عندي فوق الشبهات ..

أطرق قليلا ، ورأيت سحابة داكنة تظلل وجهه ، ثم رفع رأسه وقال :
- أنت تعرف مكانتك عندي ، وسأحدثك حديثا من أعجب ما مر بي : ..
في العام الماضي مررت بتجربة .. كان الفصل الدراسي يلفظ أنفاسه أو يكاد .
هذه هي المحاضرة الأخيرة ... قبل الامتحان النهائي ، وكان أستاذ
المادة ، " مناهج البحث " ، قد وعدنا أن يستكمل في هذه المحاضرة ما
بدأه في المحاضرة السابقة ، من شرح لأهم عناصر المادة . وكما تعلم ، نحن
الذين نتحدث الإنجليزية لغة ثانية ، يهمننا جدا ، مثل هذه المحاضرات
المركزة ، رغم وطأتها الثقيلة على الذهن .

كنت مستغرقا تماما في الاستماع للدكتور ، والكلمات تخرج تباعا من فمه ،
مثلا يقذف بركان حممه . في هذه اللحظة ، وصل (طالب) متأخر - لم
ألق له بالا - وصار يخترق الصفوف ، حتى أخذ مقعدا بجانبني . لم أراه ،
لكنني لمحت خيالا ، وسمعت صوت تحريك الكرسي . تأكدت أنه جلس
في الكرسي المجاور ، حينما طلب الدفتر الذي أسجل فيه ملاحظاتي .
أعطيته إياه ، دون أن أنظر إليه ، أو حتى أسأله ، لماذا .. ، لأنني كنت
منشغلا بتدوين ما يقوله الدكتور .

كان الدكتور قد أنهى كلامه ، حينما سمعت (الطالب) الذي جلس

بجوارني يقول :

- أريد أن استعير دفترك .. بالمناسبة أنت مسلم ..؟

ألتفت إلى مصدر السؤال ، الذي كان مفاجئاً لي ، لتصطدم عيناى بمفاجأة

أكبر . لقد كان الذي جلس بجوارى ، وطلب دفترى ، فتاة فى غاية

الجمال . كانت تقلب بين يديها لاصق من ذلك النوع الذى يوضع على

مؤخرة السيارة ، والذى يحمل عبارات مثل :

"اقرأ القرآن .. آخر وحي نزل من السماء " ، أو " الإسلام آخر الديانات

السماوية .. تعرف عليه . "

كان اللاصق ، مع أوراق أخرى عن الإسلام ، موجود ضمن دفتر

محاضراتى ، الذى طلبت الاطلاع عليه . قلت لها ، وأنا أحاول ترتيب

دفترى :

- نعم أنا مسلم .

كان الدكتور يجمع أوراقه ليغادر القاعة ، حينما بادرتنى بسؤال آخر قائلة

:

- بالمناسبة ما هو الإسلام ..؟

كنت مرتبكا ، مشتت الذهن ، بين الإجابة على سؤالها ، والدخول معها

فى حوار ، رغم ما وقع فى قلبى منها ، وبين شعورى ، من جهة أخرى

بالمسئولية ، بتبيان ما هو الإسلام لها .

كانت المفاجأة التى شلت قدرتى على التفكير ، هى أننى لم أتوقع موقفا

كهذا . فأنا رغم مرور ثلاثة أشهر على الفصل الدراسي ، لم أر هذه الزميلة مرة واحدة ، لأنني آتى آخر الناس ، قبل موعد المحاضرة بلحظات ، وأقبع في آخر مقعد في القاعة ، واخرج أول الناس لحظة انتهاء الوقت المخصص للمحاضرة ، دون أن أنظر في وجوه الطلاب الذين يشاركونني المكان . بين هذين الوقتين ، أكون مشغولا بتسجيل ما يقوله الدكتور ، أو التفكير بشأن من شئوني الخاصة خارج الجامعة .

كانت تنتظر إجابتي على سؤالها ، وهي واقفة على رأسي ، وقد خلا المكان ، إلا مني ومنها . قلت وأنا أحاول أن أتخلص من الموقف الذي وضعتني فيه :

- الموضوع يحتاج إلى وقت ، لكنني أستطيع أن أعطيك بعض المنشورات التي تجيب على بعض تساؤلاتك .

ردت بسرعة ، قائلة بأن لديها الوقت لتسمع مني ، إن لم يكن لدي مانع . أسقط في يدي ، فقلت :

- نعم .. لا بأس ..

فأسرعت تقول :

- ما رأيك لو نجلس في الكافتيريا ، وأدعوك إلى كوب من القهوة ..؟

شعرت بحرج شديد ، وتساءلت في نفسي : ماذا لو رآك أحد ، و أنت مع

هذه المرأة ؟ من سيصدق أنك تعرض عليها الإسلام ؟.. ومن سيصدق أنها

هي التي ابتدأتك بالسؤال ؟..

لم تنتظر ردي ، وظنت أن صمتي علامة الرضا والموافقة ، فقالت :

- أشكرك على قبول الدعوة .

سرنا إلى الكافتيريا و أخذنا مكانا نائيا ، بعد أن طلبنا قهوتنا . وشرعت أحدثها عن الإسلام . أثناءها كنت أتوقف لحظات عن الحديث ، لأتيح لها فرصة السؤال عن نقاط محددة . كانت تسأل .. وكانت أسئلتها تدور حول قضايا لا علاقة لها مباشرة بالموضوع ، وأقرب ما تكون استجلاء لطبيعة شخصيتي ، وطريقتي في التفكير . لاحظت كذلك ، أنها تدون كل ما أقول .

عند هذا الحد أنهيت الحديث ، واعتذرت ، متعللا بارتباطي بموعد سابق .

حين هممت بالانصراف قالت :

- كيف أعيد لك أوراقك ؟.. لقد نسيت أن تخبرني بعنوانك ...

في واقع الأمر لم أنس ، ولكنني لم أشأ أن تعرف أين أسكن . قلت :

- أنا لا أبقى في البيت كثيرا .. سأكون غدا في المكتبة ، وباستطاعتك أن

تتركبها لدى الموظف في قسم الإعارة .

حملت نفسي ، وأنا أنوء ، ليس بذلك الحشد من الكتب ، التي تزدهم

بها حقيبتني ، بل بوجع صرت أحسه يجثم على قلبي .

صرت معذب بين قلبي وضميري ، يتجازبني أمران : هواي الذي يزين لي الحديث مع هذه الفتاة باسم الدعوة ، وعقلي الذي تصيح به نفسي اللوامة :

أنظر ما تصنع أنت تحوم حول الحمى توشك أن ترتع فيه .. ألا إن حمى الله محارمه .. ألا إن حمى الله محارمه ..

كنت قد وصلت سيارتي ، فألقيت بجسدي على المقعد ، و وضعت رأسي على المقود . أحسست أنني أتنفس بصعوبة . احتقنت عيناى بالدموع ، لكنني لم أبك . وضعت المفاتيح ، وبدأت بتشغيل السيارة .

في هذه اللحظة انطلق صوت القرآن نديا من جهاز التسجيل ، الذي كان في وضع التشغيل . يا الله ذاك الجفاف الذي كاد يخنقني ، وحاصر الدمع في عيني ، يتبدد على صدى النداء الخالد ، كلام الحق سبحانه ، فتدفق الدمع من محاجري حارا ، وصرت انشج مثل الأطفال . استغفرك ربي .. هذه شيطانة تعرضت لي ، سأطردها من خاطري ، سأجتثها من قلبي . آه يا قلبي .. ساعدني يا رب .. ساعدني .. فإن قلبي مصاب .

نمت ليلتي تلك ، بعد أن صليت وترى ، وتضرعت بين يدي الله ، أن ينصرني على نفسي والشيطان .

من الغد كنت في المكتبة في مكاني المعتاد ، في قاعة الإطروحات الجامعية ،

التي تتصل عبر ممر ضيق بالجزء الخاص بالكتب التي نفدت من السوق ،
ولم يعاد طباعتها . إما لأسباب قانونية ، أو لأن موضوعها قد تجاوزه
الزمن .

أفضل هذا المكان لهدوئه ، ولأن قلة من الطلاب يجلس فيه ، بسبب قدم
المبنى ، وتهالك الطاومات ، كما أنني أظن أن قليلا من الطلاب ، يتحمل
نظرات باحث كبير السن ، لا يفارق ذلك المكان ، منذ عرفت الجامعة ،
وعثرت صدفة على هذه الزاوية النائبة في المكتبة . هذا الرجل يظل يحدق
في أي قادم جديد إلى المكان ، وتزداد نظراته حدة عند أي صوت يحدث ،
حتى ولو كان رفيف تقليب صفحات كتاب .

استقرت على مقعدي ، وألقيت ابتسامة على رفيقي الباحث ، الذي
حدجني بنظرة من خلف نظارته ، وبادلني ابتسامة بابتسامة . لقد اصبح
بيني وبينه عقداً غير مكتوب ، قائم على الإقرار بحق كلينا في المكان .
ربما بعد أن نسي في إحدى المرات محفظته ، فعثرت عليها ، و أعطيته
إياها . فقال لي ، بعد أن فتشها أمامي ، ولم أكن أنا أعرف ما بداخلها ،
أنت رجل أمين . كما أظن أنني ملكت قلبه ، عندما أعطيته مرة فطيرة
حمص . فقال بعد أن أكلها ، على جوع فيما يبدو ، إنها لذيذة ، أنت
رجل لطيف .

كان قد مر علي ثلاث ساعات تقريبا ، وأنا منهمك بالذاكرة ، فلم أقم من مكاني ، وكان تركيزي جيدا . ربما كان هدوء المكان سببا من الأسباب .
إحساسي بأهمية المادة وانسجامي معها سبب آخر .

كنت في حال من السكينة النفسية لم أشعر بها من قبل ، حتى أنه لم يرد على خاطري أي من الأحداث والمواقف ، التي مررت بها خلال الأيام الماضية . طافت هذه الأفكار بسرعة في ذهني ، فابتسمت ابتسامة رضا عن نفسي ، وأنا ألقي نظرة متثابرة على الساعة ، التي عادة ما أجعلها تتمدد أمامي بكسل .. أحيانا ، وبقلق في أحيين أخرى .

مرحبا ..

هكذا خيل إلى أنني سمعت . لم أرفع رأسي من الكتاب ، وقلت لنفسي بدأت الأوهام تعتريك ، لم لا أرتاح قليلا ، وأقرا بعض الصحف .. ؟

مرحبا ..

مرة أخرى .. كأنه صوتها ، رفعت رأسي ، وقلت مذهولا :

- ديمي .. ؟

- هل أزعجتك .. ؟

يا إلهي لم أكن واهما ..

- كيف عرفت مكاني يا ديمي .. ؟

- لم يكن صعبا .. شخص مثلك ، من السهل على من هو مثلي ، أن يعرف مفتاح شخصيته . هل نسيت أن تخصصي الفرعي علم نفس .. أه عفا .. نسيت أن أخبرك ذلك . أنا بالمناسبة ، أدون في دفتر ملاحظاتي كل شيء عن الأشخاص الذين التقى بهم . هل يزعجك أن تعلم أنني فعلت الشيء نفسه معك .. ؟ أرجو أن تعتبر سلوكي الغريب هذا ، نوعا من الفضول الأكاديمي .

كنت أنظر إلى وجهها و أحس أنني أزداد تعلقا به ، وهي تحدثني بتلك الطريقة الواثقة . قلت وأنا أشعر بالقلق النفسي يتسرب شيئا فشيئا إلى نفسي :

- ديمي كيف جئت إلى هنا .. ؟

قالت مازحة :

- وأنا واقفة .. ؟

أشرت لها بالجلوس ، ورميت بابتسامة على شريك في المكان ، الذي يبدو هو الآخر مستغربا من هذا الضيف المفاجئ ، وهو الذي لم يعهد لدي ضيوف أو زوار من أي نوع ، منذ أن جمعنا هذا المكان ، طوال سنوات الدراسة الثلاث الماضية ، ناهيك أن يكون (ضيفا) بهذا المستوى .. وبدا أنه أدرك الحرج الذي أنا فيه ،

فمنحني ابتسامة من نوع مختلف جدا هذه المرة .

نظرت إليها مستفهما ، انتظر أن تخبرني كيف استدلت على مكاني ..

قالت :

- أنت شخص جاد ، لديك اهتمامات خاصة . ربما بتأثير من الثقافة التي

تنتمي إليها ، علاقاتك النسائية محدودة ، ولا يبدو أنك تسعى إلى شئ من

ذلك . ضع هذه المعطيات في جانب . الأماكن الأخرى في المكتبة تكثر فيها

الحركة ، ويكثر فيها تحرك الطالبات . نحن البنات نحب الاستعراض ،

حتى في الأجواء الأكاديمية . النتيجة ، بناء على ما سبق ، ستكون في

مكان مثل هذا . طبيعي أنني لم آت إلى هنا مباشرة ، ولكن بعد مسح سريع

للأماكن الأخرى ، تأكدت أنك إن كنت في المكتبة فلا بد أن تكون في مثل

هذا المكان .. توقعاتي صحيحة ، أليس كذلك .. ما رأيك أأست خبيرة

سايكولوجية جيدة .. ؟

هززت رأسي بالإيجاب ، وأنا اسحب من أعماقي آهة دوت في أذنيها ..

قالت :

- أنت متعب ؟

- نوعا ما ..

- هل أستطيع أن أفعل لك شيئا .. ؟

- لا .. شكرا ، أشعر فقط بشيء من الإجهاد .. .

لماذا جئت يا ديمي .. أنا هارب منك ..

قلت لنفسي :

يا ربي ساعدني ، فأنا اغرق أكثر فأكثر في لجتها . لم يعد لصوتها ،
ووقع كلامها ، نفس الأثر كما كان لقاؤنا لأول مرة . الآن أريدها أن تبقى

، أريدها أن تتكلم .. ساعدني يا إلهي . انقطعت خواطري على صوتها

تخاطبني :

- أريد أن اعتذر ، لأنني لم احضر أوراقك ...

- ما دامت الحالة هكذا ، لم يكن هناك حاجة لكي تأتي ، وتشقي على

نفسك ، فأنا أستطيع أنتظر يوما أو يومين ..

- لا .. فأنا قد وعدتك أن أحضرها لك ، ولم أرغب أن أخل بوعدتي ..

إضافة إلى أنني أود أن استكمل معك الحديث عن الاسلام ، إن لم يكن في

ذلك ازعاج لك ..؟

قلت وأنا أحاول أن أصرفها ، خاصة وأن الشعور بالذنب قد بدأ يشدد

الخناق علي :

- هل هناك شيء محدد .. ؟

- هناك موضوعان ، وأعذرني فيما لو جرحت شعورك ، بعبارة لم أحسن

استخدامها ، فأنا أحدثك بناء على الصورة النمطية للإسلام في ذهني ،
والتي تراكمت ، ليس نتيجة تجربة شخصية ، ولكن من خلال التعرض
لوسائل الإعلام .

سكنت ، فنظرت إليها منتظرا أن ، تخبرني ماذا تريد أن تقول ..

قالت ، وعيناها على عيني :

- هل هناك مكان للتسامح والحب في الإسلام .. ؟

طأطأت رأسي ، وتذكرت أنني لا بد أن أديم النظر إليها وأنا أحدثها ،
مجيبا على سؤالها . هكذا هو العرف في ثقافتها ، وإلا كنت قليل أدب ،
ومحتقر للطرف الآخر ، الذي أتحدث معه . يا إلهي ماذا أصنع ؟ لقد
أصبح النظر إليها يعذبني مرتين . يعذب قلبي ، الذي تاه في فضاءات
وجهها ، الذي أبدعت قدره الخالق في تصويره ، ويعذب نفسي التي تعلم
أنها ترتع في حرام .

يا إلهي ساعدني فإن قدمي تزل : هل أطيع نفسي وشيطاني ، الذي
يتمسح بالعرف في ثقافتها .. وبالذعوة . أم أطيع نداء ضميري ، الذي
يقول لي ، بل يصرخ بي :

"إنك في دروب الغواية سائر " ؟ هل حقا يعينك أن تحدثها عن الإسلام
..؟ أم يعينك أن تتلذذ برؤية مواقع الجمال في وجهها العاجي الصغير .

تطل على وجنتيها المتوردتين ، ثم تتأمل هاتين الشفتين القرمزيتين ، ثم
تبحر في عينيها الزرقاوين . " ظنت أنني حينما طأطأت رأسي ، وأطلت
السكوت ، أنها قد أساءت لي بسؤالها ، فقالت :

- أنا جد آسفة ، لم أتعمد أن أسئ إليك ، ولم أقصد أن انتقد الإسلام ، أو
اتهمه بشيء .. ربما كان يجب أن أقول : كيف ينظر الإسلام للحب
والتسامح ، مقارنة بثقافات أخرى .. ؟ أو ربما كان سؤالي سخيفا تماما ،
ولا معنى له ...

رفعت رأسي فالتقت عينانا . كان الشعور بالحرج ، والاحساس بالذنب ،
قد صبغ وجهها بحمره ، فاستحال إلى شيء آخر مذهلا . عيناها انكسرتا
بتذلل ، فأضافتا إلى ذلك كله مشهدا استولى علي ، فقلت بألم ظاهر :
- ديمي يكفي ..

فاستعبرت .. وقالت بصوت يتهدج :

- سامحني ..

- أنت لم تفعلي أي خطأ .. أنا فقط كنت أفكر بالطريقة التي أجيب بها
على تساؤلاتك .

كان مستحيلا أن تستمر عيناها معلقتان بوجهها . أي تبرير سيكون خداعا
وغشا ، لا علاقة له بدعوة ، أو بتأليف قلب .. قلت لها :

- ديمي هل تسمحين لي أن لا أطيل النظر إلى وجهك .. ؟ هناك مبررات لها علاقة بثقافتني .. وهي قطعاً لا تنطوي على أي مضامين سلبية .. قد تأتي مناسبة أخرى ، وأوضح لك لماذا . وافقت .. وبدأت الحديث .. حدثتها عن التسامح كقيمة من قيم الإسلام الكبرى ، كما دلت على ذلك النصوص من القرآن والسنة . وعرضت لمواقف الرسول صلى الله عليه وسلم ، كتطبيق عملي لتلك النصوص . موقفه صلى الله عليه وسلم من قريش يوم فتح مكة ، حينما قال لهم " : اذهبوا فأنتم الطلقاء" . وأخذتها في سياحة في تاريخ أمتنا العريق .

كنت بين وقت وآخر ، اختلس نظرة لوجهها ، لأرى وقع كلامي عليها . كان التأثير بادياً عليها ، لكن لم أكن أعلم يقيناً ، هل ذلك بسبب ما أقول ، أم تفاعلاً مع صوتي ، الذي بدا مجهداً ، حزيناً ، وأحياناً متوسلاً .. أن تقول : آمنت بدينك واتبعت الرسول صلى الله عليه وسلم .. أم تراها أشفقت علي .. وهي ترى وجهي قد شحب ، حتى خلت أن الدم غاض منه ، وفاض في محياها ، الذي يزداد جمالاً كلما ، ازدادت ألماً ..

سكت .. ثم نظرت إليها ، وقلت :

- هذا ما لدي ..

- عظيم .. رائع ، ماذا عن الحب .. ؟

- آه الحب .. لم لا نؤجل ذلك إلى وقت آخر يا ديمي .. ؟

كنت أريد أن ارتاح ، أن أضع حدا لهذا الأمر ، الذي لا أراه يقودني إلا إلى متاهة .. كلما سرت فيها .. أغرتني في التوغل أكثر . " ما أنا ولهذه المرأة " " أقول لنفسي . إن كانت تريد الإسلام ، فقد حصلت على ما يضع قدمها على الطريق إليه . "

لماذا وقت آخر ..؟ لم لا أقول لها لا وقت لدي ، فكري بما تحدثنا به ، واتصلي بالمركز الإسلامي لمزيد من المعلومات . هل أعترف بعجزتي ، بل خوفي من أن أقول لها ذلك ..؟

لا .. لا أظن إلا أنني سأتوقف عند هذا الحد ، قبل أن أصل لمرحلة أكون فيها عاجزا عن فعل أي شئ تماما ..
قطعت حبل أفكاري و قلت :

- ديمي .. أنا بحاجة إلى أوراقتي في أقرب فرصة ، ليس لدي وقت كاف لتغطية المقرر ، والامتحان كما تعلمين بعد ثلاثة أيام ، ولدي امتحانات أخرى ..

- عفوا ، يبدو أنني أضعت وقتك ، و أزعجتك جدا بتصرفاتي الحمقاء ، لم أدرك كم أنت مشغول ومتعب ...
قالت معذرة .. ثم أضافت :

- ما رأيك لو نذاكر مقرر الدكتور اندرسون .. (مناهج البحث) معا □
أستطيع أن أنفعك كثيرا في الإحصاء ، بحكم دراستي لعلم النفس .. و أنت
ستفيدني في النظريات ، وهو ما لاحظته ، من خلال تعليقاتك المهمة على
محاضرات دكتور فريدمان .

يا إلهي هل أنا بحاجة لعرض مثل هذا ؟..

قلت لها :

- لا .. لا أظن أنني سأفيدك .. فأنا طريقتي في الدراسة متعبة ، لمن لم يعتد
عليها ..

- كما تشاء .. أين ستكون الليلة لأحضر لك أوراقك ؟..

فاجأني سؤالها ، فقلت :

- آه ... الليلة سأذهب لشراء بعض الأغراض الشخصية من مركز (رينبو

كلر مول) □ ردت بسرعة :

- جيدا جدا ، المكان قريب من حيث أسكن ، متى ستكون هناك ؟..

- بين السادسة والسابعة ..

تعمدت أن لا أعطيها وقتا محددًا ، حتى أجعلها تغير رأيها في شأن

مقابلتي ، رغم حاجتي الماسة لأوراقتي .. قالت :

- ما رأيك لو نتقابل الساعة السابعة وعشر دقائق في مقهى) الكيف

دوماسيه) في الطابق الأول ، على يمينك وأنت خارج من المصعد ؟
اتفقنا على المكان والوقت .. وانصرفت ، لتتركني مع همومي وأوجاعي ،
التي صارت تتضاعف بعد كل لقاء أراها ، وأحدثها فيه ..
ألقيت بيدي على جانبي الكرسي ، وأسدت رأسي على كتفي ، وتنفست
نفسا عميقا . لم أنتبه إلا على صوت (مارك) ، شريكى في المكان ، الذي
انتشلني من حالة تفكير عميق ، استرسلت فيه .. قال :

- لا بد أنه كان موضوعا ساخنا ..؟

ألثقت إليه ، وتذكرت أنني نسيت كل شئ ، حين حضرت ديمي ، بما في
ذلك مارك الذي يزعجه أي شئ . قلت مجيبا على سؤاله ، الذي لا يخلو
من خبث :

- لا بد أنك تحملت كثيرا يا مارك ، فمعذرة ..

حاولت العودة إلى دروسي مرة ثانية ، لكن أتى لي ذلك . قلبت الكتاب
مرة ، ومرتين ، وثلاث ، دون فائدة . أصبح رأسي مملوءا بها . بوجهها
.. وبصوتها .. واليوم أضيف إلى ذلك بكاؤها ، وعبرتها .. إذ تخنق
صوتها المتهدج .. فتحيله إلى شيء خرافي ...

الساعة تقترب من الواحدة .. لم يبق على صلاة الظهر كثيرا . فكرت أن
أذهب إلى المركز الإسلامي ، أقرأ شيئا من القرآن ، وأصلي الظهر جماعة ،

مع من يكون موجودا من الإخوة . لا شك أنني سأرتاح مع كلام ربي ، وفي

بيت من بيوته ، ومع اخوة لي ، تذكرني بالله رؤيتهم ..

هكذا قلت لنفسي ، وأنا أجمع كتبي وأوراقي ، وساعتي الممددة على

الطاولة . عندما حملت أوراقتي ، وشرعت بالمسير رمقت مارك بنظرة ،

فبادرني قائلا :

- الإنسان يحتاج إلى الراحة والهدوء ، بعد كل مرة يلتقي بواحدة منهن ..

- ماذا تقصد ..؟

- النساء طبعاً .. لذلك تراني قد تخلصت من هذا الصداع . أنت شاب ..

أنا أفهم ذلك ، لكن حاول أن تتلافى مثل هذه الأشياء .. في فترة

الامتحانات على الأخص ..

- شكراً مارك ..

قلت ، وأنا استدير منصرفاً ، ثم تمتمت في نفسي :

الأمر أكبر مما تتصوره ..

وصلت المسجد .. قرأت ما تيسر ، وصليت . لكن .. لم يكن هناك مجال

للحديث مع أحد . الكل مشغول بالامتحانات . صحيح أنني أكثر راحة

من ذي قبل ، لكنني أشعر بالم في داخلي . خرجت من المسجد ، و

توجهت إلى منزلي .

حين دخلت ، رميت بكل شيء على طاولة الطعام .. عند المدخل ،
ووجدت صعوبة في خلع حذائي . سحبت نفسي و تهالكت على الأريكة في
الصالة .

حينما تغشاني النعاس .. و بدأ جسمي يفتر .. دق الهاتف ، رفعت
السماعة ، فجاءني الصوت ناعما .. يقول :

- هذا أنت

قلت بإحباط :

- ماذا .. ؟

- أوه .. آسفة لا بد أنه رقم خطأ .. !!

للحظة داخلني ألم شديد ، ظننت أنها هي ، وسيطر علي هم واحد ،

كيف عرفت رقمي .. !

سحبت سلك الهاتف ، ورميت بنفسي على فراشي . أريد شيئاً واحداً ..

أريد أن انساها .. لعل الله أن يلهمني شيئاً في منامي ، يخلصني من هذا

البلاء .

نمت نوما عميقا لساعتين أو اكثر . هذه أول مرة أنام فيها .. منذ تعرضت

لي هذه الساحرة ، دون أن تكدر أحلامي الكوابيس . استيقظت وصليت

العصر ، ووقفت طويلا بين يدي خالقي .

غدا الجمعة يوم مبارك ، وفيه ساعة استجابة . سألح على ربي بالدعاء ،
ففي قلبي من تلك المرأة شئ كثير ، رغم أنني أدعي خلاف ذلك . لن
أذهب إلى المكتبة ، أو إلى أي مكان آخر . لقد صار يخيل لي أنها ستطلع
لي في كل مكان .

تناولت كتاب الإحصاء ، وبعد قليل وجدت أن لا فائدة من معالجة هذا
الإحصاء اللعين . كيف يقول عبد العزيز ، عن هذه المادة الكريهة ، أنها
رياضة العقل ؟..! رياضة ؟..! هذا تمحك بالكلام لا معنى له . أليس
عجيبا أن تتمكن ديمي من هذه المادة الثقيلة المعقدة ، وهي الفتاة اللعوب ،
التي أقرب ما تكون للدمية البسيطة ، المعدة لكل أنواع الترفيه واللعب ،
منها إلى (كائن) مهياً للتعامل مع مسائل عقلية جامدة.. ؟

كيف يجتمع وداعة ورقة ديمي .. وتعقيد الإحصاء وثقل ظله ؟.. هل هذه
من نبوءات الشاعر العربي القديم ، الذي قال :

ضدان لما اجتمعا حسنا والضد يظهر حسنة الضد .

إذا كان حسن ديمي أمر مفروغ منه .. أين الحسن في الإحصاء ؟.. آه ...

يبدو أن هذا الإحصاء سيحولني فيلسوفا .

رياضة ..؟ سامحك الله يا عبد العزيز ..

هل قلت رياضة ؟..!؟

وجدتها .. سأتصل به ، يا رب ليته يكون موجودا .

- ألو .. السلام عليكم ، كيف الحال يا رياض ، هل أزعجتك ..؟ جزاك
الله خيرا .. وأنا كذلك آنس بسماع صوتك .. لدى مشكلة بسيطة ... لا ..
مجرد أزمة مع مادة الإحصاء .. وحيث أن سلطتك عليها نافذة ، فإني
أمل أن تنصفني منها ...! شرط .. ما هو شرطك ..؟ الله أكبر... أنت
أروع من أحتكم إليه .. تمكني من عدوي الإحصاء ، وتعشيني كبابا ،
سآتيك خلال دقائق .. هل أحضر معي شيئا .. غير الإحصاء طبعاً .. ثلج
وكولا..؟ حسنا مع السلامة ..

شكرا يا عبد العزيز لولا كلمتك (رياضة) ، لما تذكرت رياض ...
ربي .. هل هذه بوادر النصر على الشيطان ... على الهوى .. على فتنه
ديمي ، التي تكاد تسحب قدمي ..؟ ربي إن موعد لقاءها يقترب ، وأنا
أقاوم .. ما دمت بعيدا عنها ، لكنني حالما أراها تغلبني نفسي .. ، ما
يعذبني يا ربي ، أن كل هذا يحدث باسم دعوتها إلى الإسلام . ربي كانت
نفسي تحدثني أن ألجأ إلى ديمي لتساعدني في الإحصاء ، فلجأت إليك ولم
تخيب رجائي ، ربي الوقت يمضي بسرعة .. فكن معي يا ربي .
قضيت وقتا ممتعا مع رياض . شاب من خيره الاخوة أدبا ، وخالقا ،
وعلما . متزوج وأب لطفل .. شعرت بحرج ، إذ لم أكن أعلم بأن زوجته

قد عادت من بلدها ، بعد أن اضطرت لملازمة والدتها المريضة لفترة من الوقت ، بقى رياض خلالها لوحده .

قلت لرياض معذرا :

- لقد سطوت على وقت غيري .. فلم أكن أعلم أن الأهل قد عادوا .

قال بروح الدعابة ، التي لا تفارقه :

- لقد رأيت أم الحارث ، يعني زوجته ، أن نتعشى معاً يوماً دون يوم ،

حتى توطن نفسها على طبيعة الحياة ، بوجود زوجة ثانية .

قلت له مازحاً :

- اعتقد أنها ضحكت عليك ، ما دامت المسألة مجرد فكرة .

- لا ... فأنا اتبع معها سياسة الخطوة خطوة . لقد كسرت الحاجز النفسي

، تجاه وجود امرأة ثانية معنا ، أي (حقها في الوجود) ، نحن الآن في

مرحلة التطبيع ، أي إمكانية التعايش في مكان واحد ، أي تحت سقف

مظلة (إقليمية)..، أقصد بيت واحد ! ...

ضحكنا ، ثم أضاف :

- يحسن بنا أن نغير الحديث ، فالحلا و الشاي لم يصلا بعد من عند أم

الحارث ، ولا نريد أن نقع ضحايا مقاطعة من أي نوع .

شرح لي رياض الإحصاء كأحسن ما يكون ، وأحسست أن مغاليق المادة فد

انفتحت لي ، وانزاح عن صدري عبء كبير ...
صلينا المغرب ، وأكرمني رياض وأم الحارث بكأس من الزنجبيل . كنت
ساكنا جدا ، وأنا أحمل الحارث لأقبله ، استعدادا للخروج . طعم
الزنجبيل الدافئ اللذيذ ، وابتسامة الحارث العذبة ، وعبارات الود
والمجاملة ، التي أغدقها علي رياض ، هي آخر ما كنت أظن أنني سأحمله
معي من هذه الأمسية الجميلة .

كنت أنظر إلى ساعة الحائط ، التي تشير إلى السادسة والنصف ، حينما
وضعت الحارث بعد أن طبعت قبلة على جبينه ، و كنت .على وشك أن
أهم بالخروج ، عندما قال لي رياض ، بدون مقدمات :

- مصعب .. ألم تفكر في الزواج ..؟

امتقع لوني وارتبكت .. قلت في نفسي : (هل تراه لاحظ علي شيئا .. هل
رآني معها .. ؟) أجبت ، وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا :

- تكلمت مع الوالدة بهذا الشأن ..

قال ضاحكا ، وهو يضغط على يدي :

- إذن الإشاعة التي تقول أنك ستتزوج أمريكية ليست صحيحة ..؟! !!

جف حلقي ، ونظرت إليه بشك ، وقلت بصوت متقطع :

- إشاعة .. أية إشاعة ..؟

ضحك وقال :

- رأيتك أنا و عبد الرحمن ، تتحدث مع العميدة كارولين ديفز ، عميدة
شئون الطلبة الأجانب .. فقال عبد الرحمن ، لو يضحى مصعب ، ويتزوج
هذه العجوز ، لقدم خدمة عظيمة لجمعية الطلبة المسلمين .

شعرت كأنما سكب علي ماء بارد ، ولم أحس بشيء من حولي سوى يد
رياض ، التي ما زالت ممسكة بيدي ، و صدى ضحكته المجلجلة ، التي
أطلقها بعد تعليقه الساخر ، علي حديثي مع عميده الطلاب الأجانب ..
ابتسمت ابتسامة مرة ، وأنا اسحب يدي من يده مودعا كنت وأنا أجر
خطواتي ثقيلة إلى السيارة ، أحس كأني ناهض الساعة من فراش المرض .
لقد أربعتني يا رياض بمزحتك الثقيلة ، كيف لو كان التي رأيتموني
أحدثها تلك (الساحرة) ، هل كنتم ستقولون يقدم خدمة جلي للإسلام
!؟.. هل ستكون الإشاعة ، (التي ما كانت) .. أنني سأتزوجها .. أم شيئاً

آخر ..؟

علي أية حال (جاءت سليمة) ، كما يقولون في الأمثال . هل هذا إنذار لي
من ربي بأنه مازال يستر علي ، رغم إصراري علي فضح نفسي . يا ربي
ساعدني ، فإني أشعر أنني ازداد ضعفا كلما ازداد الوقت اقترابا .
وصلت (الكيف دوماسيه) متأخرا عشر دقائق ، وكننت أمني نفسي أن لا

أجدها ، بعد هذا التأخير . حينما وضعت قدمي على مدخل المحل ،
رأيتها جالسة على إحدى الطاولات . كنت عازما على أن لا أنجر معها
في أي حديث ، أن آخذ أوراقى وأمضي .

لم يبد أنها متضايقة من تأخري ، بل إنها بادرتني ، بعد أن وصلت إليها
، بالتحية والاعتذار ، قائلة :

- أنا آسفة ، لقد تأخرت عليك ، لقد وصلت الآن .. لعلك جنئت ولم

تجدني على الموعد الذي اتفقنا عليه ..؟

لم تكن صادقة ، فالقهوة في كوبها باردة ، ولم يبقى منها إلا أزيد من
النصف بقليل ، وكان واضحا أنها وصلت إلى هنا على الموعد ، أو ربما
قبله بخمس دقائق ، لكنها أرادت أن تطف الجوب هذا التبرير المهذب ..

قلت :

- لا .. أنا الذي تأخرت ، لارتباطي بموعد سابق .. أنا آسف .

ظللت واقفا ، بانتظار أن تعطيني أوراقى لأنصرف ، لكنها لم تفعل ، بل

قالت :

- ألا تجلس ..؟

- أنا مستعجل .. ومشغول كما تعلمين .

نظرت إلى نظرة ملؤها استعطاف ، وقالت :

- لقد طلبت لك كوب قهوة ، وأعدك .. لن يكون هناك أحاديث ، من أي

نوع ..

جلست دون أن أتكلم .. جاءت القهوة ، قالت :

- دعني أخدمك .. ما مقدار السكر ..؟

- مكعبين ..

- حليب ..؟

- نعم ..

خفقتها بالمعلقة ثم قدمتها لي .

- شكرا ..

خيم علينا الصمت ، أكره مثل هذه المواقف .. لكن ماذا أصنع ، لا أستطيع أن أتمادى اكثر ، العلاقة تنحو في اتجاه لم أعد أسيطر عليه ،

مهما بررت لنفسي نبل الغاية . شعرت هي بالإحراج .. قالت :

- أطلب لك شيئاً تأكله .. أنا سأطلب لنفسني (كروسون) ..؟

- لا .. شكرا ..

قالت ، محاولة دفعي للكلام :

- كيف الإحصاء ..؟

- ممتاز ..

- حقا .. هذه أخبار سارة ، كنت أنوي أن أعرض المساعدة .

- أحد الأصدقاء ساعدني ..

ردت بلهجة لا تخلو من الغيرة :

- لا بد أنها صديقة خاصة ..

أجبت بحزم :

- إنه صديق ..

خجلت .. و قالت :

- من بلدك .. ؟

- نوعا ما .. إذا اعتبرنا الوطن العربي الكبير بلد واحد ..

علقت .. وهي تفرج عن ابتسامة مترددة :

- هذا الكلام كأنه سياسة ، وأنا لا افهم في السياسة كثيرا ..

ابتسمت ابتسامة باهتة ، دون أن أعقب ، ونظرت إلى ساعتني ، ففهمت

ما اقصد .. فقالت :

- تريد أن تذهب ، كنت قد نويت أن أدعوك إلى مطعم (هاي رووف) ..

إنهم يقدمون عرضا خاصا ، ليلة كل جمعة

- .. يؤسفني أن لا أكون قادرا على تلبية دعوتك ، فقد تعشيت عند أحد

الأصدقاء قبل أن آتيك .. كما أنني مشغول كما أخبرتك من قبل ..

ثم أضفت ، محاولا تعزيزيتها لرفضي دعوتها ، وتعاملي معها بهذه الطريقة

الرسمية جدا :

- تستطيعين أن تذهبي الليلة وحدك .. وآمل أن تتاح لنا الفرصة معا ..

مستقبلا ..

رأيت الانكسار والخيبة على وجهها ، وهي ترد علي بأسى :

- العرض مفتوح لشخصين فأكثر فقط .. وعلى أي حال ، لن أموت جوعا

في هذه المدينة المليئة بالمطاعم الرديئة ، التي تفتح أبوابها باستمرار ،

للخائبين أمثالي ...

نهضت .. و توجهت لأدفع ثمن القهوة و الكروسون ، الذي لم تأكله ..

رمقتني بنظرة عتاب ، و قالت :

- أنت ضيفي .. رغم اني مضيغة ثقيلة الظل ..

طأطأت رأسي ولم أرد . دفعت ثمن القهوة ، ثم اتجهنا معا إلى مواقف

السيارات ، دون أن يحدث أحدنا الآخر . شعرت بتأنيب ضمير على هذا

الجفاء ، الذي عاملتها به ، وقبل أن نفترق ، كل إلى سيارته ، التفت

إليها ، و قلت :

- ديمي سامحيني ..

نظرت إلي بعينين تفيضان بالألم .. وقالت :

- لا شيء ألبته ..

حينما ركبت سيارتي انتبهت إلى الكيس الذي حملني إياه رياض ، والمملوء

بما بقي من عشاءنا . أسرعت بالسيارة في اتجاهها ، وحينما حاذيتها

ناديتها :

- ديمي ..

التفتت ، وكأن صوتي هاتف نزل عليها من السماء . كانت تبكي ،

فانقبض قلبي ، لكنني تحاملت ، وقلت :

- معي طعام لذيذ جدا ، يحتاج إلى تسخين فقط ، اعتبريه اعتذارا غير

كامل ، على تصرف فج ..

إنداحت على صفحة وجهها دوائر من السرور ، فأخذته ، وهي تقول :

- اقبله .. ليس على إنه اعتذار .. إنه شيء أكثر من ذلك .. طابت ليلتك

، وأمل أن يحالفك التوفيق في امتحاناتك .. إلى اللقاء يوم الاثنين ، في

امتحان الدكتور اندرسون .

في أعماقي لم أكن مرتاحا للطريقة التي تم بها اللقاء ، نفسي تنازعني إليها

، فكرت أن اعتذر لها يوم الاثنين . لكن عن ماذا .. يقول لي عقلي هذه

المرة .. ؟ .

وساوس النفس والشيطان تقول لي : قد تأثم بتنفيذها من الإسلام .

في قرارة نفسي أعلم أنه الهوى والرغبة فيها لذاتها ، وإن كان مع حظ النفس شيئاً للإسلام ، فلا بأس . لو كان رجلا ، أو حتى امرأة قليلة الحظ من الجمال ، اكنت تتعب كل هذا التعب ..

اكنت تلوم نفسك .. كل هذا اللوم .. ؟

حين وصلت البيت كان الصراع داخل نفسي قد بلغ مني مبلغاً ، بكيت.. بكيت كثيراً ، بكيت حينما تذكرت ، أنني الليلة حدثتني نفسي أن أضع يدي في يدها ، و أقول لها وداعا . داهمني شيطاني بفكرة أن ملامسة يدي لكفها ستطفئ هذه النيران المشتعلة في جوفي ، وأن الرغبة المتقدة في داخلي ستخبو ، بمجرد أن أحس بنبضها ينتفض في كفي ..

نحن هكذا نتوتر أمام كل تجربة جديدة ، أو مغامرة مجهولة .. كان هذا حديث نفسي ..

"كف يا شيطاني " . هذه آخر صيحة دوت في داخلي ، حينما تراجعت عن تلك الفكرة السيئة .. في تلك اللحظة أيضاً .. تذكرت (خالد) ، عندما قرأ سورة النازعات ، يوم صلى بنا العشاء قبل أسبوعين □ تذكرت خالد ، عندما عجز عن إكمال السورة لأكثر من عشر دقائق .. بعد أن غلبه البكاء وهو يقرأ :

"وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى "

ظل خالد يرددّها ويغلبه البكاء □ لم أبك في حياتي مثل تلك الليلة □ كان صوت خالد الندي يكاد يتشقق عندما يصل إلى قوله تعالى " : مقام ربه . "

يا لهول الموقف .. ثم حينما يصل إلى :

" ونهى النفس عن الهوى .. " يخيل إلى أن كل ما فيه يبكي . كنت أبصر جسده كله يرتعش ، لحظة ينطق لسانه بكلمة الهوى . يشرق بالدمع ثم ينتحب نحيبا يصدع الجبال الصم . وعندما جذب من أعماقه الآية التي

تليها :

" يسألونك عن الساعة " شهق شهقة حسبت روحه تخرج معها .

خالد رجل رباني ، بكاء ، يستشعر الموقف بين يدي المولى سبحانه . وإذا بكى ، وكثيرا ما يفعل ، يذيب جلاميد الصخر . آه يا خالد ليت لي قلبك .. ليت لي رهافة إحساسك . ليته لي .. حتى أخاف مقام ربي ، و أنهى نفسي عن الهوى . ليت لي .. حتى أكون كما قلت :

من استشعر الموقف هان كل شئ من أمر الدنيا في عينيه .. حتى لو كانت ديمي بكل فتنتها وإغوائها .

مر علي ساعتان وأنا على هذه الحالة ، بكيت حتى خلت أني اغتسلت كلي بدموعي . أحسست أن الدمع الحار ، الذي سال غزيرا من مآقي ، قد غسل كل العناء في قلبي ، صليت خلالها العشاء ، كما لم أصلي مثل

تلك الصلاة في حياتي . شعرت كم تكون الصلاة لذيدة حينما يكون القلب
مشرعا لنداء السماء ، وكم تكون الصلاة ذات معنى حينما لا تستشعر
حولك إلا الموقف .. والصحف تتطاير .

يا الله أي عالم علوي كنت تسبح فيه يا خالد ، وأنا أطارد سرابا .. وهما
.. شيطاننا . أبلغ ما تبلغه ، وأنا ألهث خلف المحسوس ، الفاني الذي
سيأكله الدود ، قبل أن يخالطه التراب ، وأنت الذي تحلق في اللا
محسوس ، في السرمدي .. في تلك الآفاق النورانية .

ما الجسد يا خالد إلا امتداد للدوني ، للحضيض ، للأرضي ، لذلك حري
به أن يجعل من يتطلع إليه ، ويلبي رغباته أن يلتصق بالأرض ، لماذا ..
؟ لأنه انسلخ من العلوي ، واتبع هواه .. اتبع هواه يا خالد .. فكان ماذا
..؟ كان من الغاوين .. ولم يكن من الدعاة الهداة .. رحماك يا رب .

مرت أيام نهاية الأسبوع سريعة وعادية □ ذاكرت جيدا ، حيث لم أغادر
البيت إلا قليلا ... أوقات الصلوات فقط . مطعم أبو أيمن السوري قدم لي
حلا مثاليا ، من خلال وجبة المقبلات والمشويات اللذيذة ، التي تكفل
بإيصالها ، دون مبالغ إضافية ، إلى المنزل . وهي معاملة خاصة للملتزمين
، كما يقول أبو أيمن ، الذي يشعر بعظيم الامتنان لهم ، لحفظهم أبناءه
وأبناء المسلمين ، من خلال المدرسة التي تشرف عليها جمعية الطلبة

المسلمين ، والمعسكرات التربوية التي تقيمها .

غدا الاثنين امتحان الدكتور اندرسون لمناهج البحث ، أشعر أنني مستعد له جيدا ، فقط احتاج أن أنام مبكرا ، لاستيقظ نشيطا .. سأصلي وتري أول الليل وأنام .

الاثنين يوم مبارك ، قررت أن أصومه ، فالجو بارد ، وعملا بالسنة ، وتحسبا لمفاجآت لا أعلمها . والصوم كما قال صلى الله عليه وسلم (وجاء) ، وأنا لا احتاج الوجاء و الحماية ، كما أحتاجها في هذه الأيام ، وفي امتحان الدكتور اندرسون بالذات .

بقي على الامتحان نصف ساعة ، حينما عزمت على التوجه للجامعة . لم أتوقع أن يكون الثلج بهذه الكثافة ، لحظة ألقيت نظرة من النافذة ، والثلج يتساقط ، و ارتأيت أن أصلى الفجر في شقتي . بدأت أزيح الثلج عن طريق السيارة ، وحينما انتهيت ، و ظننت أن الطريق سالكه ، اكتشفت أن إحدى العجلات معطوبة . ليس اتساخ الأيدي ، و الملابس ، وبرودة الجو ، هو المزعج فقط ، في مثل هذه المواقف .. لكن أن يكون بانتظارك ، بعد كل هذا امتحان . ما أن بدلت الإطار المعطوب بآخر صالح ، وحاولت تشغيل السيارة ، حتى باءت محاولاتي بالفشل ، ثم أكتشف في الأخير ، و يا للسخرية .. أن السيارة فارغة من الوقود .

وصلت قاعة الامتحان متأخرا عشرين دقيقة ، استقبلني الدكتور أندرسون
بابتسامة عريضة ، وهو يشير لي بأن آخذ مقعدا . اندفعت إلى داخل
القاعة ابحت لي عن مكان ، ولم انتبه إلى أحد الطلبة ، الذي قد مد
رجليه أمامه ، فعثرت ووقعت على وجهي وتناثرت أشياءي . حينما
استقرت في مكاني أخيرا ، رأيت الدكتور اندرسون ما زال مبتسما . قلت
معتذرا :

- هذا اليوم ليس لي يا دكتور اندرسون .

رد مازحا :

- لابد أنك كنت تجرف الثلج ، أو أن إطار سيارتك قد تنسم هواؤه ...
وهذه هي الأعذار التي يسوقها الطلاب عادة ، حينما يتأخرون .

قلت :

- إنك لن تصدقني يا دكتور اندرسون ..

- ماذا .. ؟

- بالإضافة إلى ما ذكرت ، فقد اكتشفت أن سيارتي قد نفذ وقودها ..

أطلق ضحكة مدوية ، وقال :

- لن يغلبك أحد يا مصعب .. ويأتي بمثل ما جئت به

شرعت بالإجابة على الامتحان ، لكن القلم لا يكتب . يخط حرفا أو اثنين

، ثم يمتنع . عالجه بشتى الطرق دون فائدة . استنتجت أنني حينما
تعثرت برجلي الطالب ، و وقعت ، والقلم في يدي ، ضربت ريشته الأرض
فانثلمت .

لاحظ الدكتور اندرسون حيرتي فجاء مستفهماً . فأخبرته بمشكلة القلم ،
وسألته أن يعيرني قلمه ، فذكر لي أنه اعارة لطالب آخر .. نسي قلمه .
قلت للدكتور اندرسون :

- ألم أقل لك أن هذا اليوم ليس لي ..

ابتسم ، وقال :

- لا عليك سنحل المشكلة ..

سأل الطلاب إن كان هناك أحد معه قلم آخر ، يمكن أن يعيره لشخص ،
يبدو أنه نثر الملح من فوق طاولة الطعام . وهو اعتقاد شعبي بين الأمريكيين
، تقوم فكرته على أن من يكب الملح ، يلازمه النحس طيلة يومه .

لم يرد أحد من الطلبة ، رغم تكرار السؤال ، إذ قليل من الطلاب من
يحمل معه أكثر من قلم . كان الدكتور اندرسون على وشك أن يطلب مني
أن أغادر القاعة ، لأبحث لي عن قلم ، حين ارتفعت يد أحد الطلاب في
أول القاعة . قالت الطالبة :

- عندي حل بدائي ، لكنه ينفع في مثل الظروف ..

ثم قامت بكسر قلمها المرسم إلى نصفين ، وبرت أحدهما ، و أعطته

للدكتور اندرسون ، الذي أعطاني إياه بدوره ، وقال مازحا :

- لا أعتقد أن أحدا تشاركه الآنسة ديمي بمرسمها ، يمكن أن يقول هذا

اليوم ليس لي ..! إنها ديمي إذن ، يدفعها القدر من جديد في طريقي ،

ماذا يخبئ لي هذا اليوم من مفاجآت ..؟ تطاولت ، وبهزة من رأسي ،

وابتسامة خفيفة ، شكرت ديمي .

كان متوقعا أن ينتهي الوقت ، قبل أن انتهى من الإجابة على جميع

الأسئلة . لم يبق إلا أنا والدكتور اندرسون ، الذي قال :

- أنا مضطر أن أغادر ، عندما تنتهي أعط ورقة الإجابة لسكرتيه القسم ..

لاحظ أنني محرج ، فقال :

- لا داعي للحرج .. فأنا أثق بك .

هذا التعامل ينعدم في بلادنا مع الأسف ، حيث الأمانة صارت نادرة ،

وقيم الثقة ، أحيانا غير موجودة . دائما أسأل نفسي ما الذي يبقى هذا

الوحش الأمريكي الجبار ، رغم مظاهر الظلم والفساد الكثيرة المنتشرة فيه

...؟ إنه قطعا ، ليس القوة المادية المجردة وحدها . فالله سبحانه قد قص

علينا أحوال أقوام اشد قوة ، أهلكهم ، (فهل ترى لهم من باقية) ..؟ . إن

مثل هذه القيم ، وأخرى يطول الحديث عنها ، هي التي مازالت تحافظ

على الإمبراطورية الأمريكية من الانهيار .. حتى يأتي أمر الله .
لماذا عدمت مثل هذه السلوكيات الجميلة في مجتمعات المسلمين ..؟ ألا
يكفيها التخلف المادي الذي يطبق عليها ..؟ لماذا لم يبق مسموعا سوى
صوت النفاق .. وصار الإسلام ، الذي هو مصدر هذه الفضائل جميعها ،
مطية يركبها كل أفاك ، ليحقق من خلالها أهدافه ..؟ كل همه أن يملأ
جيبه ، ويشبع بطنه و .. و أشياء أخرى . صار الإسلام .. شعارا فقط .
يردده السياسي ، ويلوكة شيوخ السوء ، وتشدو به جوقة النفاق .
ماجت هذه الخواطر في بالي للحظة ، وأنا أرقب الدكتور أندرسون يغادر
القاعة ويتركني لوحدني .

أكملت الإجابة على الامتحان ، ولملمت أوراقني ، وتوجهت خارجا ،

لأجدها قبالي ، عند الباب :

- ديمي .. ماذا تفعلين هنا ..؟

- كنت انتظرك لقد ..

قاطعتها :

- تريدين القلم ..؟

- هل أنت جاد ... لا تكن سخيفا لقد قلقت عليك ، ماذا صنعت في

الامتحان ..؟

- أظن الأمور على ما يرام ،

- ماذا ستفعل الآن ..؟

- سأعطي أوراق الامتحان للسكرتيرة ..

- و بعد ذلك ..؟

- سأذهب إلى البيت لاستريح ، ثم أذاكر لامتحان آخر لدى بعد غد ..

- هل لديك بعض الدقائق لتحدث عن أشياء سبق وسألتك عنها ..؟

- لا .. لا أظن أنني أستطيع الآن ..

تبادلنا النظرات ، ورأيت في عينيها رجاء ..

- آمل أن تتفهمي وضعي ..؟

لم ترد علي .. واستمرت تنظر إلى ، وفي يدها إصبع شوكولاته ، فمدته لي

، فقلت :

- شكرا لا أستطيع أن أكله ..

- لانه مني ..؟

- لا .. ولكنني صائم اليوم ... عفوا لا بد أن أذهب الآن ..

وانصرفت .. و حينما سرت بضع خطوات نادتني قائلة :

- مصعب .. هل أستطيع أن أسألك سؤالاً ..؟

التفت ، وكانت واقفة في مكانها .. تقلب إصبع الشوكولاته في يدها ،

بشيء من القلق ..

قلت :

- ماذا ..؟

- هل حقا يهتمك أمري .. أقصد هل يهتمك أن أعرف الحقيقة عن الإسلام

.. أو جزء من الحقيقة ..؟

فاجأني السؤال ، وشعرت بقلبي ينقبض من الألم . هل أنا أسأت التقدير

في تعاملي معها ، وتوهمت أشياء لم تكن موجودة إلا في خيالي ..؟

لم يكن لدي وقت لآناقشها ، تقدمت نحوها ، وقلت :

- اليوم الاثنين ، وبعد غد الأربعاء لدي امتحان في المساء .. يوم الخميس

سأكون حرا من أي ارتباط .

- حسنا .. نلتقي الخميس ، في نفس الوقت ، ونفس المكان ...

- أي مكان ، وأي وقت تقصدين ..؟

- الساعة السابعة مساء .. في الكيف دوماسيه ..

- لا بأس ..

ثم سحبت إصبع الشوكولاته من يدها ، وأضفت :

- سأخذ هذا وأكله .. حينما أفطر بعد مغيب الشمس ..

ما كدت أنهى كلامي ، حتى اكتسحت وجهها موجه من السعادة ،

وانشق ثغرها عن ابتسامة رضا ، تدفقت من بين ثناياها ، مثل جدول ماء

صغير ينساب من بين حصيات مرمر ...

و لم تعلق بشيء ..

- مع السلامة ..

قلت لها .. ثم استدرت منصرفا ..

بعد أن صليت فجر يوم الخميس ، نمت إلى حدود الساعة العاشرة . منذ

اشهر لم أنم إلى هذا الوقت ، بسبب ضغط الدراسة . قررت ايضا أن اطبخ

لي فطورا ، وهو ما لم افعله طول الفترة الماضية ، إذ اكتفى بالمربيات ، و

الأجبان ، والبيض المسلوق .

سأصنع فطورا له مذاق خاص ، بيض شكشوكة .. هذا أول شيء تعلمته

شقيقتي حصة ، وعلمتني إياه ، حينما عازمت على السفر للدراسة .

حصة تصغرني بعامين ، وقبل سنتين وبينما كنت في زيارة الأهل ،

أشفقت على والدتي ، لما علمت أن كل أكلي تقريبا من المطاعم ، لأنني لا

أجد الوقت الكافي للطبخ . حصة اقترحت حلا للمشكلة ، أن أتزوج .

ومضت خطوة إلى الأمام في هذا المشروع ، حينما تكفلت باختيار الفتاة

المناسبة .

انشغلت بترتيب بيتي عامة النهار . لقد انقلب البيت رأسا على عقب ،

بسبب حالة الطوارئ التي فرضتها الامتحانات . لقد بدأ الموعد مع ديمي يقترب ، و صرت أشعر بالتوتر . انطلقت بسيارتي ، و وصلت إلى مركز ((رينبو كلر مول)) ، قبل الساعة بقليل ، لأقابل ديمي صدفة عند مدخله □ ركبنا المصعد إلى الدور الاول ، وحينما دخلنا (الكيف دو ماسيه) ، خيل

إلى أنني أدخله لأول مرة . في المرة الماضية لم ألاحظ فخامة الأثاث ، وتناسق الألوان . هناك أيضا موسيقى .. تدندن بصوت خافت . شعرت بانقباض ، المكان حالم جدا ، وهو أليق بتناجي العشاق ، منه بالدعوة إلى

الله ، قلت بتوتر :

- المكان غير مناسب ..

- لماذا .. ؟

- موسيقى وأضواء خافته ، نحن لم نأت لتحدث عن روميو وجولييت ..

شعرت بالحرج وقالت :

- ماذا تقترح ..؟

- نغير المكان ..

- هل كنت ترى أن نذهب إلى مكدونالدز ، وغيره من الأماكن المشابهة ،

حيث يتجمع ذلك النوع من الشباب والبنات الذي تعرفه ..؟

لم أرد .. فأضافت :

- ما رأيك أن نذهب إلى منزلي ..؟

فقلت بسرعة :

- لا .. لا ..

قالت :

- منزلك ..

- غير مناسب ..

لقد أخرجتني جدا ولم تترك لي الخيار ، وبقيت لحظات مترددا ، ثم

قلت :

- لا أريد الموسيقى ..

توجهت إلى مدير المحل ، وتحدثت معه قليلا ، ثم عادت وعلى وجهها

ابتسامة ، وقالت :

- لن يكون هناك موسيقى ..

قادنا أحد العاملين في المقهى إلى ركن هادي ، وبدون موسيقى ..

- كيف .. ؟

..سألتها ..

- انهم يتحكمون بالتوزيع الصوتي .

أخذنا أماكننا ، وتبادلنا الحديث بسرعة عن الامتحان ، حتى جاءت

القهوة ، رشفت شيئاً من قهوتي ، وسألتها :

- هل هناك شيء محدد تودين السؤال عنه ..؟

أصلحت من جلستها وقالت :

- لعلك تذكر أنني سألتك من قبل عن شيئين ، أحدهما كان التسامح ،

والآخر الحب .. وهو الذي لم تتح لنا الفرصة لنتحدث عنه .. أنا أعني

كيف ينظر الإسلام إلى الحب ..؟

لم أدر بما أجيبها .. لكنني أذكر أنني بدأت هكذا :

- لم يعل الإسلام شيئاً مثلما أعلى من شأن الحب ، حتى أنه ربطه بالرب

سبحانه وتعالى وجعل الله عز وجل ، هو الغاية التي ينتهي إليها الحب ،

أيا كان نوعه . الإسلام حينما فعل ذلك ، أراد أن يجرد الحب من كل

رباط محسوس ، ومن كل رغبة ، أو شهوة بشرية آنية ، تتلاشى لحظة

تحققها ، ليجعله متصلاً بالله مباشرة . فالحب فيه سبحانه ، أسمى

درجات الحب ، ولا يتحقق إيمان بشر ، إذا لم يحب الله والرسول صلى

الله وعليه وسلم ، ولا يتحقق إيمانه . ز كاملاً ، إذا لم يحب لأخيه المسلم

، ما يحب لنفسه .

لقد صار كل حب في الإسلام ، غايته الحب في الله . وحينما يؤكد الإسلام

على هذا الجانب ، فإنه يهدف إلى تجاوز المادي إلى الروحاني .. و

الأرضي إلى العلوي السماوي .

كيف ... قد تسأليني ..؟

إن المادي والأرضي ينتهيان إلى الفناء ، أما الروحاني والعلوي فمصيرهما الخلود . أليس الزواج بين رجل و امرأة هو نتيجة حب ، بشكل من الأشكال . تأملي كيف ينظر الإسلام لأنواع الحب التي تؤدي إلى نشوء علاقة بين رجل و امرأة ، تقود إلى الزواج . المال أولا ، ثم الجمال ، (أي ميزات الجسد) ، ثم المكانة الاجتماعية . وأخيرا الدين .. بما يعني من تمثيل لكافة القيم العليا ، التي جاء بها الإسلام ، وفي مقدمها ، حب الله سبحانه ، من خلال تنزيهه بالتوحيد ، وأن لا يشرك معه أحدا . الإسلام يثمن عاليا الحب الأخير ، لأن غايته الله سبحانه ، و ينعي على الفرد تطلعه لأنواع الأخرى . الأنواع الأخرى .. مادية .. زائلة .. مصيرها إلى الفناء : المال يفنى ، والجسد يبلى ، والمكانة الاجتماعية تزول . لأن الحب طبيعته هكذا ، فإنه يقاوم عوامل الفناء ، بل هو يتجدد باستمرار .. إنه يستمد حياته من الذات العليا ، التي هي مصدر الخلود . إن من طبيعة المادي أنك حينما تمتلكه تزهد فيه ، لأنه يفتقد لخاصية التجدد والتسامي ، التي يملكها الروحاني . أضرب لك مثلا : ألسنا نشتهي الطعام اللذيذ ، وحينما نملكه .. نمله ونزهد فيه . السنا نعشق

الجمال ، فإذا ما أدركناه تطلعنا لآخر غيره .

انظري .. حسن التعامل ، الأدب ، الأخلاق ، الرحمة ، التعاون . ألسنا إذا ما وجدناها في إنسان تعلقنا به ، و كلما أزداد تمثلا لهذه الخصال ، زاد تمسكنا به . الإسلام تعامل مع هذين النوعين .. المادي و الروحاني ، على أساس من قدرة كل نوع على منح السعادة ، لأكبر عدد ممكن من الناس ولأطول مدة ممكنة .

الجمال مثلا ، يمكن أن يمنح السعادة والمتعة لشخص واحد فقط ، هو ذلك الذي يباشر الجمال .. بطبيعته المحسوسة ، بشكل أولى ، ولدة محدودة ، هي الفترة الزمنية التي يكون فيها محتويا على عنصر الحياة والحيوية ، قبل أن تأتي على نضارته عوامل الزمن . بل إن الطبيعة المادية المحسوسة له ، تجعل الاستمتاع به ، مرهون بلحظة المباشرة ، أو اللذة الآنية . على الجانب الآخر ، خذي الأخلاق كمعادل لجمال الروح ، بما تحويه من رحمة ، وعطف ، وتعاون ، وأدب ، وغيرها من الخصال الحميدة . كم من الناس تمنحهم السعادة ، دون أن يكون لعامل الزمن أثر على امتدادها في عمق الزمان ، أو يمنع من شمولها و تمددها عائق المكان . الحب من هذا النوع يتجاوز الجسد .. ليعانق الروح في افقها السرمدى . جمال الروح يمكن أن يوجد في الرجل ، وفي المرأة ، وفي الأبيض و الأسود

، والشيوخ والطفل . أما الجمال المادي .. في الجسد ، المحسوس .. فلا .
إنه امتياز خاص ، لفئة محدودة من الناس اختارها الله ، لحكمة يعلمها
هو سبحانه . الحب على أساس من الروح يا ديمي ، يفتح المجال واسعا
للترقى في مدارج الكمال ، فارتباط الروح بالذات العليا ، يمنحها القدرة
على الإبداع والتسامي .. والزيادة . فنحن نستطيع أن نكون أكثر رحمة ،
وأكثر عطفًا ، وأكثر تسامحًا ، مرة بعد مرة ، مدفوعين بالحب الأسمى ..
حبه سبحانه وتعالى . لكننا لا نستطيع أن نكون أجمل ، و أجسامنا لن
تكون أكثر نضارة ، و أنفاسنا لن تكون أطيب رائحة .. في كل مرة ، لأن
الجسد مرتبط بالأرضي ، الفاني .

جدير بحب كهذا يا ديمي ... أن يؤول للزوال .

أظن أنني قلت هذا الكلام ، وأشياء أخرى . المؤكد أن الذي كان يتكلم ليس
لساني فقط ، بل جوارحي كلها □ لا أدري كم كوبا من القهوة شربت وأنا
أتكلم . كنت أنظر في وجه ديمي ، بين وقت وآخر ، فأحس إنها معي
بكل جوارحها . بل كانت نظراتها .. يخيل إلي ، أنها تحاول أن تنفذ
إلى أعماقي . كنت شابكا كفي لبعضهما ، ويداي ممددتان على الطاولة
أمامي حانيا رأسي ، حينما سمعتها ، تقول بصوت واهي النبرات :
- هذا أجمل شيء سمعته في حياتي ..

استغرقتني لحظات تفكير ، لم انتبه خلالها إلا وكفاها تطبقان بهدوء على

كفي .. شعرت بخدر يسري في أوصالي ، ودفء يجتاحني ، حتى

أحسست ذلك في حرارة أنفاسي . لوهلة استسلمت دون مقاومة لهذا الوضع

. في قرارة نفسي ، كنت أشعر بعطش شديد .. لشيء لا أدري ما هو . ربما

السكينة والهدوء .. والكف الذي استريح عليه .

هل المرأة تملك كل هذه القدرة على التوغل في الأعماق . أم هذا شيء خاص

بها وحدها ..؟ كنت في حالة استكانة تامة حين سمعتها تناديني :

- مصعب هل أنت بخير.. ؟

رفعت رأسي ، وتأملت وجهها الذي يضح أنوثة وفتنة ، وأبصرت يدي

بين يديها . يا إلهي

ماذا صنعت .. ؟ وتذكرت خالد وبكاؤه .. ودوت كلماته بعنف في :

"من استشعر الموقف هان في عينيه كل شيء ."

أحسست كأنما تيارا كهربائيا يسرى في جسدي ، ويهزني بعنف ،

فسحبت يدي بسرعة فضربت كوب القهوة ، فاندلقت القهوة الحارة علي

، وصرخت من شدة الألم ، فانفعلت هي وصرخت كذلك ، وهي تصيح :

- أنا آسفة .. أنا آسفة ..

أسرع عامل المقهى باتجاهنا ، إثر سماع الأصوات ، وقام بمساعدتي في

تنظيف ملابسي ، واحضر لي مرهما لعمل إسعافات أولية . كان واضحا
أنني احتاج إلى علاج عاجل ، لذلك نصحنا بالذهاب إلى المستشفى بسرعة .
أصرت أن تأخذني بسيارتها إلى المستشفى . في الطريق .. ظلت تبكي ،
وتعتذر أنها لم تقصد .

أجريت الإسعافات اللازمة ، وعدنا إلى سيارتي ، بناء على طلبي ، رغم
أنها كانت لا ترى أن أقود السيارة بنفسني . تأكدت الآن أنني مصاب منها
، ليس في يدي ، ولكن في قلبي . لم أتحرك حينما انحنت لترخي رباط
يدي ، فلامس شعرها وجهي . لقد فعلت تلك اللمسة فعل السم في جسدي
، أنا الآن ضعيف المقاومة .. أنا الآن في خطر .

افترقنا بعد أن وعدتها أن أتصل بها ، لأطمئنها على حالتي الصحية .

قالت ، وهي تمسك بيدي ، لتساعدني على ركوب السيارة :

- ساكون قلقة إن لم تفعل .. لا بد أن تتصل بي ..

لم أبدأ مقاومة تذكر .. بل لم أبدأ أية مقاومة ، وهي تضع يدها على جبيني

، و تؤكد علي ، بنظرات ملؤها الرجاء ، أن لا أنسى الاتصال بها ...

توجهت إلى بيتي ، وصرت أتأمل النهاية التي انتهت إليها علاقتي مع

هذه الفتاة . تذكرتها وهي تبكي ، ونحن في طريقنا إلى المستشفى . كانت

تقول : " لن أسامح نفسي إن أصابك أذى " .. و كررت أكثر من مرة عبارة

: " أنا أحبك ، ولم اقصد أن أؤذيك " .. كانت هذه الكلمات تنغرس في

وجداني عميقا .

بدأت الأفكار السيئة تراودني ، أثار لمسة كفيها ما زال يسرى نبضها في

سائر جسدي

.نعومة راحتها ، ودفئهما .. لم تفارقا خيالي إلى الآن.. شعرها يتراءى

لي كسبائك من ذهب . حينما وصلت إلى باب شقتي كرهت الدخول ،

ولمت نفسي أن رفضت عرضها ، بأن تأتي معي لتطمئن علي . دخلت

المنزل وإذا بالهاتف يرن ، لا أتوقع أحدا معينا ، رفعت السماعة ، جاءني

صوته من الطرف الثاني هادئا ، رخيما ، حزينا :

- السلام عليكم .. كيف حالك ..؟

- من .. خالد ، أهلا بهذا الصوت ..

- رأيت فيك رؤيا البارحة .. فقلقت عليك ..

شعرت بانقباض وقلت :

- خيرا إن شاء الله ..؟

- خير ..

قص علي الرؤيا .. ثم سألته :

- وماذا عبرتها.. ؟

- تنجو من فتنة ..

و أضاف :

- هل تتعرض لمشكلة في الوقت الراهن ..؟

أحسست بالخوف وقلت بسرعة :

- من أي نوع .. ؟ لا .. لا .. أبدا والحمد لله ..

ودعني و دعا لي . إنه رجل ملهم .. ينظر بنور الله . ظلت عبارته :

تنجو من فتنة .. تتردد في ذهني مرة بعد أخرى . هذه بشارة .. قلت في

نفسي : اللهم نجني .

مر علي يومان لم أغادر فيها البيت ، خشية أن يسألني الاخوة عن سبب

الإصابة في يدي . تخلفت عن صلاة الجماعة .. واشعر بالذنب لذلك . لم

أتصل بديمي كما وعدتها ، رغم أنني أفكر بها معظم الوقت ... تناقض لم

استطع أن أحله .

كيف انعتق من هذه الدوامة ..؟ سألت نفسي . بدأت أفكر بالاتصال بها ،

حتى لا أعطي صورة سيئة عن الإسلام .. هكذا زعمت لنفسي . ماذا لو

قالت سأتيك ..؟ بدأت تلح علي الفكرة .. أن أكلمها .. وكدت استسلم لها

، ثم وجدت أنني إن بقيت في شقتي فإنني حتما سأتصل بها ، ولن أمانع

أن تأتي عندي . ثم ..؟ آه .. هذا هو السؤال ..

وصل الصراع في نفسي إلى أقصاه ، فقررت أن أخرج . قلت ، أذهب إلى
المركز الإسلامي ، فقطعا سأجد بعض الاخوة ، وهناك ، سأتسلى بهم ،
وأظل بعيدا ، حتى لا أقع ضحية لتداعيات النفس الآثمة .. الأمانة بالسوء

..

خرجت ، وحينما كنت أهم بركوب سيارتي ، سمعت صوتا يناديني ،
فالتفت إلى مصدر الصوت كالملدوغ ...

- يا الهي إنها هي .. كيف عرفت مكاني ..؟

شعرت بقلبي يهبط إلى قاع أحشائي ، وهي تنزل من سيارتها متجهة
نحوي ، تتلفع بجاكيت خفيف تتقي به برد ديسمبر القارس .. قالت :

- انت تسكن هنا ..؟

تلعثمت ولم أشأ أن أكذب ، وقلت :

- نعم .. كيف وصلت إلى هنا ..؟

- جئت لزيارة صديقة لي تقيم في نفس البناية .. ويبدو أن أمرا طارئا
حدث ، فاضطرها للخروج ، فتركت لي ملاحظة على باب منزلها تخبرني
فيها إنها ستعود بعد ثلاثين دقيقة .. وأنا كما ترى ، انتظر عودتها في هذا
البرد القارس .

قالت عبارتها الأخيرة ، وهي ترمقني باستعفاف ، فأدرت انها تريد
ملجأ من البرد ، ريثما تعود صاحبتها . ران بيتنا صمت ، لم أدر كيف

اقطعه ، وكنت خلالها أقلب أفكارا كثيرة ، معظمها سيء . ورغم أنني ملتحف بمعطف ثقيل ، فقد شعرت ببرودة تدب في جسمي ، ولم يحل الطقس البارد جدا ، دون تقافز حبات من العرق على جبيني . كنت انظر إليها تتأملني أتصعب عرقا في هذا البرد ، وهي تنكمش من شدته ..

فبادرتني قائلة :

- أنا آسفة .. أنت خارج ، وأنا قد أخرجتك .. معذرة على هذه البلادة ..

كان وجهها أصفر شاحبا من شدة البرد .. قلت لها :

- لا .. أبدا ، ليس هناك شئ مهم ..! لم لا تنتظرين عندي في شقتي ،

إلى حين عودة صاحبتك ، وناول خلال ذلك قهوة تشيع الدفء في

أطرافنا التي تكاد تنكسر من هذا الزمهرير ..؟

لم أكد أقول ذلك حتى تدفق الدم في وجهها الشاحب ، فاستعاد نضارته ،

وقالت :

- أنا أشعر بامتنان عظيم للطفك الكبير .. كما أنني متلهفة لاستكمال نقاشنا

السابق .. ثم أضافت .. وأستطيع أن ألغي موعدتي مع صديقتي .. إذا

تطلب الأمر ذلك .

إنها دعوة مفتوحة بلا جدال .. حدثت نفسي ، وأنا انصرف وإياها

راجعين باتجاه شقتي ، التي لم تكن تبعد سوى خمسين خطوة عن موقف

السيارات . داخلني هم كبير ، وزاد خفقان قلبي ، وكنت خلال ذلك في صراع نفسي عظيم ، جعلني في شغل عن حديثها الذي لا أدري ما كنهه .
تقول لي نفسي : أليس هذا ما تريد .. أليس هذا ما كان حديث نفسك ، خلال اليومين الماضين ..؟ هاهي قد جاءتك تسعى على قدميها .. أنت لم تذهب إليها ، بل أنت لم تدعها .. إنها فرصة ، والله غفور رحيم .
اجلس معها ، وإن جاء العرض منها فليس ذنبك ، أنت قد قاومت و ابن آدم ضعيف ، والله سيعذرك .. !!

ويجيء صوت الضمير الحي : حذار فهذا هو البلاء العظيم .. أين الخوف من الله .. أين الدعوة إلى الله ..؟ كيف إذا جيء بك يوم القيامة ، ورفعت على رؤوس الأشهاد ، وقيل من هذا .. فتناولت أعناق من قد يكون عرفك في هذه الدنيا فيقولون : هذا نعرفه .. هذا الداعية إلى الله مصعب . فيقال : لا .. هذا الزاني مصعب . يا إلهي أنت أرحم بي أن أصير إلى هذا المصير .

كنا في منتصف الدرج على بعد خطوات من باب شقتي ، حين تعثرت وسقطت ، لشدة الاضطراب الذي انتابني ، بسبب الصراع الداخلي العنيف . ساعدتني على النهوض .. كنت شاحبا ، غاض الدم في وجهي ، أتصعب عرقا ، وأطرافي ترتجف ، قالت لي :

- أنت متعب بجد ..؟

- نوعا ما .. ديمي أنا لا أستطيع أن أبقى معك .. أنا مرتبط ، ولا بد أن

أذهب ..

شعرت بالخجل ، وقالت :

- لقد احسست بأني أخرجتك .. كم أنا غبية ، أنا اسفة جدا ،

سأذهب □

- لا .. لن تذهبي ، بل ابق وانتظري صديقتك في منزلي ، واعتبري نفسك

في بيتك .. اصنعي لنفسك قهوة .. وإن كنت جائعة ، و رغبت في الأكل ،

فلا تترددي .. فالثلاجة ، والمطبخ تحت تصرفك .. وإذا خرجت تأكدي

من أن الباب مغلق ، وضعي المفتاح في صندوق البريد رقم □ في المدخل

الرئيسي للبناية ..

قالت وفي عينيها علامات استفهام كثيرة :

- هل أنت متأكد..؟

هزرت رأسي موافقا ..

عادت لتسألني :

- هل تحتاج إلى مساعدة .. هل تستطيع أن تقود السيارة بنفسك .. ؟

- نعم ..

هل أنت متأكد بأنك ستكون بخير .. ؟

- نعم .. ثم أضفت في سري .. " إذا كنت بعيدا عنك " □

أمسكت يدي بيديها ، و دمعتان حائرتان في عينيها ، و قالت :

- مصعب أنا أحبك ..

تسمرت عيناى فى وجهها الطفولى ، و الألم يفتك بقلبى .. و قلت :

- و أنا كذلك .. لكنى يجب أن أذهب ..

سحبت يدي من يديها ، و انحدرت مع الدرج ، و حينما حانت منى

إلتفاتة ، و أنا فى آخر الدرج ، كانت ما زالت هناك ... الدمعتان من

خلفهما عيناها الزرقاوان ، بدتا كموجتين انكسرتا على شاطئ لآزوردي ...

و أنا ..

مثل صياد أدركه الغروب ..

على شاطئ موحش ..

شباكه فارغة ..

قلبه فارغ ..

إلا من رحمة الله ..

رحلة القلب الأخيرة

رحلة القلب الأخيرة

الخميس ١١ رمضان ١٤٣٤ هـ:

دخلت .. الساعة التاسعة إلا عشر دقائق . كان لتوّه .. قد حضر مع السائق ، من صلاة التراويح . جسده الضعيف ، وقلبه المجهد ، لم يقفأ حائلين ، أمام إصراره على حضور صلاة التراويح ، في المسجد مع الجماعة . سلّمت .. قبلت رأسه ويده ، وكذلك فعلت مع والدتي ، وأخذت مكاني .. بجانبه.

تبادلنا أحاديث خاصة ، ثم أخذ زمام الكلام . تحدث عن فلسطين ، ومعاناة المسلمين هناك ، من اليهود . ثم تحدث عن (الفلوجة) .. والعراق ، ولَعَنَ أمريكا ، التي يسميها (أم اليهود) . تحسر على العراق ، وأيام قضاها هناك . انتقل بعدها للحديث عن أحداث عامة .. قديمة . بعضها شارك فيها ، وبعضها مضى أصحابها .. لكنه يملؤها حياة . كنت أرقب كلماته ، التي ما فتئت أسمعها من سنوات .. لم تتغير ، لم يطرأ عليها نقص . عاديات الزمن ، ظلت تتساقط .. عند جدار ذاكرته الصلبة ، التي قاومت الاختراق ، ولم تستسلم لجحافل السنين ، التي

زحفت .. تترك آثارها المدمرة ، على جسده المنهك ، ثم رفعت (راياتها)
البيضاء .. عند أسوار عقله.

كانت الكلمات تخرج ، من بين براثن ألم .. يجاهد أن يخفيه . لم تفلح
عزيمته القوية ، وإرادته الصلبة ، في أن توارى آثار الوجع ، التي تتبدى
على ملامح وجهه .. قاوم صنوف البلاء ، وكان في ذروة ساعات المحنة ،
يملك قدرة غير عادية ، على تغييب كل أحاسيس الألم ، وآثار المعاناة.
وجه يبتلع كل مظاهر العناء ، وتبرق فيه عينان ، يغور فيهما الألم ..
وجسد ظل ينتصب واقفاً .. كلما أوغلت فيه حراب البلاء.

سألته .. مستدرجاً إيّاه للحظة مصارحة:

-صوتك .. ما هو عاجبني .. !!

نهض برأسه إلى الأعلى قليلاً .. كأنما خشي أن ينسكب الألم من عينيه
المجهدين .. وقال ، وهو يشير بشاهد يده اليمنى ، إلى رأسه:
-أبداً .. ما دام هذا سالم ، ويذكر الله .. فأنا بخير .. !!

ظل يتحدث لأكثر من ساعة ، وكان ثمة تواقيع لألم .. بقيت متناثرة على
محيّاه . هو نفس الرجل العملاق ، الذي جاءني في السجن قبل سنوات ،
بُعِيد الرحيل الملحمي .. لعبد الله رحمه الله .. وكنت على شفير وحشة ،
تدق قلبي مطارق الألم ، وتعصف بكيانني أنواء الفجيعة .

غرس قبضة يده في عضدي .. وقال:

- أثبت ..

لم يبق في الخيال ، من ذلك الموقف ، إلا قامته .. التي شمخت أمامي
مثل جبل ، والصمود الذي ضخته عزمته الجبارة ، في روعي المأزومة ..
وما زلت أقتات عليه من سنوات . كان مؤمناً ، قويا .. ومذهلاً.
ودعته وخرجت.

الجمعة □□ رمضان □□□□ هـ:

الساعة الثالثة فجراً ، ينتفض جوالي .. كنت قد جعلته على (الصامت)
. بين يدي أوراق ، وضعتها جانباً .. والتقطته . تأملت الشاشة .. كانت
أمي.

- السلام عليكم .. هلا أمي ..

- محمد .. أبوك تعبان .. !!

أرتديت ملابسي ، وأنحدرت سريعاً . حين وصلت ، كان يجاهد ، لينتزع
من فضاء واسع حوله .. نسمة هواء . يضع يده على صدره ، ويستجمع
قوى جسد نحيل ، عصف به ثلوث التوحش : الشيخوخة ، والأمراض
.. والابتلاءات . لم تكن مظاهر الشيخوخة ، وأعراض المرض لتتوارى ، أو
يكن قادراً على إخفائها . بقيت تلك الأشياء .. التي يتحكم بها عظماء
الرجال ، فتفتك بهم . سهام البلاء ، إذ تنشب نصالها ، بأفئدة الرجال

وأرواحهم ، فيقاومون عواصفها الهوجاء ، بهامات لا تنحني .. وشيمة
الصبر .. والألم المتشظي ، يمور في الحنايا.

- سلامات..

لم يرد .. أوما برأسه . أحضرت حذاءه ، وقلت:

- نمشي للمستشفى ..

في الطريق إلى المستشفى ، كان الألم الهائل ، يجثم على صدره .. يدافعه
بكفين معروقتين واهنتين ، يعاقب بينهما في الضغط على صدره .. كأنما
يزيح بهما الألم الرابض على القلب . مجرى الهواء الذي بدأ يضيق ..
قسّمه بين ذرات الهواء القليلة .. التي ينازع لإدخالها إلى قلب .. ما زال
يقاوم ، وبين ذكر الله . كان اسم الجلالة ، يردُّ بين كل شهقة وزفرة.

التفت إليّ .. وفي عينيه رأيت رجاءً هائلاً:

- محمد .. العيال ، تراهم من هادي الرقبة إلى هادي الرقبة.

كان يشير إلى رقبتة ، ثم يشير إليّ . عرفت أنه يقصد إخواني الصغار ..
يوصيني بهم . خنقتني عبرة ..

وقلت :

- عمرك أطول .. يا أبي..

- هذا الحق .. يا محمد..

-لا تتعب نفسك بالكلام .. الله يحفظك.

وصلنا إسعاف المستشفى .. كانت الساعة تقترب من الرابعة فجراً . نزل ..
ومشى قليلاً . أحضرت له كرسيّاً متحركاً .. فجلس ، وأسرعت به .
مظاهر الألم البادية على وجهه ، اختصرت الأسئلة التقليدية ، التي
تثيرها الممرضات عادة ، عن حالة المريض .. قلت :
-يعاني من ألم شديد في صدره .. وضيق في التنفس . أخشى أن يكون
القلب ، لقد تعرض إلى جلطات في القلب ، أكثر من مرّة.

أنهضته الممرضة من الكرسي ، ووضعتة على سرير الفحص ، ثم تحدثت
إلى الطبيب قليلاً . غابت لحظات ، ثم جاءت تدفع أمامها جهازاً ، قالت
أنه جهاز تخطيط القلب . حين اضطجع ، وشرعت في وضع المحسّات
والمجسّات ، المرتبطة بالجهاز على صدره .. فجأة انقلب لونه إلى الأزرق .
صرخت هي .. والفريق الفني ، العامل معها ، وأخذت تنادي على
الطبيب . جاء الطبيب مسرعاً .. واللون الأزرق ينتشر بسرعة . مزّق
الطبيب ثوبه ، والتقط جهازاً ، وصار يدفعه داخل مجرى الهواء في فمه ..
وآخر وضعه على صدره ، يقوم أحد مساعديه بالضغط عليه . كان ..
والفريق الذي معه ، يدفعون السرير إلى غرفة أخرى .. مجاورة .. وهو
يصيح ، رداً على صراخي عليهم : ما الأمر .. ما الأمر .. ؟ :

-انخفض الضغط ، امتنع الأكسجين عن الجسم ..

ثم أكمل إعطاء توجيهاته ، للفريق الطبي معه .. باللغة الإنجليزية .

في الغرفة الأخرى ، كان كل شيء يتم بسرعة : وُضع على التنفس الاصطناعي ، وَفُتِحَتْ له فتحة في الشريان .. وانتشرت الإبر في أوردته ، تصب الأمصال ، في جسده المجهد . الزرقة زالت .. لكن القلب كان ضعيفاً . ينبض .. لكنه معتمد على الأجهزة المساندة .. لا يقوى بنفسه.

أمام حقيقة هائلة .. وقفت:

القلب الكبير ، الذي كان مأوى الرجال ، والنساء ، والأطفال .. عاجز أن يقوم بأعباء الجسد النحيل . القلب الكبير ، الذي صمد أمام (الأزمات) الكبيرة ، وقاوم كل مظاهر القسوة والتوحش .. تتربص به الآن (أزمة) قلبية عارضة . يصارع من أجل (ذرة) أكسجين ، وهو الذي كانت من قبل ، تتنفس قلوب كثيرة .. أحزانها ، من خلاله ! ..

كان الأطباء والمرضات ، مشغولون بكتابة تقاريرهم ، ووضعها في الملف المعلق بالسريير ، الذي يرقد عليه . كنت أدور حول السريير .. ألمس جبهته ، أو أضع يدي على كفه ، أو قدمه . صدره يعلو ويهبط .. لكن الجهاز يقول ، أن قلبه ضعيف ، أن ضغطه منخفض . أريد أن أطمئن:

-كيف هي حاله .. يا دكتور ..؟

-حالته حرجة .. تعرض لأزمة قلبية ..

لا نعلم أسبابها بالضبط ..

لو تعلمون أي هموم يحملها ، أي توحش وقسوة ، صادفها هذا القلب ،
لعرفتم الأسباب .. ربما . هل يحتفظ القلب بأرشييف لهومومه وأوجاعه ؟
هل لديه ملف ، يحتوي على قضايا الغدر ، والقسوة .. والظلم ، التي
مورست ضده ؟ ربما لو أعملتم المشروط فيه ، لانداحت عليكم الملفات
والقضايا .. ربما .

لكنه لن يقبل .. حيث ستخرج جماهير الناس ، من الرجال
، والنساء ، والأطفال ، ممن اتخذوا قلبه (خيمة) أخيرة . لن يقبل
أن تمزقوا أوتار الخيمة .. فتتكشف عن أناس ، اتخذوه ملاذاً أخيراً .
لن يقبل .. لأن القلوب الكبيرة ، تختار أن تسكت ، دون ضجيج .. ولا
تتوقف عن العطاء ، أو تقطع أوتارها ، فتبوح للناس ، عما فيها .. من
وجع ، وقسوة .. وأناس اتخذوها ملاذاً .. خيمة أخيرة.

-هل سيطول بقاؤه على هذه الحالة ..؟

-لا ندري .. الله أعلم . سينقل إلى وحدة العناية المركزة .. للمتابعة ،

على أمل أن يستعيد القلب نشاطه الطبيعي.

الساعة الثامنة الآن . أخبرتني المريضة أنهم يجهزون له سريراً ، في مركز
الأمير سلطان لجراحة القلب . أرادت أن تشعرني أن وجودي ليس له
معنى .. وأن علي أن أذهب:

-في الساعة العاشرة سيتم نقله إلى هناك .. حيث سيكون سريرته جاهزاً .
تستطيع أن تتصل لتطمئن عليه.

طلبت منها رقم اتصال ، فكتبته على منديل ورقي ، ونظرت أمامها ..
حيث ثمة ورقة مثبتة على الجدار ، تحمل مجموعة من الأرقام .. فقالت:
... -وهذا رقم التحويلة ..

وسجلته إلى جانب رقم التلفون . أخذت منها المنديل ، ثم اقتربت منه ..
قبلت جبينه ، وخرجت.

اليوم الجمعة .. الطرق خالية . هل استوحشته المدينة مثلي ، فَخَفَّتْ
فيها الحركة ، وَخَفَّتْ بها نبض الحياة .. مثلما هو الفراغ ، الذي بدأت
أشعر به ، مثل هوةٍ سحيقة ، تتشكل في وجداني ، تهوي في قعرها ،
معاني الرغبة في الحياة،

بعد الظهر اتصلت ، ردت ممرضة .. أعطيتها اسمه ، ورقم الملف الطبي
، وسألت عنه:

-لم يتغير شيء .. حالته ما زالت حرجة . من المستحسن أن تسأل
الدكتور .. يكون موجوداً أثناء وقت الزيارة.

سألتها عن وقت الزيارة ، فأجابت ، أنها في الساعة الثالثة والنصف
عصراً .. إلى الرابعة . جنّت في وقت الزيارة .. سألت عنه ، فقالوا إنه في
السرير رقم (□) . كانت الأجهزة هي التي تعمل ، وجوارحه تَبَعُ لها .
جسده ساكن ، وعيناه مغمضتان . لم يكن ثمةَ (حياة) .. إلا صدرٌ يعلو

ويهبط ، موصول بعدد غير محدود من الأسلاك والأنابيب.
خاطبت الممرضة الجالسة إلى جانب السرير ، تدون ملاحظاتها عن عمل
الأجهزة ، في بيان متعدد الخانات:
-أريد أن أسأل الطبيب عن حالته..
-سأعمل له نداء .. ليأتي.

جاء الطبيب .. وذكر كلاماً عاماً ، لم يقنعني . أمام إلحاحي .. قال :
-ضغطه منخفض (70) .. كما ترى . يجب أن يرتفع فوق (□□) ..
ليتجاوز مرحلة الخطر . هناك التهاب في الصدر .. أضعف القلب ، وساهم
في أزمته ، التي أدت إلى انخفاض الضغط . البكتيريا قوية ، ونحن نحاول
أن نقاومها ، بإعطائه مضادين حيويين.

.....

-الأدوية .. صحيح أنها تعالج ، لكن لها مضاعفات . تؤثر في حموضة
الدم ، وهذا له..
لاحظ أنه قد بدأ يدخلني في متاهات الأدوية ، عندما بدأت اقلب نظراتي
، بينه وبين الوالد .. فتوقف.

في المساء .. جنئت في وقت الزيارة الثاني ، العاشرة والنصف . ما زال في
(غيبوبة) .. جسده فقط . روحه كانت تحوم في المكان . في جسد كل من
أحاط بالسرير ، من بناته ، وأبناء بناته ، وأبناء أولاده .. قبس منها.
الوالدة وقفت إلى جانب سريريه ، كأني بها تنادي .. ولا رجع صدى . في

عينيها حديث طويل ، عبّرت عنه رعشة كفها ، وهي تضعها على جسده .. عند كتفه العاري .. تتحسس نبض الحياة ، لرجل طالما منحها الأمان .. و تَحَسَّتْ في كنفه طعم الرجولة . بدت .. بجسمها الصغير ، وهي تنحني عليه ، مثل حمامة مبتلة ، واقفة على باب وكرها .. غادرها شريكها ، في ليلة سوداء شاتية ، مطيرة .. وحيدة لها نواح .

السبت □□□ رمضان □□□ هـ :

هذا صباح آخر .. يمضي بدونك..

أعدت أن أمر عليه كل صباح ، أو أغلب أيام الأسبوع . الساعة العاشرة ، حين اتصلت أسأل عنه .. كان قد مرّ أكثر من □□ ساعة ، على دخوله حالة اللاوعي . ذكرت الممرضة ، أن حاله كما هي لم تتغير .. ما زالت حرجة ، وإن كانت تنحو نحو الاستقرار . ثم قالت كلاماً لم أتبيّنه ، بسبب حديثها بلغة إنجليزية ، تغلب عليها لهجتها المحلية.

جنّت في موعد الزيارة الأول . وجدتهم يحيطون به .. الطبيب ، وعدد من المساعدين ، والممرضات . كانوا يتهيأون لنقله . سألت الطبيب عن الأمر ، فأجاب أن ضربات القلب غير منتظمة .. مما سبب له أزمة جديدة ، وأنه سيأخذه إلى غرفة العمليات ، لوضع منظم يضبط حركة القلب ، ويمنع تكرار المشكلة.

ألقيت عليه نظرة ، وهممت أن أقبل جبينه .. لكن الممرضة دفعت السرير ، باتجاه المخرج ، الذي يؤدي لغرفة العمليات . سرّتُ إلى

جانب السرير ، وأنا أتأمله : كم ذا .. لُذْتُ بهذا الصـدر العـامر ،
الذي أصبح مرتعاً للألم .. ولأجهزة تمنحه الأمل .. بـ (حياة) . القلب
الذي كان (الأمل) ، و(الحياة) لكثيرين .. يفرون إليه من الألم ، صار
(يلوذ) بجهاز ، يمنحه (حياة) ، ليمنح (الأمل) لآخرين ..

في المساء لم يتغير شيء . أخبرني طاقم التمريض ، أن الجهاز .. منظم
ضربات القلب ، الذي تم غرسه في صدره ، يعمل بشكل جيد
. وجدت عنده طبيب مقيم .. (متدرب) . دفعني القلق لأسأله ..
فضاعفت إجاباته خوفي وقلقي:

-ضغطه منخفض ، وهذا يجعل حالته حرجة . نسعى لتنشيط القلب ،
من خلال الأدوية ، ليرتفع الضغط .. لأن انخفاض الضغط ، يؤدي إلى
فشل وظائف بعض أعضاء الجسم الأخرى .. مثل الكلى ..

انتشر خبر إصابته ، فكثرت الاتصالات .. تسأل عنه . صرت أضيـق
ببعضها .. وأتـحاشاها ، خصوصاً تلك التي تسأل عن تفاصيل الحالة . لم
أعد قادراً على أن أقول ، أكثر من : حالته حرجة .. ويحتاج الدعاء .
بعض اتصالات شقيقاتي ، كانت تؤلني .. تُوغِلُ في طلب الشرح والتفصيل
، فيتوغَّل الـوجع في داخلي . كنت أراه في كل يوم .. (يبتعد) أكثر ،
لكني لا أستطيع أن أقول ذلك . حينما أزوره ، وأضع كفي على جبينه ،
أو يده .. كنت أقاوم شعوراً موحشاً بالفقد ، بدأ يخـترقني .
كنت أخدع (الطفل) في داخلي ، الذي يتعلق بالمحسوس .. دليلاً

على الوجود . كنت أضع عنواناً (وهمياً) .. لروح دخلت في التيه .. إذ
يرحل ملهمها و دليلها.

الأحد □□□ رمضان □□□□ هـ:

الصباح الثالث .. مضى الآن أكثر من □□ ساعة ، وأنا (وحيد) . اتصلت
كالمعتاد ، في حدود الساعة العاشرة . جاء رد الممرضة روتينياً : حالته
مستقرة ، لم يتغير شيء.

-هل ما زالت حالته .. تعد حرجة ..؟

-نعم..

كيف تكون إذاً مستقرة .. تساءلت ؟ ارتبط (الاستقرار) في ذهني ، بوصفه
مفهوماً ، وحالة ايجابية . صرت أكره أن أسمع كلمة (مستقرة) ، أو (Stable)
كلما اتصلت ، أو سألت عنه . حالته حرجة ، وتكون
مستقرة .. معادلة عجزت أن أقبلها.

في العصر ، موعد الزيارة الأول .. جنئت . أسحب خطاي ، داخل وحدة
العناية المركزة .. باتجاه السرير رقم (□) . المرضى على يميني ويساري
.. ساكنون . لاحظت أن المريض ، لا يكون مستقلاً بسرير وحده ، ليس
معه أحد ، يشاركه (الغرفة) ، إلا إذا كانت حالته .. تستدعي
مراقبة لصيقة ، كما هي حاله . في وحدة العناية المركزة ، ليس ثمة غرف

. هناك مساحات ، تقسم ، وتغلق بستائر ، تقوم بدور القواطع والأبواب .
لا يوحي هذا الوضع بـ (حميمية) من أي نوع ، مقابل الجدران
والأبواب الصلبة .. (الجامدة) . أحسها تعبيراً ، عن حالة مفادها .. أن
:
كُلُّ شيء هنا .. عابر ، كل شيء مؤقت! ..

حين وصلت إلى (المساحة) .. حيث يوجد السرير رقم (□) ، كانت
الستارة ، نصف مغلقة . ما أن دخلت ، حتى (صفع) ناظري ، منظر
لجهاز كبير ، بلون أصفر باهت . فاجأني .. وأنا استتبعته . وجه
الجهاز مليء بالأزرار ، والشاشات الدائرية الصغيرة . اللافت فيه ..
اسطوانة بلاستيكية شفافة صغيرة ، مملوءة بسائل .. كأنه دم ، ترتبط من
الجهتين بأنبوب بلاستيكي . واحد متصل بالجهاز ، والآخر يخرج من
تحت الملابس ، التي وضعت على جسده.
شعرت بألم يعصر قلبي ، وجالت في خاطري أفكار حزينة . لم أشك لحظة
، بعد رؤيتي للجهاز ، بأن المحذور قد وقع . حاولت بأن أكذب ظني ..
وبدايات نحيب ، شرعت تتعالى في أعماقي : ليل الرحيل ، هل آذن

بالقدوم ..؟

سألت الممرضة:

- ما هذا ؟! ..

- جهاز ديلزة ..

إذن بدأ غسيل الدم ..! هُرِعْتُ إلى رئيسة التمريض ، أسألها أن تطلب لي الطبيب . صرت أتأمل الجهاز ، وألقي نظرة .. على جسد صاحب القلب الكبير : ها هو جهاز آخر ، يضاف إلى منظومة نظام المساندة ..
ليبقىك حياً .

تأخر الطبيب . كان هناك شخص يروح ويجيء ، بين مكتب التمريض ، والأجهزة المرتبطة بالجسد المسجى . معطفه الأخضر ، أوحى لي .. بأنه قد يكون مساعداً للطبيب . سألته عن الجهاز .. فقال :
- لتنقية الدم..

- كيف ؟

- بعض أجهزة الجسم ، لا تقوم بوظائفها على النحو المطلوب .
البكتيريا أدت إلى حدوث تسمم في الدم ، والجهاز يساعد على التخلص من السموم.
نادته الممرضة .. فذهب . تحركه السريع نحوها ، بدا وكأنه فرصة وجدها ، ليتخلص من تساؤلاتي ، أكثر من رغبته في استطلاع الأمر ، الذي تدعوه من أجله.

عدت للسريير أتأمله ، وأحدق في الجهاز ، محاولاً فهم الأرقام والمعلومات ، التي تتبدل على شاشاته الصغيرة . الخوف عاد يقرع أبواب قلبي ..
حين ألقيت نظرة على صاحب القلب الكبير ، وبدأت أحسب عدد

الأجهزة ، المرتبط جسده بها.

جاء الطبيب ، اعتذر عن التأخير .. ثم بادرني:

- لعلك تسأل عن الجهاز .. ؟

- ليس الجهاز فقط يا دكتور .. كيف حاله ؟

- إنخفاض الضغط يؤثر على عمل وظائف الجسم . هناك (فشل) في

وظائف الكلى و الكبد ، لذلك تم اللجوء إلى الجهاز .. لتخليص الدم من

السموم.

- فشل .. ؟!

لاحظ وقع الكلمة العنيف عليّ ، فحاول أن يضفي عليها تفسيرات تلطّفها

. أسهب في الحديث ، عن أن هذا مصطلح طبي ، يراد منه ، عدم قيام

العضو بوظيفته على الوجه الأكمل ، و بالتالي (عجزه) ، عن تلبية

إحتياجات اعضاء الجسم الأخرى .. التي تعتمد عليه . شعر كأنما وقع

على اكتشاف غير مسبوق .. حينما نطق كلمة (عجز) ، و أحس أن (هذا)

هو التفسير ، الذي كان يبحث عنه ليرضيني

-عجز!.. نعم .. نعم ، هو التعبير الصحيح ، أو ما يسمى بالإنجليزية ،

.. failuer بعض الترجمات ، في المجال الطبي غير دقيقة..

عجز .. أو فشل ، لا فرق .. ! الألم الذي يعصر قلبي ، شعرت بوطأته

تزداد ، و الخوف الذي يقرع أبوابه .. صار له دوي ، صرت أسمعه في

أذني . تبدو الترجمة مخادعة و مخاتلة ، أكثر مما هي غير دقيقة . مثلما هي إجابته ، عندما سألته : هل يمكن أن يعود عمل الكلى و الكبد ، إلى الوضع الطبيعي ..

إذا أنتظم عمل القلب ، و تجاوز أزمة انخفاض الضغط ..
-نحن نركز الآن على تنشيط القلب ، و مقاومة البكتيريا .. و هو الآن على (maximum support)

إقتحمت الجملة الإنجليزية أبواب القلب ، فدخلت جحافل الخوف .. وطفقت تمزق حبال الأمل . أختصرت لي حالته ، التي كان الطبيب يحاول أن يخفيها :

"لا نستطيع أن نفعل له ، أكثر مما هو حاصل الآن .. فهو في وضع المساندة القصوى..

معتمد كلياً على الأجهزة .. و بكى القلب .
أغمضت عيني ، و أشحت بوجهي عن الطبيب . تأملتة .. كان صدره يعلو و يهبط ، و له صوت . الجهاز يمنحه التنفس .. و بكى القلب.

.. و خرجت أسحب خطاي . المرضى على يميني و على يساري ، لم أنتبه لأحد . موظف الأمن نبهني ، أن الباب الذي أحاول فتحه .. لأخرج ، هو باب الطوارئ ، و ليس المخرج . رفعت رأسي .. هناك لوحة إرشادية ، لم أتبيّن المكتوب عليها . العينان غائمتان ، فاحتجبت الرؤية .

طأطأت .. و مسحت عينيّ ، لم أشأ أن يراها رجل الأمن . هل عيب أن
نبكي ، حينما يتألم من نحب .. أو يوشكون على الرحيل .. ؟!

في المساء جنّت ، لم يتغير شيء . إحدى شقيقتي ، كانت موجودة .
هالها مشهد الجهاز ، مثلما هالني . سألتني بهلع ، وهي ترى الدم
(يجول) في الأسطوانة البلاستيكية ، وفي الأنابيب .. ماذا يكون هذا
(الشيء) ، و ما هي وظيفته ..؟ نفس الإجابة (المتهرّبة التي سمعتها من
مساعد الطبيب ، و من الطبيب ، كررتها عليها . ردّت بعصبية على
إجابتي ، غير المقنعة.

لم يكن لدي ، ما أرد به ، و أنا ألقى بنظري عليه ، و أحس أن برزخا
هائلا ، بدأ يتشكل .. و يفصل بيننا . قلبي يناديه من الأعماق .. يصرخ
، و يمد يدا ، لكنه لا يسمعني ، و لا يستجيب .. أو هو لا يقدر . أنا
أهوي في لجة حزن ، و يضيق الأفق نحوه ، حتى يغدو مساما .. و هو
يترقّى في ملكوت . تمتصني الوحشة ، و الشعور بالفقد .. إلى حضيض ،
فينتفض قلبي ، و يجأر برجاء:

-اللهم اجمعنا في ملكوتك ، مع الغائب الحاضر .. (أبي عبد الرحمن) ،
الذي صنع رحيله الملحمي ، الصدع الأول ، في القلب الكبير.

افتعلت موقفا ، لأتقي (نصال) أسئلة أختي .. و اتجهت لمكتب رئيسة
التمريض . وقفت قليلا أمامه ، أطرح على الممرضة أسئلة مفتعلة .. ثم

غافلتها و خرجت . أبقيت جوالي مغلقا لفترة .. حتى لا تطاردني الأسئلة .
لم يعد في القلب قدرة ، لاستقبال مزيد من التساؤلات (الجارحة) ،
ففؤادي في غشاء من نصالها.

صرت أنتظر الغد ، بانتظار قلب لم يعد قادراً ، على أن ينتظرنني . الغد
الذي أتطلع أن (يقربني) ، من حبيب ، أراه كل يوم (يبتعد) .. لتهبط من
بعده جيوش الوحشة و الظلام.

الاثنين ١١ رمضان ١٤٣٥ هـ:

فجر الاثنين .. يعني أنه مضى أكثر من ١١ ساعة على إغماءته .. و بداية
رحلة الغياب الطويل . كان الطبيب قد قال لي في اليوم الأول ، أن أي
حالة صحية حرجة ، لا تستمر أكثر من ١١ ساعة ، في الغالب . يتضح
بعدها ، في أي اتجاه يسير الوضع الصحي للمريض . اتصلت في العاشرة ..
كالمعتاد ، و جاءني الرد التقليدي:
-وضعه مستقر ، لم يتغير شي .. لكن حدثت مشكلة في الضغط ، الطبيب
يستطيع أن يشرح لك.

مررتُ عليه بعد العصر ، في موعد الزيارة الأول .. بدا ساكنا . نظرتُ إلى
جهاز الضغط ، كانت القراءة تتراوح بين (١٠-١٢) . أقل من أمس
بدرجتين . سألتُ الممرضة .. فَتَمَعَّنت في البيان الذي بين يديها ، و قالت

أنه تعرض لأزمة هذا الصباح ، حيث نزل ضغطه إلى حدود الـ (□□) . لم أشأ أن أطلب الطبيب .. في عينيه صرت أقرأ الحقيقة ، التي يحاول ان يخفيها عني :

والدك يحتاج إلى معجزة ..! أمس .. قالها صريحة ، لقد أصبح في وضع المساندة القصوى .. الماكسيمم سبورت..

خرجت من عنده ، و بدأت أفكار الغياب و الرحيل .. تسيطر عليّ .

جئتُ الوالدة بعد المغرب .. سلمتُ عليها ، و سألتني عنه . أخبرتها أن حالته لم تتغير ، ثم رويتُ حوارا (اختلقته) ، بيني و بين الطبيب . قلتُ لها أن الطبيب يقول : عليكم أن تؤمنوا أن العلاج ، ليس إلا سبباً .. لا يصنع شيئاً ، أمام أمر قد قضاه الله . كنتُ أريد تهيئتها ، لأمر أراه .. و لا أستطيع أن أبوح به.

كانت متعبة جدا .. خلال اليومين السابقين . آلام الروماتيزم تعذبها ، و تضغط على عظامها ، التي أعياها السكر .. فوق عذابات السنين ، التي فتت فؤادها الغض . فاجأتني أنها تصر على أن تراه الليلة ، رغم إلحاحي عليها بالراحة ، حتى لا تحصل لها مضاعفات.

في المساء .. كنتُ عنده ، أنا و الوالدة ، و بعض الأخوات . نظرتُ إليه .. لكنها لم تقف عنده كثيرا ، و قالت بصوت ممثليء تعباً ، أنّها ترغب بالمغادرة . في الطريق إلى السيارة ، كانت صامتة ، و حينما ركبت .. علا نشيجها ، و هي تردد:

-بعدك علوم يا أبو محمد .. الله يلف بك و بنا

هل استشعرت الرحيل القادم ، و جاءت تلقي النظرة الأخيرة ..؟ لم أر امرأة تحب رجلا ، مثل حب أمي لأبي .. دون أن تصوغ في ذلك قصيدة . كنت أقرأ في عينيها ، و هي تنظر إليه .. أجمل القصائد . قاسمته الحياة بأفراحها و أتراحها .. و حين تعاقب عليهما البلاء ، في السنوات العشر الأخيرة ، كنت أعجب منهما كليهما : صبره الجبار ، و رضاها بالقدر . كلما اشتد عليه البلاء .. زاد تماسكا ، و كلما اشتد عليها البلاء .. زادت شفافية ، حتى أكاد أجزم ، أني أرى بعيني .. قلبها موصولاً بالسماء.

الثلاثاء ١١ رمضان ١٤١٤ هـ:

عصر يوم الاثنين ، كان قد هاتفني أحد الأصدقاء ، و دعاني إلى لقاء في منزل أحد الأعيان ، على شرف شخصية ثقافية من دولة عربية . لم أكن مستعداً نفسياً ، للقاء مثل هذا .. و اعتذرت . والدي يملأ قلبي و خاطري .. فكيف أستطيع الحضور ، و المشاركة ..؟

أصرّ عليّ .. بحجة أن حضوري مهم ، و أن صاحب المنزل ، حريص على حضوري.

أوصلتُ والدتي للبيت ، بعد خروجنا من المستشفى ذاك المساء ، وتوجهت إلى منزل صاحب الدعوة . كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.

في منزل المضيف ، انهمكنا في نقاش ، حول هموم (وطنية ،، (و قضايا (الإصلاح) ، التي أصبحت مطلباً على مختلف الصعد . يتفق الجميع على أهمية ، ووجوب الشروع بتنفيذها .. و تختلف الرؤى.

كنتُ أتحدث ، و قلبي هناك .. في المستشفى ، مع رجل .. أنا مدينٌ له بكل شيء .. من شكل (الإنسان) ، إلى معنى .. الرجل

رجلٌ ملأني كرامة و عزة .. و امتلأت بوجوده إلى جانبي ، ثقةً و أملاً.. في الساعة الواحدة و عشر دقائق ، من صباح الثلاثاء .. دقّ جوالي . تناولته من جيبِي ، و صرتُ أتأمل رقم المتصل .. لم أعرفه . وضعتُ نظارة القراءة على عيني ، و تأكدتُ أن الرقم غريب .. ثابت ، و ليس جوالاً . حين أجبت .. جاءني الصوت:

- فلان ..؟

- نعم..

- معك مركز الأمير سلطان لجراحة القلب .. والدك يمر بوضع حرج ، ونريدك أن تأتي الآن.

تسارعت دقات قلبي ، حين عرّف بنفسه ، و شعرت باضطراب ، لاحظته الحاضرون . طلبه مني الحضور ، شلّ قدرتي على النهوض للحظات ، وأحسستُ كأن قلبي سقط من مكانه ، فوضعت يدي أسفل صدري.

قطعتُ حديثاً ، كان يجري ، و طلبتُ الإذن من مضيفي .. بالإنصراف:

-هناك اتصال من المستشفى .. يجب أن أذهب.

قدتُ سيارتي باتجاه المستشفى . عشرات الأسئلة .. جالت بخاطري .
استبعدتُ فكرة (الموت) .. تماما . العاملون في المستشفيات ، تبدلت
أحاسيسهم تجاه الموت ، من حيث هو (حدث) يصدّم أصحاب العلاقة .
تعاملهم مع حالات موت يومية ، جعلتهم يظنون – دون سوء قصد – أن
الناس مثلهم ، يواجهون (الموت) كل يوم .. فلم يعودوا يبالون ! ..
العاملون في المستشفى .. افترضت كذلك ، ليسوا بهذه الرقة و الحساسية ،
تجاه الموت ، كحدث غير عادي (لنا) .. بحيث لم يرغبوا أن يسببوا لي
(صدمة .. (ففضلوا إبلاغي ، بشكل تدريجي.
إذن لماذا طلبوا حضوري ..؟

حين وصلت .. استغرب رجل الأمن مجيئي ، في وقت متأخر .. مثل هذا
أخبرته أن لدي مريض ، و أن المستشفى اتصلوا بي ، و طلبوا حضوري .
سمح لي .. فأخذت المصعد إلى الدور الثالث.
خرجتُ من المصعد ، كان باب وحدة العناية المركزة لحظتها .. مفتوحا ،
حيث صادف خروج أحد العاملين.

دخلت و توجهت إلى السرير رقم (□) . كان الطبيب هناك ، و بعض
المساعدين .. و الممرضات . كانوا منهمكين في نشاط غير عادي . لا ينفك
الطبيب عن إصدار أوامر ، و طلبات ، للذين معه . التفت إليّ .. و قال:
-ضغط الوالد يتراجع بسرعة ، منذ أكثر من ساعة .. فشلنا في إيقافه .

نحن نبذل محاولات أخيرة.

نظر إليّ ، و قرأتُ (الموت) في عينيه . رفعت عينيّ للجهاز .. كان الضغط دون الـ () . .. و ينزل □□. □□. □□ . نظرتُ إلى والدي .. كان ينازع . لم أستطع متابعة المشهد .. فخرجتُ . في غرفة استراحة مجاورة ، رميت بجسدي على المقعد الأول .. كلماته : نبذل محاولات أخيرة ، شعرت بها ، مثل الأشجار .. تنغرس في وجداني المكثوم . الساعة التي في يدي ، تشير إلى الواحدة و خمس و ثلاثين دقيقة صباحا . في قلبي .. كان الزمن يؤذن بنهاية! ..

كنت غارقا في لحظات ذهول .. أتذكر نظرات الطبيب ، و أتخيل نفسي بلا (أب) .. بلا رجل ظل يلهمني ، إلى آخر لحظات وعيه . شعرت أنني انفصلت عن الدنيا .. ثم استيقظت على صوت إحدى الممرضات .. تصرخ :

-المؤشر ينحدر بسرعة..-

سادت دقيقة صمت ، وجدت الطبيب بعدها ، يقف عندي ، يحمل في عينيه بقية من نظراته الأولى .. و يقول:

-توقف قلبه .. عظم الله أجركم، وجبر مصيبتكم . هذه أيام فضيلة ..
أدعوا له.

إذن كانت رحلة القلب الأخيرة . كان يحاول فيها .. أن يصعد ، ليحافظ

على (قلوب) وراءه .. كثيرة ، من الانهيار . عجزت أن أرفع يدي ، لأرى الوقت .. الساعة المعلقة على الحائط ، كانت تشير إلى الواحدة و سبع و أربعين دقيقة . لاحظت ذلك ، قبل أن تمتليء عينيّ ، فلم أعد أرى شيئاً .. حولي ، حتى الطبيب الواقف أمامي.

انصرف .. و أصدر تعليمات لبعض من كان معه ، لم أدرك منها شيئاً . كنت غارقاً في حالة ذهول . نهضت .. و ذهبت باتجاه السرير رقم □ إحدى الممرضات كانت مشغولة بنزع الأجهزة من جسد ، كان قبل قليل فيه حركة . كل شيء صمت :

الأجهزة ، و الجسد .. و الروح التي كانت تحوم في المكان.

طلبت من الممرضة أن تؤجل عملها ، و تتركنا وحدنا . سحببت الستارة ، و أغلقتها علينا .. أنا و هو . نظرت إلى عينيّن نصف مفتوحين ، و وجه ساكن . لا يرف .. لكنه لم يكن جامداً . وضعت كفي على جبينه ، و أمسكت بكفه .. كان دافئاً . مثل قلب كنت ألوذ به ، كلما اشتد الصقيع .. و هبت رياح التوحش . أخذت أنظر إليه ، من أكثر من زاوية .. رأيت (قلباً) كبيراً ، تموت بموته أرواح .. و تغيب قيم ، و أخلاق فرسان ، و وجدتني أقف برهبة .. و بجلال ، ثم أقبل جبينه:

-طببت حيا و ميتا يا أبي .. طببت حيا و ميتا..

استحييت أن أعطيه ظهري ، فمشيت إلى الورا .. و غادرت..

الساعة الآن .. الثانية و عشر دقائق صباحاً.

خرجت إلى الشارع .. الظلام يحيطني من كل جانب . لم يفلح الضوء ..
المتدفق من أعمدة الإنارة ، و لا من انوار السيارات ، في مدينة لا ينام أكثر
أهلها ، في ليالي رمضان .. في أن يضيء قلبي ، الذي انطفأ .. برحيله .
أرسلت رسالة جوال ، إلى أربعة أرقام : " أنعي لكم حبيبي .. لقد رحل
إلى الرفيق الأعلى ، ما أطول الليل بعده .. !!

عدت أفكر بأمي ، و برجل سيروِّعه رحيله . كنت ما أزال أوْمَن ، بأننا
يجب ان نفصل بين المهني و الأخلاقي . كيف سيكون حال (إبراهيم) ،
إذا جاءه النعي .. لم يصلّ عليه ، و لم يدفنه .. و لم يتلق فيه كلمة عزاء
.. ؟ فوق قهر السجن .. فقد حبيب ، و عذاب.

كنت مؤمناً أنه سيستجيب ، و انه أكثر من سيقدر (نظريتي) ، في الفصل
بين الأخلاقي والمهني . صورة إبراهيم تلح علي .. ثاوبياً في زنانتته ، يبلغه
الخبر بطريقة آليّة ، فيغيض الدم في وجهه ، و تذوي روحه . سحبت
جوّالي من جيبي .. وأتصلت ، فرد عليّ موظف السنترال

- السلام عليكم .. أقدر أكلم الأمير محمد بن نايف ، لو سمحت .. ؟

-من الذي معي .. طال عمرك ؟

ذكرت له أسمي ، و أكدت له أن الأمر عاجل و ضروري . غاب عني
لحظات ، ثم عاد ليقول ، أن الأمير مشغول . اتصلت بمدير المكتب ،
الذي عرف صوتي . أخبرته بخبر الوالد ، و رغبتني بأن استأذن الأمير ،

بمخرج إبراهيم من السجن ، ليصلي على الوالد ، و يشارك في دفنه ،
ويتقبل فيه العزاء . وعد أن يبلغ طلبي للأمير .. و يرد علي . بعد □
دقائق ، حطم رنين الجوال ، جمود الصمت ، الذي خيم على روعي:
- ألو .. نعم..

- فلان .. ؟

- نعم..

- كلم .. لو سمحت ، سمو الأمير محمد بن نايف.

عزاني بأبي . قلت له ، إن المصاب على قلبي جلل .. أحتاج إبراهيم ،
ليكون معي ، في هذه اللحظات . لم أحتج لكلام كثير لأقنعه . فوجئت به
يقول:

- لن تكون هناك أوراق ، هو بضمانك .. كلمتك تكفي.

وصلت البيت .. و انتظرت صلاة الفجر . بعد الصلاة جئتها .. كانت في
مُصلاها . خائف عليها ، لا أدري ما أقول . ذكرت لها أنني مررت عليه
البارحة .. حيث تعب كثيرا ، فاتصل بي المستشفى .. ثم أضفت :

- وضعه صعب يا أمي .. صعب جدا ، و حالته خطيرة .

لم ترد .. بل أغمضت عينيها .. و همست:

- له الأمر من قبل و من بعد..

جعلتها تقرأ الحقيقة في وجهي ، وعيني .. قبل أن أقول لها:

- أمي .. أبي يطلبك الحل .. عظم الله أجرك فيه ..

رحل إلى الكريم الرحيم .. البارحة.

أطلقت آهة ، و فتحت عينيها على إتساعهما ، وهي تردّد :

" إنّا لله ، و إنّا إليه راجعون .. لعلك للجنة يا ابو محمد .. لعلك

للجنة ..

ضممتها إلى صدري .. و حين سكنت ، أخبرتها أنني أخذتُ إننا لابراهيم

، ليخرج ويصلي عليه .. فأشرقت من بين معالم الحزن ، في وجهها ..

علامات فرح . حين عدت للبيت ، استقبلتني زوجتي ، و أخبرتني أن (

المباحث) على الهاتف :

- نعم ..

- جاءنا توجيه من الأمير محمد ، بخصوص شقيقك ابراهيم .. متى

ستأتي لاستلامه ..؟

- الآن ..

-الوقت المسموح بخروجه □□ ساعة فقط.

- إذن .. آتيكم قبل الظهر .. لأننا سنصلي على الوالد ، رحمه الله ، بعد

صلاة العصر .

قبيل الظهر كنت في (عليشة) . أحضروا ابراهيم ، و لم يكن يعلم عن شيء

أخبرته .. غشيته موجة من الحزن ، وأنخرط بنوبة بكاء ، وقّعت على أوراق ، ووعدٍ ، بأن التزم بما فيها .. وخرجنا.

توجهنا إلى المستشفى . حررنا شهادة الوفاة.. غَسَلناه ، وَكَفَّنَاهُ . بروحي .. ذلك الجسد الطاهر ، يتقلب بين أيدينا .. و يصدق فيه قول الشاعر:

... "و قد كنتُ قبل اليوم .. صعبا قياديا. "

بيننا .. و بين صلاة العصر ، و وقت قصير . أمي و الأخوات ، أَصْرَرْنَ على (رؤية وداع .. (فاتجهنا إلى البيت . رأته أمي ، و رأته ابراهيم .

إمرأة توزع قلبها ، بين وداع حبيب .. و رؤية حبيب ..

لك الله .. من قلب ، كُتِب عليه العناء .. !!

صلينا عليه .. و وقفت على القبر ، يهيلون عليه التراب ، و أعد ذراته.

كأنّ غيبة الروح .. التي غادرت للأبد ، لا تكفي لتفصل بيننا ..؟

كأنّ الحِمْل و المسؤولية ، التي تركها ، رجلٌ (كبير) مثله .. ليحملها رجلٌ (صغير) مثلي ، لا يكفي ، لأعرف جسامة البرزخ الذي يفصلنا ..؟

في الساعة الثانية عشرة .. منتصف الليل ، كنت في طريقي لـ (عليشة) ..

ابراهيم إلى جانبي .. و الحزن معنا ، و أم جريحة .. تركناها وراءنا.

الأربعاء ١١ رمضان ١٤٤١ هـ:

الساعة الواحدة صباحاً ، كنتُ في طريق الملك فهد .. عائداً ، متّجهاً شمالاً

المستقبل المجهول ، بأضعاف امتداد الطريق ، و بأضعاف سِعتِه .. وَحِيدُ

و بلا رجال:

رجل أودعته الثرى.. و رجلٌ نزل ، يمشي على قدميه ، إلى زنزانته ..

وتركني .

وتبقى الكتابة هماً ورسالة

قال لي صاحبي ، إن بعضاً مما تكتب لا يعكس طبيعتك الهادئة ، ثم إنك ربطت نفسك بالحديث عن المناسبات الحزينة ، حتى صرت كأنك والحزن صنوان . ويكرس هذه (الصورة النمطية) عنك ، نبرة صوتك الهادئة الحزينة ، حتى إنني ما حدثتك يوماً على الهاتف ، إلا خلت ، أنك الساعة خارج من مأتم .

يا عزيزي.. يضيف صاحبي ، أنت لابد أن تكسر هذه (الصورة الحادة) عنك ، دع عنك الجراحات والبكائيات ، و(الوقوف على الأطلال) ، ورسم المواقف الحدية . اعكس فيما تكتب طبيعتك كما أنت أنك رجل حوار ، لديك متسع للرأي الآخر.. أبرز الجانب الإنساني فيك ، الذي يكاد يتوارى أمام صرامة الموقف وحدته . يا عزيزي.. إن المشاعر الإنسانية باب آخر لم تطرقه . كم من إنسان سيفتح لك قلبه ، لو خاطبت فيه مشاعر الحب ، وأحاسيس الإنسان . الكون ليس مأتما نقف في وسطه ، ننوح نوح الثكالي ، نشق جيبا ، ونلطم خذا . هناك من يريد أن تحدثه حديثا خاصا ، بعيدا عن ضجيج (المآتم) . خذه في زاوية منعزلة ، ضوءها خافت ، وافتح له قلبك.. وقل له إنني أحبك.. ثم حدثه حديثا خاصا . أنا أجزم أنه سيستمع إليك ، وسيبكي بين يديك . وقد يغفو على كتفك . فقط.. دعه يسمع النبرة الهادئة ، التي لا يعرفها في كثير مما تكتب.. أو ما يقال عنك .

يؤخذ علي في كثير مما أكتب ، ولقد تعرضت كلماتي كثيرا للمساءلة ،
والمصادرة. ولقد صرت أشك في نفسي : هل ما أكتب (غامض (إلى هذا الحد
(خطير) إلى هذه الدرجة؟ وطفقت أعرض ما أكتب علي بعض الأصدقاء ،
وعلى بعض القريبات ، لعلني أجد فرقا بين آراء الرجال وآراء النساء. في كل
مرة أعرض ما أكتب ، يحدق بي ، أو تحديق بي ، وابتسامة تملأ وجهه من
أعرض عليه ما كتبت ، فيقول لي ، أو تقول لي : جميل... لكنك تقصد
شيئا. أقصد شيئا.. أتساءل ، ما هو؟ ثم أردد في نفسي : أنا أكتب كلاما
عربيا فصيحاً ، فلا بد أنني أقصد شيئا. من يقبل أن يقرأ ، أو أن ينشر..
كلاما غير مفيد؟

صرت أتعب - بكل ما تعنيه الكلمة - حينما أكتب شيئا ، وكل ما رأيت
قلما قد كتب كلاما مفيدا ، أبتهج به وأحزن. أبتهج أن كلماته ، أو
كلماتها ، قد رأت النور وصافح ضياؤها أكثر من عين. وأحزن لأنني أتعسر
ولادة الفكرة والكلمة ، التي أحسها صادقة ، وحينما تولد ، أتعامل معها كما
تعاملت أم موسى مع فلذة كبدها. أضعها في تابوت ، ولا أستطيع أن
أدعيها ، فيصبح فؤادي ، كما فؤاد أم موسى ، فارغا.

يقولون لي ، أنت توظف اللغة والنص ، بطريقة تحتمل التأويل.. ويقولون
جرب أن تكتب في مواضيع (أخرى) ، أو ربما اسمك هو المشكلة. جرب أن
تكتب باسم مستعار أو لماذا لا تجرب أن تكتب باسم فتاة. إن المرأة مهما
قست تظل مقبولة.. لأنها (تبتش (بدون مخالاب ، اسم مستعار..؟ لو أنني

كنت أحمل هما غير الإسلام. لقد وصلت إلى حل. سأكتب. لكنني سأقرأه على من أحب. لا يهمني أن ينشر الآن، ما دمت سأقرأه على عيون تلتهم، لكل حرف ينبض بين السطور. تلتهم، ولا تتساءل عن ماذا أقصد، لأنها تحس بنبضي، قبل نبض الحرف الذي تخطه يميني. عيون لا تصفني بالتطرف، أو التشدد، أو عدم الحكمة، أو عدم تقدير الظروف.

ستظل الكتابة هما يورق كل أصحاب الرسائل... وسيبقى الحرف وستبقى الكلمة. وسيبقى الجميع، وكل من عليها. فما أروع أن تخلق فكرة... أن تحمل هما وما أجمل أن تنشر تلك الفكرة، لكن الأجل، أن تجد من تقتسم معه ذلك الهم. سيظل الحرف، وستظل الكلمة، اسمى شيء، لكن، أسمى ذلك الأسمى. أن تحتضن تلك الكلمة - دون تردد - عين تشاركك نفس الهم.

سكت صاحبي وقد طفرت دمة من عينه. أشحت بوجهي بعيدا أتأمل الشمس التي توشك أن تغيب، ثم قلت: لا تبتئس ستشرق غدا، ثم التفت إليه، قلت:

هل تفهم شيئا في التأويل..؟ ماذا تقصد؟ سألني. أجبت: في مسألة الظاهر والباطن، هل تعني مذهب الإمام ابن حزم، في الأخذ بظاهر النص، أو ما تقول به فرق الباطنيين، وغلاة الصوفية، من أن النصوص لها معنى ظاهر، وآخر باطن.

لا.. لا.. ليس هذا ما عنيت ، دعني أشرح لك.

حينما تقول لزوجتك أنك كنت مدعوا عند (فلان) ، وأن الأكل كان لذيذا..
وأن ترتيب المائدة كان آية في الذوق والنظام. هل يعني هذا أنك (تنتقد)
طبخها ، وطريقتها في ترتيب المائدة؟ وهل يمكن أن تواجهك زوجتك
فتقول: أنت (تتآمر) عليّ. أنت تحب امرأة أخرى..؟ لقد سمعت أنك
تفكر في الزواج من ثانية. هل كلامك عن طبخ زوجة صديقك ، أو ثنائك
على بيته المرتب ، يعني أنك لا تحب زوجتك ، وتكره بيتك ، وطريقة
ترتيبه..؟ هل تريد مني إجابة؟ انتظر دعني أعطيك مثالا آخر..

موظف في إحدى (الشركات) ، يرى ممارسات خاطئة ، ويعلم عن
تجاوزات. يحس أنه جزء من هذه (الشركة) ، وأن مثل هذه التجاوزات ،
ستؤدي في النهاية إلى انهيار الشركة ، تحدث مع أكثر من شخص ، عن
خطورة هذه التصرفات على مستقبل الشركة ، وحاول بأكثر من طريقة أن
يسمع صوته ، ورأيه لكبار المسؤولين في الشركة ، عن خطورة هذه
الممارسات. ثم لفت نظره ، بعدم الحديث عن هذا الموضوع ، فامتثل للأمر.
لكن المسألة لم تقف عند هذا الحد. أصبح كل ما يقوله (يفسر) بأنه يقصد
به الشركة ، وأنه (يتآمر) على بقائها ، من خلال تحريض الموظفين. مرة
قال : "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ، فاتهم بأنه
(يقصد) أن يقول للموظفين ، إن تغيير واقع الشركة ، لن يتم إلا إذا قاموا ،

هم بأنفسهم، بتصحيح أوضاعها ومحاسبة المقصرين. ومرة كان يتحدث مع أحد زملائه عن قضية اجتماعية، فقال: "لا يستقيم الظل والعود أعوج"، فقالوا إنه يقصد إدارة الشركة.

هذا كثير جدا... كان الله في عونك، هل انتهيت؟

لا.. دعني أسوق لك قصة أخيرة، كاتب في إحدى دول العالم الثالث، كتب مرة، فاستشهد ببيت من الشعر، للشاعر الكبير محمد إقبال، يقول فيه:

قيثارتي ملئت بأنات الجوى... لا بد للمكبوت من فيضان

لقد تم استدعاؤه، ووجهت إليه تهمة التحريض، والدعوة للتمرد، وتهديد الأمن والاستقرار. كما تم تفتيش بيته تفتيشا دقيقا، للبحث عن قيثارته، وتفريغها من كل (أنات الجوى)، وصدر أمر بتحطيمها، إذا اقتضت (المصلحة العامة). إضافة إلى ذلك، تم تحويله إلى (محقق) مختص، لمعرفة مستوى، ونوعية الكبت الذي لديه، وقياس الدرجة التي وصل إليها الكبت عنده، ومدى الخطورة التي يشكلها على النظام الاجتماعي، والمؤسسات المدنية. أيضا، وبسبب أن داء (الأصولية والتطرف) قد استشرى، وصار يهدد (المجتمع المدني) والمؤسسات الثقافية، والسياحة، والفلكلور، فقد كان هناك تأكيد شديد. لمعرفة ما إذا كان لهذا الكبت، أي

طبيعة دينية.

يا الله.. وصل الأمر إلى هذا الحد... إلى محاكمة النوايا، لماذا لا تكتب عن هذه القضية. إنها جديرة بالمناقشة؟

..... -

حاول يا أخي... لا تيأس.

- قيثارتي ملئت بأنات الجوى.. ماذا تقصد؟

-كنت قد سألتك في البداية هل تفهم شيئاً في التأويل، وقلت لي: هذا كثير.. يجب أن لا يصل الأمر إلى محاكمة النوايا.

أنا لا أقصد شيئاً. فطبخ زوجة صاحبي لذيذ، وكذلك طبخ زوجتي، وأؤمن أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، كما أن قيثارتي ملاءى بأنات الجوى وليس من حق أحد أن يطالبني، أن أحدد له نوع أنات الجوى التي تمتلئ بها .. قيثارتي

* البوح الأخير

تبقى الكتابة هما شائكا... إذا كنت مهموما... ماذا تكتب؟ وإذا كنت محزونا... ماذا تكتب؟ لن تكتب إذا كنت مسرورا... لأنك ببساطة، لن تكون.

كيف نبث أوجاعنا... ولمن نبثها..؟ للأعمدة التي تظل طول الليل منتصبة، تحرق في الظلمة، بأنوارها الخابية .. لمن نبثها.. إذا لم يكن هناك أحد يسمعنا، فضلا عن أن ينظر إلينا .. !!

للغراغ الذي يتوسع على حساب همومنا الممتدة بلا نهاية..؟

للقلق الذي يتضخم في أنفسنا، التي تبحث في سرايب الأسئلة؟

لمن يجب أن نصغي.. للقلب أم للعقل..؟ ما الفرق بينهما..؟

من الذي سيقودنا للسكينة والطمأنينة منهما..؟

إذا كان القلب موجوعا، كيف يهتدي العقل..؟ إذا كان العقل مشتتا.

كيف يرتاح القلب؟

مأساتنا أننا نعيش المثالي بكل .. طوباويته..

وفي المساء حينما يغفو كل شيء، بما في ذلك حلمنا المثالي، يبقى شيء
واحد فقط..، مستيقظا..

واقعنا الموحش..

هل ترين التناقض..؟

الذي نريده أن يغفو هو الذي يبقى مستيقظا..

والذي نريد أن نعيشه يبقى حلما..



شبكة روايتي الثقافية

[/http://www.rewity.com/bb](http://www.rewity.com/bb)